

ليل أفريقي / رواية



المركز الوطني للأرشفة



تأليف : رامون خوتا سندير
ترجمة : محمد أبو العطا

المشروع القومي للترجمة

ليل إفريقي

«إيمان»

تأليف الكاتب الإسباني
رامون خوتا سندير

ترجمة وتقديم
محمد أبو العطا



٢٠٠٠

هذه هي الترجمة الكاملة لرواية

IMAN

AUTOR:

RAMON J. SENDER

PRIMERA EDICION, ED. CENIT, 1930

EDICIONES DESTINO,

COLECCION DESTINO LIBRO,

SEXTA EDICION, 1997

مقدمة

رامون خوتا سندير (١٩٠١ - ١٩٨٢) روائى إسباني كبير وغزير الإنتاج (نحو ٩٠ مجلداً معظمها أعمال سردية). وهو من أهم رواد التجديد في السرد الإسباني في القرن العشرين. تتقاطع حياته وانتماءاته الفكرية وعدد من معايير التصنيف والتجويل، فهو في طبيعة «الرومنطيين الجدد» الموازية لجيل لوركا-جيين الشعري؛ وهو من أهم كتاب المنفى بعد الحرب الإسبانية، إلخ. من بين أعماله الكثيرة: "أمن عام" (١٩٣١) و"سبعة أحاد حمراء" (١٩٣٢) و"ليلة المائة رأس" (١٩٣٤) و"مسترويت في الكانتون" (١٩٣٥) و"منزلة الإنسان" (١٩٣٩) و"الدائرة" (١٩٤٧) ثم (١٩٦٩) و"الملك والملكة" (١٩٤٩) و"كتب أريادنى الخمسة" (١٩٥٧) و"قداس على روح فلاح إسباني" (١٩٥٣ ثم ١٩٦٠) و"وقائع الفجر" (١٩٦٣) و"مغامرة لوبي دى أجيرى الاستوائية" (١٩٦٤) و"فى حياة إجناتيو موريل" (١٩٦٦) و"النظرة الساكنة" (١٩٧٩) و"حظر تجول" (١٩٨٥).

أما المجلد الذى بين يدى القارئ فهو أول عمل روائى للكاتب، نشر فى عام ١٩٣٠، بعد ست سنوات من انتهائه من أداء الخدمة العسكرية فى المغرب، وفى وقت أصبح فيه معروفاً بجريدة "الشمس" المدريرية. وقد لاقت هذه الرواية فى الحال ترحاباً من جانب النقاد، بل ظل الكثير منهم أميل إلى الاعتقاد أنها أفضل ما كتب، على الرغم مما له من روائع أخرى، لما تنطوى عليه من رؤية تجديدية فى تقنيات السرد، وكذلك من صدق ونزاهة، فضلاً عن

منظور وروح عالمين مناهضين للظلم والنزعة العسكرية، وصنف من الكتابة التشكيلية والغنائية الرفيعة.

فى حالة رامون خوتا سندر هناك توازٍ شفيف بين شخصيته أو أسلوب حياته وبين أسلوبه الأدبى. فهو فى حياته وفى أعماله الأدبية "طبيعى"، بسيط، مباشر، غير متكلف؛ وجميعها صفات وراها حيوية خلقة، مقتحمة، بلا اصطناع، بلا تنازلات. وأول ما يلاحظ عليه من الخارج شخصيته القوية، انضباطه الواضح - البارد والمتناهى شيئاً - فى الإيماءة، فى الكلمة، فى تفصيلات تلمح إلى نبلة الخشن، الريفى، نبل أهل الأراضى العليا لإقليم أراجون الإسبانى وقوة شكيמתهم فى مواجهة طبيعة خشنة، باردة. أما من الداخل، عن قرب، فيتجلى من بين ثنايا شخصيته الحنو والرقّة والتفهم والتعاطف مع كل ما هو إنسانى. وفى أعماله الأدبية يظهر هذا الملمح الأساسى - المباشرة، البعد عن التكلف، الخشونة، العنف - أولاً، ثم تخف من حدته تباينات توقيعية وإيحائية وفكرية، وذلك بتناوب عناصر غنائية وكنائية ولحضور نفس روح التفهم والتعاطف مع مخلوقاته المتخيلة. وهذا بالفعل هو الملمح الثانى والجوهرى فى تعبيره الفنى، والأصيل أصالة الملمح الأول، والذى قد تجده أحياناً مهيمناً على عمل بأكمله، مثلما فى روايته "وقائع الفجر" المتضمنة الكثير من سيرته الذاتية. بيد أن الغنائى والأليجورى وروح التعاطف الإنسانى غالباً ما يجىء منصهراً مع الملمح الأول فى توتر متصل، هو إحدى السمات العامة لأسلوب المؤلف، ليضفى على نثره مجملأً من التباينات الواضحة: جملاً وعرة، مبتورة، محنوفة، وأخرى طيبة، طليقة، رخيمة. وهذا التراكب المتناغم من المتضادات التعبيرية علامة أسلوبية تحمل نحواً من رؤية

المؤلف للعالم؛ فهو لا يعتقد فى إحادية النظرة إلى الواقع.
وعلى المستوى الثيماتي تظهر نفس التباينات فتنعكس أولاً
على الشخصيات الرئيسية فى رواياته: فإلى جانب الأنماط
الخشنة والعنيفة تظهر عادة امرأة صغيرة السن تجسيدا للبراءة
والرقة.

وثيمات رواياته عامة متراوحة بين الخشونة والعنف الواقعى
بكامل وحشيته ("ليل إفريقى"، "منزلة الإنسان"، "مغامرة لوبى دى
أجيرى الاستوائية") والتأمل الفلسفى - الحياتى ("الدائرة")
والتمثيل الأليجورى أو الكنائى ("ليلة المائة رأس"، "الملك والملكة")
والصفاء الغنائى (الجزء الأول من "وقائع الفجر").

ومن أظهر صفات أسلوبه الأدبى البساطة الرصينة التى تبلغ
أقصى تعبير لها فى "قداس على روح فلاح إسبانى". ففوة الإيحاء
الكامنة فى أفضل نصوص رامون خوتا سندير تنبجس من
اقتصاده التعبيرى الشديد، من انضباطه الأسلوبى الانتخابى
الرصين. وهو لذلك يتطلب من القارئ انتباهاً مضاعفاً لتلاحق
وكثافة الفكر فى القليل من الكلمات. وفى نثر سندير، البساطة
والوضوح صفتان أوليان؛ كما أن الحيوى والمباشر سابقان على
التراكب والزخرف.

فهو يستخدم دائماً صيغ الفعل المباشرة والواضحة، متجنباً أن
يكون للكلمة حضور خاص أو أن تكون اللفظية غاية فى ذاتها؛ بل
يسعى إلى كل ما هو تعبيرى شفيف، إلى كل ما هو طبيعى.
أما غنائية نثر رامون خوتا سندير فتنبع أولاً من سياق السرد
وليس من اللغة نفسها، غنائية مبعثرة فى نسيج المناخ والحدث
والشخوص والثيمة، كامنة فى ترتيب النص.

في تصدير الطبعة الأولى، ١٩٣٠، يقول المؤلف إنه كان يحتفظ بمخطوطة الكتاب منذ ثلاث سنوات وإن فحواها "ملاحظات غير مرتبة، جد مسهبة أحياناً، وأحياناً بلا شكل أدبي، جمعتها خلال خدمتي العسكرية في المغرب، في أعقاب نكسة ١٩٢١". مع ذلك، ينأى هذا النص عن التباسات المبتدئ، إذ إن أسلوب الرواية ومعمارها الفني يبلغان مبلغاً بعيداً من النضج، فهذا نص طموح أدبياً وجمالياً.

وكان المؤلف أدى الخدمة العسكرية في المستعمرة الإسبانية بالمغرب بعيد نكسة "أنوال" التي منيت بها القوات الإسبانية على يد المغاربة. وهو هنا يعيد بناء الأحداث بنحو من المعرفة الدقيقة بمسرح العمليات وطبيعتها. وربما كانت الأحداث المسرودة انعكاساً لتجربة الكاتب نفسه لأنه اشترك في بعض فصولها الأخيرة.

تبقى ملاحظتان أو ثلاث أنهى بهما هذه المقدمة الموجزة:
(١) تتفق زاوية النظر في هذه الرواية وما انتحاه المؤلف من تجديد وحرية فهناك ثلاثة أنماط من الرواة تتناوب الحكى:
(أ) راوية - شاهد يحكى في ضمير المتكلم.
(ب) راوية "كلية المعرفة محايد" مطلع على الأحداث على نحو جزئي، فهناك أشياء لا يعلمها مطلقاً بذلك مساحات من السرد لخيال القارئ.

(ج) راوية كلية المعرفة تقليدية.
والغرض من تعدد أنماط الرواة وتناوبهم هو بالطبع الفكاك من هيمنة الراوية التقليدية المطلع على كل شيء.

(٢) توسل المؤلف كذلك عدة وسائل لكسر السياق الزمني التقليدي باستخدام تقنيات العودة إلى الوراء واختصار زمن الحكى والزمن البطئ والمناجاة الذاتية، إلخ... وقد يكون مهماً بيان البنية الزمنية للرواية، وهي كالتالى:

ماضى القص

مضارع القص

١- الفصول من ١ إلى ٤

- رواية شاهد يحكى فى زمن المضارع

- المكان: المعسكر

٢- الفصول من ٥ إلى ١٢

- عودة إلى الوراء

- رواية كلى المعرفة محايد

- المكان: موقع R، الفوار (٧ أيام)،

مليلة، المعسكر حيث لقاء البطل

بالرواية - الشاهد

٣- الفصلان ١٣ و ١٤

- رواية - شاهد يحكى فى زمن المضارع

- المكان: المعسكر

٤- الفصل ١٥

- نفس الرواية - الشاهد

- المكان: تكفات الجيش فى مدينة مليلة

(بعد ستة أشهر).

٥- الفصل الأخير

- رواية فى ضمير الغائب تقليدى

- المكان: إسبانيا، عودة البطل إلى قريته.

(٣) وسندير روائي معروف ببنائه المتميز لشخصه فعدد كبير منهم لا ينسى. وهو مبدع واع للشخص الثاني أيضاً بحيث ينهضون في أعماله بمهام بنوية محددة. في "ليل إفريقي"، هناك عدد كبير من الشخصيات الثانوية ("الشخصيات الخاطفة") التي تظهر للحظات قصيرة في حياة البطل الهارب من الموت، والتي يبدو أنها لا تتمكن إلا من تأخير النهاية المحتومة. والبطل يعي أنهم جميعاً في طريقهم إلى الموت. هاجس ما يؤكد أنهم على شفا الموت؛ وهم جميعاً يلقون حتفهم بالفعل، لأنهم ضمير الهارب، وعيه بموته هو. هؤلاء الشخص، رغم أنهم لا يحتلون مساحات كبيرة في السرد، يكملون الرسم النفسي للبطل، كما أن ظهوراتهم المتقطعة لا تنى تسوط وعينا وتتنبأ بعاقبة الهارب. فثمة إذن مساران متوازيان: تطور شخصية البطل والظهور المتصل للشخصيات الثانوية. الأول ممتد والثاني قصير، خاطف، كونتربوينتي، مباشر. وكلاهما ملتحم بالآخر، ليعززا معاً درامية النص.

د. محمد أبو العطا

تصدير الطبعة الأولى، ١٩٣٠

كنت احتفظ بهذه المذكرات منذ ثلاث سنوات. ملاحظات غير مرتبة، جد مسهبة أحياناً، وأحياناً بلا شكل أدبي، جمعتها خلال خدمتي العسكرية في المغرب، في أعقاب نكسة ١٩٢١: والآن طلبتها منى دار نشر "ثنية"، وأسلمها إياها على حالها تقريباً. كان دور الخيال فيها ضئيلاً، أو هو لم يتدخل في الحقيقة. وأى جندي من بين المائتي ألف الذين مروا من هناك فيما بين ١٩٢٠ و ١٩٢٥ بوسعه أن يوقعها. وبالطبع يمكن تعرف بطلها في السواد الأعظم من العمال والفلاحين الذين ذهبوا إلى هناك بلا أفكار خاصة بل كانوا يلبون دافعاً لا يخصهم، ومأخوذين بالأبطال الذين تنشر الصحف صورهم. والكتاب ليس له مغزى جمالي أو أفكار أدبية مسبقة. بل هو بسيط وصادق، يسعى إلى حكى مأساة المغرب كما كان شاهداً عليها أى جندي ممن شاركوا في الحملة. إليهم أهدى هذه المذكرات التي كتبت أيضاً حينئذٍ وصوت الطبيعة الإفريقية يتردد في الأذن.

رامون خوتا سندير

ليل إفريقيا

المعسكر

أربع ناقلات جنود تدخل المعسكر عصراً. صخب معدني متذبذب في رسوخ الصمت. تجلب الجفاف الجيري للبطاح المحيطة بالموقع وتسد المنظور بلا شجرة، بلا طائر.

قبيل ذلك وصلت كتيبتان تسبقهما الغربان، الطليعة المرتجلة للجيش. تسعون كيلومتراً في ثلاثة أيام. تلك المسيرة قمنا بها نحن أيضاً حتى هنا. شمس أغسطس تلفح الوجه في الصباح، منذ الفجر، ثم الوجه والظهر مع تقدم اليوم. ثلاثون كيلوجراماً من الأحمال، الكتفان متسلختان من أثر حك الأربطة والعرق، باطن القدم متشقق، وجير الطريق في الشقوق. نحو منتصف النهار نبصق وحلاً رمادياً. والماء، وإن يكن ساخناً، ربما صار متعة عظمى لولا أنه نفذ بعد أول عشرة كيلو مترات. ثمانمائة رجل، صامتون، بكم، خطوهم اللاإرادي مستسلم. مخلاة من يسير إلى الأمام تسد كل الآفاق. لا نعرف إلى أين، ربما إلى غير مكان، أو إلى نهاية العالم. قد تكون مهمة المرء منذ ولد السير أزلياً. يمحو الغبار الحاجبين، يضع قناعاً رمادياً على كافة الوجوه فلا يتعرف بعضنا بعضاً. خمسون مظلوماً على الظهر، تنغرس في النخاع. ونحمل مائة وخمسة وخمسين أخرى، في جُرب أخرى. البطانية مائلة، حقيبة الإسعاف، "كعب" الزمزية، "كانتين" الطعام، جراب مرتبة من الخيش مشدود إلى الظهر، المخلاة وبها طقم الشتاء وثلاثة غيارات، حذاء الميدان، المعطف المبطن، الثقل مثل زي راهب، ثم الأحزمة المثبتة عليها خزائن الطلقات كاملة، مدية من طراز حديث، البندقية.

التعب له فعل المخدر. لا نحس بالقدمين أو بالأثر الغائر للأربطة التي تتقاطع عند الصدر أو بالحجر. لو أن بمستطاعنا تنفس هواء نقي أو نلقى بأحمالنا يبدو أن هاجساً غريباً يثير قلقنا. سنسير دائماً، وذلك أفضل لأننا لو توقفنا لسقطنا على الأرض كالحرق. لا نفكر في شيء أو نرى شيئاً. والكيلومترات الأخيرة، حين يمتزج التعب بأول ظلال المساء، يشوبها شيء من الكابوس. منذ ساعتين والمعسكر يلوح في متناول اليد، لكن شبحاً شيطانياً يبعده. في نهاية المطاف، حين ندخله ربما كنا سنجتازه ونواصل السير كالنائمين لو أنهم لم يأمرونا بالتوقف ليصطف الطابور ولنحمل البندقية جيداً - الدبشك إلى الخلف - لطابور القائد وغناء النشيد الوطني. الكتيبتان اللتان قدمتا اليوم أنشدتا هما أيضاً نشيدهما. وقائد الموقع، الجالس أمام كوب جعة، حاتق دائماً لقلة حمية الأصوات.

تسعون كيلومتراً. تعب وحشى على الوجوه، كمن حكم عليهم بالأشغال الشاقة. أشغال باطلة: اليوم ننقل إلى هنا الحجر الذي يجب أن نعيده غداً إلى هناك. وعليها جميعاً تقريباً نظرة قائمة هي في بيانتي نظرة ذهول بعيدة ورمادية. وأكثر من الذهول مما يحيط بنا، تستشرف، إزاء الحالة التي بلغها أى منا، شعوراً بالمباغطة، وهماً متلهفاً إلى إمكان أن تتلاشى إلى الأبد تلك الحياة التي ما لبثنا أن بدأناها.

أفدنة من الثيران الشقر والبغال، القمح الأخضر، خشب الورشة العطر، نار الحداد البهيجة، مع لهاث الكيران كالسعال، المعدن الأزرق والأحمر المتقد. كل هذا ينتمى إلى حياة أخرى لم يبق منها سوى فكرة مبهمه كالحلم. ذاك كان العمل الذكي، الذي ينفخ الوجود معنى والذي بفضله يمكن الانزلاق فوق هذا الوجود باغنية بهيجة في الصدر.

حين يشرب يفكر بيانتي دائماً في هذه الأمور التي، إذ يهدأ، ينساها بإرادته. يشعر في النشوى بياس عذب يتعزى منه بنحو من الشفقة على

نفسه . أحيانا يفتقر إلى الوعي بحقيقة وضعه، حتى إنه ليباهى ببعض
التوافه كأن يقول لرفاقه بشئ من التعالي :
— أنا لست سوى "روتين" !

في المعسكر، أعراض عمليات . من المؤكد أن يصدر الليلة الأمر العام
بلغه من صنف "يمين التشكيل" ، ليحدد تشكيل القتال : "النسق الثالث
سيتكون من كتيبة N وسرية الرشاشات التابعة للكتيبة المذكورة وسرايا R
و X . ومن كتيبتين N و F ، ومنعهما مجموعة الالتحام 112 النظامية،
ومدفعية 92 الخفيفة والمدرعات 7 و 8 و 15 ، ومجموعة "سان بيثنتي"
للقنابل اليدوية، وطابور 15 ألوثينا وسرية الرشاشات التابعة له .

العمليات . أين؟ حامل أوامر غرفة القيادة يعرف كل شئ . رغم أنه دائم
الكذب، نسأله كأنما سيقول الحقيقة . ثلاثة أيام دون أن يدخل الدعم X .
ثمة قصف منذ بزوغ الفجر وتسطع إشارتان شمسيتان فوق الآكام الزرقاء .
"كادوا يصيبون الكتيبة 35" . لكنها تصدت لهم .

حركة بين جنود الإشارة . القادة يذهبون ويجيئون من العيادة . ثم
تصل أولى شاحنات قافلة الخسائر . ولما كان المساء يحتضر ولا وقت
للوصول إلى المدينة، ستبيت الحافلات هنا . خيام إضافية حول العيادة .
الضوء الأخير ينفلج في زجاج النوافذ، تحت الهواء الوادع والمتوتر . يحمل
الجرحي بطاقة معلقة في العروة، كبطاقة في بازار : "جريح . تمزق، جراحة
وخياطة . فصد" . "كسر عظمة فخذ . ضمادة . خارج الخدمة مؤقتاً" .
"جمجمة راحة . سد . غسيل حولها . عيون . أعراض وعى" . "جرح . . .

نقا... تسا... غسيل داكين كاريل".

رائحة شاش بالفنيك. سترات ممزقة ودم في جليد الضمادات. هذا يلعن حين ينحرف السربر النقال وذاك، المصاب "بعيارحظ"، يضحك لدى مروره ويغمز بعييه من سريره: "إلى المدينة وتصريح بشهرين إجازة في إسبانيا". على شبكة الحافلة تتكدس الجثث التي انحسر عنها غطاء من قماش خيمة. صباط، أطفال تقريباً، وجسود. دم في جداول صغيرة ينساب حتى أسفل النوافذ. يقول جندي في قتامة مبهمة:

— الكل سواء.

في دائرة قريبة يسمع حديث حامل أوامر مركز القيادة :

— ما ذبي أنا إذا كنت لا تفهم؟ الجيش الثالث هو نحن! إخلاء الخسائر رتيب ومضجر، فيذهب الجميع تقريباً إلى "الحانة":

— ما هذا؟

— مدرعات. أحضروها لتحمي خدمة النظافة.

— لا فائدة. هناك الكل يفر.

ذكر الخدمات الميكانيكية يمحو مؤقتاً أى قلق آخر. نتملص من العمل في التحصينات وإحضار الحجارة، وقبل كل شئ، من المقشّات. الفرقة المختارة في كل نوبة تتفرق في اليوم التالي قبل الخروج بنصف ساعة. ولكن إذا استخدم أى حكمدار هراوته، حينئذ نتطوع جميعاً للعمل. الخدمة شاقة، والقائمة تتكرر كل يومين. وأعمال الخندق الجديد لا تنتهى. كما أن خدمة السلاح والحملة قد تمنحنا فاصلاً من الراحة لولا جنون النظافة. نكنس من التاسعة إلى الحادية عشرة، حتى صعود الفصائل إلى مواقع المدفعية. خلف سيارات الإسعاف الطبية تصل قافلة دواب بخسائر جديدة. السهول الصفراء، التى تموج ربوعها كأنها بحر عاصف، تنحنى أغلبيتها فوق النهر، والقافلة تخط فوقها خطأً أحمر من الدم. ليست هذه حرباً

تراجيدية أو نحسة، بل عودة من رحلة قنص. المعسكر نفسه غارق فى سلام شفيف وصاف، لا تكاد تعكره زوبعة الطيران البعيدة. الدبابات وعربات الإسعاف والهواجس الغريبة تضى على المساء هيئة مبتذلة ومتألقة لعيد. بعض الحث يتدلى فوق البغال وتتارجح أذرعتها فى توقيع. هذا من الكتيبة 35. والآخر أيضاً. لكن هذا الأشقر من 61. وآخر من 35. تمر البغال مؤرجحة رؤوسها، غير مبالية، بحمولتها الطازجة. وهذا ؟ من أية فرقة هذا الذى تغطى سترته رأسه؟ بقول بيانثي من الخندق :

— اذهب وانظر، فلن يأكلك !

يقرب الجندي ويرفع قطعة من قماش الكتان : بغتة، يتركها وينفض بده الملوثة بالدم. يضحك بيانثي منحنيًا فوق فوهة البندقية.

— من أية فرقة هو؟

من يحملون السترة على هذا النحو قطعت رؤوسهم.

— ليتهم فعلوا ذلك ! على أية حال فيم يفيدك رأسك !

بغمغم الجندي المستجد فيما يمسح يده فى سرواله وبيانثي يوبخه :

— لا تسب جدك أيها الجندي !

الوساوس عنيدة فى المعسكرات. ويحملنا تعذر أن يحيا كل شخص حياته إلى تهوسات ملحة. وبيانثي عليه مهمة الكنس غداً. فريق النظافة فى حالة مزرية. روث وغبار فى الأسما.

— لو نفضت الكاكي لدفنتك حياً !

يطل المرفقان من الشقوق، ويتراص البق مكان الخياطة : لحية محتضر

تحت القبعة الزنخة. القذارة تطبق على أنفاسنا. أنا اغتسل صباحاً بقهوة الإفطار. يقول لنا القادة إن كل هذا غير مهم. إذ يعنى تحميله إظهاراً للروح العسكري. ويعنى الإبقاء على الأرض التى تحتلها الكتيبة أنظف من موقع البطارية المجاورة إعلاء لروح الانتماء. يهمهم الجندى المخضرم بين أكياس الرمل. مضى زمن منذ أن أقلع عن تفسير أمور الخدمة العسكرية. "من الأفضل اصطناع الجنون". بعد ذلك، يديم النظر إلى ظل أوتاد سور السلك الطويل.

وحدة جندى الحراسة ثقيلة وخشنة، ويزيد التأمل من فداحتها. وهاد بنية اللون، رمادية. وإلى وحدة المرء تتداعى فى اكتمالها وحشة الريف والسماء، السماء الأعظم رحابة وبرودة فى هذه الصحارى. نهراً، يسمع فى المعسكر همس الفراغ المحيط. وفى قيظ المساء، أكياس الرمل التى تؤلف نصف دائرة خارج حد الخندق، حول الديدبان، تلفحه. وتلفحه البندقية القريبة منه. وحين يطل فار من بين أكياس الرمل - فئران ضخمة، ولها أرجل أرنب، وبها بقع صلعاء-، يعطيه بيانثي "التمام" فلا يفر. للقبعة سلك يلف حافتها التى تلتهب هى أيضاً فى الشمس. والجمجمة، المحمومة، لا تحيل وحشة التناثى حنيناً بل تحبسها فى متاهة مرعبة من المستحيلات. لا طائل وراء الفرار من نفسه بالتأمل، لأنه يلقي بنفسه من جديد فى تلك المتاهة ولا شئ يعدل عذاب البحث عن مخرج. والتعريض على السياسة حتمى فى الجنود المثقفين. لكن، فيما عدا هذا الحل الذى يعزز وطأة القلق لما يثيره من حفيظة فى الضمير، يشعر المرء أمامه وخلفه، فوقه وتحت، بخواء خائق.

بين الخيام والعنابر الحجرية، التى دمرها القصف خلال الهجوم الأخير ثم سدت بأكياس الرمل، يصطف فى المعسكر خمسة آلاف رجل هم قوام الفرقة وبطاريات المدفعية. نصف رغيف خبز تحت الإبط وطبق من الصفيح

فى اليد؁ يتدلى عند الفخذ . تفوح رائحة إطار محترق (سقق خنزير زنج)
ونشا قمصان لوئها العرق (أرز) . ولدى عودة كل قطاع : كسرولات وأوعية
سودها السناج . "انتباه ! " تمام ! " حسن؁ تقدم ! " انتبأااه " " سرية " ،
" انتباه " ، "للأمام " ، "توزيع " ، "لا أحد يخرج عن الصف " ، "كل ثلاثة
معاً " "أتريد مزيداً من البطاطس ؟ ربما؁ إذا أخذت مكانك فى نهاية
الصف " ، "تأكل كالمنشار " . بعد "الوجبة " ، يسمع فى كل مكان صوت
حك الأطباق فى الحجارة . يتقاطر صوب "الحانة" آخر الجنود . يهتمهم
جنديان لدى مرورهما بالجثث :

– الويل لنا لو اختارونا ضمن نوبة الحراسة الإضافية ! سيضطرون إلى
إقامة أربعة مواقع لحراسة الجثث .

– أعتقد أنهم سيحرسون الجثث كما لو كانت أسرى ؟ هي لن تفر؁
هذا ما أقوله .

– ليس هذا ما أعنيه؁ بل إن هنالك دائماً سفلة يسرقون أخذيتهم أو
أى شئ يجدونه . لأن أى ميت قد يحمل ساعة فى يده . وكل هذه الأشياء
لها قيمتها : رغيف شهى؁ عملة ورقية .

– هراء ! يقولون إننا سنتحرك غداً ؟ حسن؁ سأنفق الآن كل ما معى من
نقود؁ فلا أحد يعلم الغيب . أعتقد أن أى شخص سيفعل مثلى .

ينفذ صبر بيانثى فى موقعه . تأخر تغيير نوبة الحراسة . يرى الوهدة؁
حالكة الآن فى القاع وخضراء فاتحة فى السفوح : ويرى الطريق الأبيض
المسطور بظلال عدة مطبات والعصى المتشابكة لسور السلك الذى يسد

المعسكر على الطريق . تلتصق زرقة الآكام ناحية النهر الميت والراكذ بين الحجارة الرملية . سهول دراوشة تكتسى حمرة . إلى اليسار ، قمم تازة ، كالإبل ، تتشوف القمر بين أسنمتها ، بلا جدوى . ففي هذه الليلة لن يظهر قبل الثانية صباحاً . تضيء نجوم حمراء وتجتمع في القيعان ؛ ثم تأتي بروق طويلة تجر نفسها على السهول . ثم طلقات المدفعية المتلاحقة .

بوق القيادة يدعو إلى الصلاة وتلبى نداءه ، كالديكة في الحظيرة ، أبواق الكتائب وبطاريات المدفعية . وبيانثي ، القائم على نوبة الحراسة ، بسمته الشارد ذاك الذي يخلف فيمن يراه شعوراً بالتناثي وعدم الاكتراث ، يردد كلمة السر ما إن يسمعها :

– "لدى البنت الجميلة" (الخامسة عشرة مشاة) . "اللعة ، ما أكثر الفئران" (سلاح المهندسين) . "لنر ، من فقد الفتل" ...

هذا النفير الأخير طويل ومنغم ، كأنه تيمة أوبرا . يستند بيانثي إلى أكياس الرمل ويغفو . غفو أرنب ، لا يكاد يغمض عينيه ، ويصيح السمع . أي صوت مباغت يوقظه ، بيد أنه لا خوف من أن تقلق نومه الأصوات المعروفة . الدورية – "تمام" - وورقة يهزها النسيم على السلك الشائك . أي مستحد كان سيطلق النار . لكن السفح ينهض الآن كموجة ، آخذه في الانتفاخ . قدماء تنزلقان في القس الذي يغطي الأرض لتجنب الطل ليلاً . لكن الطين أسوأ ، في الشتاء . وفي السرية ... إذا كانوا لا يقدرونه فلا بهم : يجهلون كم كان عاملاً ماهراً في ورشة الحدادة بقريته . معلم حداد . ستة أعوام من إشعال نار الكير منحته ، بعد المحن والجوع ، خبرة لا خلاف عليها . كان يجذب الفولاذ إليه كالمنطيس . كم كان سخيلاً ذلك العجوز الذي اعتاد أن يقول له ذلك ا غير أنه كان بحمل ندوباً تؤكد قول العجوز . بحرسته كان في وسعه أن ينهض بعمل نافع في مستودع سلاح الفرقة في المدينة ، دون حاجة إلى الخروج والزحف على

بطنه فى البطاح : لكن، فى الورشة، كان هنالك أحد عشر مصاباً أكثرهم خبرة كان يعمل من قبل نادلاً فى حانة فى برشلونة . لكى يصبوا إلى مثل تلك الأعمال لا يكفي المرء كونه ماهراً فى حرفته : عليك أن تتعلم كيف "تتفاهم" . لو عرفت كيف "تتفاهم" فسيكون لك شأن آخر.

مازال النعاس يغالبه . تسير سريره على أكمل وجه منذ أن قدم ذلك الرقيب الهمجى بناموسيته الوردية وهراوته . أما بقية الرقباء فلا يحتملونه . أمر طبيعى . ومع ذلك، إذا أصابك إصابة مباشرة يمنحونك ثلاثة أيام راحة من الخدمات . "لقد سقط" ، والطبيب يشيح بوجهه عنك، لأن ضرب الجنود محظور، وكذا السرقة . لذا يقولون إنه "عوقب" و"أصاب نفسه" .

بخار كثيف من دخان البترول فى حانة "بلانكا" ، ووجوه محتقنة من أثر الشمس والكحول . يجلس عشرون أو ثلاثون جندياً على الأرض، يحتسون زجاجتين كبيرتين ويغنون ويصفقون ويخبطون على الألواح الخشبية . الأغنية هزلية وتتحدث عن شخص يدعى فيليبى ، من هواة قضاء الليل خارج المنزل، يعود إلى منزله صباحاً فتضربه زوجته . لكنهم يغنونها فى جدية صارمة، بأصوات لزجة وعميقة، ولهذه الأغنية -ولا أدري ما السبب- سطوة درامية تمزق القلب . فى ناحية أخرى، هنالك من يلعب البلياردو على منضدة قديمة بدون غطائها الأخضر، والكريات المتهترئة تندحرج قفزاً فترتد مرة أخرى . وبلاط الأرضية غير مستوي حتى إن اللاعب ليختفى تقريباً فى دورانه حول المنضدة .

— أية "علقة" تلقتها الكتيبة 135

يمدح العسكرى المغربى الكتيبة على طريقته :

— لديهم قلوب مكان الأحشاء!

يوضح النظاميون (من المغاربة) :

— لولانا نحن الذين مددنا لهم يد العون ما نجا منهم أحد . والمدافع الرشاشة — تاتاتاتاك — تطلق نيرانها على بعد شبر من مجموعة الالتحام . خمس عشرة بطارية . ومدافع الهوتزر التابعة لسرية الاستطلاع ، وعلى الجانب الآخر من الجبل ، السفن الحربية . ومع ذلك ، عاد أفراد سلاح المهندسين دون أن يشبتوا وتداً واحداً . اطرق ، اطرق ، ثم الفرار . والعساكر المغاربة ، المنبطحون أرضاً ، ليس هنالك من يجبرهم على التقدم خطوة .

يقول عسكرى مغربى :

— آه ، يا أخى . أنا أحارب مثل فار . الحكومة الإسبانية ترقى علياً عريفاً وعلى لا يشترك قط فى العمليات . شخص مثلى ، ثلاث وعشرون طلقة ثم لا شئ . من قبل كنت أحارب ورأسى فى السماء ، والآن مثل فار ، حجارة ، حجارة ، فإن لم تكن هنالك حجارة ، أبقى ساكناً .

— والدبابات ، أتشارك مع جيشنا ؟

— أى حياة هذه ! الدبابات تمضى إلى حيث يأمرونها .

— تسير فى الجبال كما تسير فى الطرق ، انتبه أيها الجندى ، ثم تحطم

المنازل .

لدى دخول الحانة ، يعثر البعض فى قوس الباب فيرتج العنبر كله ويصدر صرير عن الخشب والصفيح . فالحانة أقيمت من بقايا صناديق وصفائح البنزين المحطمة ، من خرق الخيام والعلب الواهية . بعض أجزاء من القنابل — مثل زجاجات فولاذية ضخمة — تؤمن السقف ضد الريح . وصاحب الحانة رجل أعرج له هيئة غريق فى أوبريت إسباني ، ولا أحد يعلم يقيناً هل هو والد بلانكا أم زوجها أم هو يستغلها . أما هي فلا تكاد تخرج من وراء الطاولة ، حيث

تقوم فقط على خدمة أفضل العملاء. ويذهب الأعرج ويجيء بين الأركان المعتمدة، يقرب الصناديق من الجماعات المتفرقة على الأرض ويقدم لها النبيذ. وهو يضبط إيقاع حركاته مع عرجته: أى أنه يذرع الحانة ويداه محملتان بالأكواب دون أن تنسكب قطرة واحدة. لكنه يزدري الجنود الذين يذهبون بأكوابهم فى طلب نبيذ بريالين. وأحد دواعى زهوه أن لديه مشروبات راقية من أجل السادة الرقباء والضباط. الحانة مكتظة عن آخرها.

— من يشتري طابع بريد؟ اللعنة! لما كان البريد مجانياً على أن أخفض ثمنه، ومع ذلك لا أحد يشتريه.

تقبل جماعة أخرى. فى المقدمة، جنديان يحملان الطعام فى الطبق، يحفظان توازنهما كي لا ينسكب.

— أحصيت سبعة وأربعين قتيلاً، كلهم من الضباط تقريباً.

يرد الآخرون وهم يهزون مناكبهم:

— يالسوء طالعهم!

يتناجى جنديان بالقرب من الطاولة ويومئان برقة دبلوماسية:

— لا أسير حافياً. نصف نعل من القنب وقطعة من جوال. يجب أن

نفهم أن الخدمة العسكرية هى الخدمة العسكرية. ذهبت إلى ضابط الصف لأن حذائى انتهت مدته منذ ثلاثة أشهر.

— ثم ماذا؟

— قذفنى بمسطرة فى رأسي. من حسن الحظ أننى كنت أقف بباب

الخيمة. أنا أعتقد أنه لا يريد توزيع الأحذية الجديدة لأننا سنخرج غداً.

لأنه —ضع فى اعتبارك— من يضمن لى أننى لن أصاب بعيار؟ فإن أصبت فهذا معناه ضياع زوج من الأحذية.

— بالطبع. هذا يحدث!

—ثم طلب منى أن أعيد إليه المسطرة.

— وهل ضربك ؟

— كلا

— أحب بضباط الصف من هذا النوع . أما أنا فيجب أن يعيش حذائي
خمسة شهور كاملة، ويمكنه أن يدوم لولا أن يجانبني الحظ وأطأ روثاً،
حينئذ يحترق النعل.

ت قبة الألواح الخشبية المقلقة، الهواء كثيف، حار. والعرق يتألق في
أمام قنديل غاز يشيع فيما حوله ظلالاً قمرية. نهذا بلانكا المنتصبان
إن الطاولة ويستقطبان رغبة الجنود المشتتة كأنهما قطبان كهربيان.
الحانة والسور تمر دوريات الحراسة. وعند الباب، تتحاور جماعة
نقسيم البزيتات الخمس، مرتب الجندي في خمسة أيام. يدخلون
يغيروا النقود. في أحد الأركان، يغني جنود الفصيلة أغنية بإيقاع
نحو وبكلمات ارتجلت في يومها ثم ذاعت، وتشير إلى حادثة أودت
ة قائد الفصيلة في ظروف بطولية. الموسيقى خابية وحزينة.
قول "، جندي الفرقة الأجنبية، ينظر إليهم شزراً، نافذ الصبر، يشرب
ق حين يمر الأعرج بالقرب منه، يطلق سبابه ويضيف كأنه صحاح من

— أيها الأعرج، سوف أكسر رقبتك!

— أيها الإسباني الوقح!

- ثم يوزع الأعرج النبيذ مردداً، في حنقه على جندي الفرقة الأجنبية:
- نزهة صغيرة في سيارة، هذا كل ما أرجوه له!
- يقصد السيارة الجنائزية، لكنه يجب أن يفسر مقولته لأن أحداً لا يفهمه من الوهلة الأولى. من هو قائد الطابور الثالث؟ يُسمع اسمه. يرد أحد الجنود النظاميين:
- لا أحتمل هذا الرجل، بيده في خاصرته يعتقد أنه يحيي ويميت. رغم كل هذا الصلف أعطاه "بوراحي" التمام في الطريق. رأى سيارته تقترب بسرعة فأمر المغاربة بالتوقف واقترب من الكولونيل:
- "– تمام يا افندم، حارقة (ميليشيا) بنى سعيد الحليفة.
- شكراً، إلى أين تذهبون؟
- إلى أحد الجيوب، كمين.
- حسن، استمروا.
- تمام يا افندم!
- يسأله آخر:
- وهل كان "بوراحي"؟
- "بوراحي"؟ كان هو الجيب كما قال، وهناك قضى على عميد فرقة ثيرنيولا الذي ذهب إلى هناك لتأمين طريق السيارات.
- بعد صمت طويل، يفرق في الضحك فتى أشقر كان ينصت إلى الحديث، بمنأى عن الجماعة:
- ياللسخف: تمام يا افندم!
- بدأ الأعرج يتناول الشراب بدعوة من جندي الفرقة الأجنبية الذي لا يدفع بالطبع. كل يوم على هذه الحال.
- اللعنة، الإسباني الوقح!
- بيد أن كل شيء يتبدل مع آخر حسوة في الكأس الرابعة. يهتف الجنود

لصاحب الحانة، التمل الآن، والذي اعتلى منضدة البلياردو وبدأ فاصلاً في رقص الفلامنكو. ياخذ الأعرج الأمر مأخذ الجد، يقسم أنه كان أفضل راقص فلامنكو في مقاطعة "البرية"، ويتابع إيقاع التصفيق متحرراً من عرجته. يشب "كراكول" خلفه ليصاحبه. صالحتهما الخمر. يرقصان معاً. يؤدي الأعرج دور المرأة و"كراكول"، مقلداً شخوص الرقص، يدور حوله ويلطفه ويغازله. ثم تتفجر البهجة حين يقرصه "كراكول". تتقارب الوجوه، الحمرء من أثر الشمس، والملتحية، والحليقة، وتزار بين حشرجات الضحك. من يد إلى أخرى تمر الكؤوس حتى تبلغ الراقصين. بغتة، أعيرة طلقات نارية في المقدمة. يقول الأعرج متوجساً، كالعادة:

— كانت قريبة من هنا.

يشب من فوق المنضدة ويتجه صوب الطاولة، خائفاً.

— لقد قلت ذلك لقائد الموقع: إذا كان سيدي لا يريد أن يضاعف مواقع الحراسة عند المتاريس فليعطوا العاملين بالحانة في هذا القطاع بندقية، ونحن، بمعرفتنا، سنقيم نوبات حراسة كل ليلة. فالمرء يجيء هنا ليكسب كسرة خبز ولكنه منكشف ككلب. ليست مسألة خوف يا سيدي الكولونيل قائد الموقع، لكن لاحظ أنهم دخلوا من هذه الناحية ثلاث مرات.

خلف الأسوار، يشعر بيانثي بالسأم. يود تأمل نفسه: لكنه لا يستطيع. تضيع منه الفكرة كأنما يريد استكناه أصل العالم. يشعر بخواء عاطفي. لا انسجام له إلا انسجام النبات مع الضوء والماء والأرض. والكراهية؟ آه، نعم! يكره ضابطاً، ولكنها كراهية سابقة على انضمامه إلى الجيش، فضلاً عن أنها كراهية مركزة، يطهرها لهيبها نفسه. يكره دياث

أورينيا بلا أمل فى الانتقام ولا حتى رغبة فى إحياء هذا الأمل . من هو دياث أورينيا؟ لكن، أليست هنالك أية ميول أخرى فى نفس بيانثي؟ أليست هنالك عواطف؟ تعكس نظرتة "لا نهائية" موحشة ورمادية عبر ذلك الذهول الدائم والأصيل . ينظر إلى صفوف السلك الشائك الثمانية أو العشرة المتشابكة، تم إلى الطريق الذى يتوارى عند منعطف . تعاوده ذكرى دخول كتيبة المستجدين لدعم الموقع . مرتبات من إسبانيا مقابل خدمات الحراسة ونقود جديدة . سيغش فى القرعة على نوبات الحراسة الليلية ثم يبيع نوبته -التي ستكون الأفضل بالطبع- لأحد "أولاد الذوات" . فى المرة الأخيرة باع نوبة حراسته لذلك الصيدلى الذى يلبس نظارة بعد أن سلبه إياها . هذه الليلة أبضاً يقوم بنوبة حراسة . إنها الخبرة . بلانكا، فتاة الحانة، التي لم تعد تقرضه، حين تراه يخرج بزيتة من المؤكد أنها ستعاود إقراضه . تحت لحيته الخفيفة، يضحك ضحكته البعيدة . عيناه الخافتتان والغائرتان تستدعيان الفتاة ويدها فى خاصرتها تغنى دون أن تنظر إليه حين يطلب منها نبذاً بريالين على الحساب :

"حين أقبض، سأسدد، أسدد،

/حين أقبض، سأسدد، أسدد"

عبارة غبية طارده فى كل مكان كلما حضروا إلى هذا المعسكر . كتيبة جديدة، أعيرة نارية طوال الليل . لا أحد يغمض له جفن فى الخيام القريبة من المتاريس . لكن بيانثي يغفو . يغفو واقفاً أو سائراً، طالما هنالك شئ يستند إليه . أحياناً، تكفيه البندقية . أما إذا كان سائراً فيكفيه ذيل بغل، وإن كان عليه أن يأخذ حذره لأن بعضها تثيره دغدغة ويضطر . "وتغيير الحرس؟" الآن يتضح أن الدورية التي كانت تقترب ليست دورية الحرس، بل خدمة الليل التي تتجه صوب مقدمة الموقع . يبرز برج المراقبة فوق الأكمة

ويهيمن على المكان حيث ينبسط الجرف فوق النهر. يسرون بأربطتهم فوق عباءاتهم المبطنة يضحكون ويمزحون. ويرى مسدس الطلقات الضوئية الضخم الذي يحمله العريف فى خاصرته. فجأة، يصطفون.

- صمتاً فى "قطارين" جنباً سلاح "سقاطة" الأمان فى مكانها يصمتون فى الحال. بعيداً، يعبرون السلك الشائك ويتلاشون داخل برج المراقبة. وبيانثي، دهشاً، ينظر إلى السفح المقابل: فارس وثلاثة جنود.

- قف! انبطح!

-أنا الرائد أنسواجو، أيها الأولاد...

لا يهم -يفكر بيانثي-، هذا "المنحوس"، لقد انقضى موعد دخول المعسكر.

هو يعرف أنسواجو جيداً. اعتاد الخروج حتى النهر للهو. إلى هناك تذهب عجوز مع فاطمة، التى تقبض خمس بزيئات. وذلك ما يسميه هو: الخروج تحت الحماية المدنية.

- قف! انبطح أرضاً! عريف النوبة!

-أيها الغبى، أنا الرائد!

لكن الحارس يصر، لا يتراجع. ويراه أنسواجو متأهبا لإطلاق النار، يتذكر أنهم منذ وقت قريب قتلوا زميلاً له بنفس الطريقة: يترجل عن الجواد ويستلقى على الأرض مطلقاً اللعنات. والآخرون أيضاً، فى صمت. بيانثي، عاضاً نواجزه، يصبوب بندقيته نحو الجماعة، يهمهم بحنق غير مفهوم. يصرخ الرائد:

- ساهشم قرنك!

فيجيبه بيانثي بصوت خفيض:

- بل قرنك!

يصل العريف:

— ماذا هنالك؟

والحارس يتكهن بعاقبة ما فعله. لكن، على أية حال، ذلك الشخص يستحق ما فعله.

— أوامر سيدى الرائد، تمام الحرس الجنوبي!

-أبدل هذا الحارس وليتقدم إلى مكتب الضابط.

يدخلون. يدنو العريف من بيانثي:

— أوقعت نفسك فى مأزق!

-كان بوسعى أن أفتح عليهم النار دون أن أثبتهم!

-ولكن، اللعنة!، لم تقدم على مثل هذه الحماقات؟ أعتقد أنك

تفعلها بالفطرة!

يهز منكبيه. مخضرم! أربع سنوات فى الخدمة العسكرية -إذ يقضى مدة إضافية إثر محاكمة- تمنحه شيئاً من الخبرة. شاء لو اتخذ سمناً متعالياً بيد أن العريف لا يرى إلا قناعاً من الغباء.

— تنتابك نوبات جنون!

يشرب انسواجو كل ليلة وفى أحيان كثيرة يعن له أن يمر على الخيام ليفاجئ الحرس الاحتياطى:

— كم جندياً...؟

لا بد من الإجابة بلا تردد. يسجل الرائد الرقم فى دفتر.

— عدد البنادق؟ ... والمرضى؟

ثم يدخل الخيام ويتأكد بنفسه. يسجل فارق الأعداد ويجمعها ليعطى الجندى جزاءه من الضرب بالعصا بعدد الخطأ فى الأرقام التى ذكرها. أحياناً يصل إلى أربعين أو خمسين. أقسم أن ينتقم من بيانثي. اعتاد أن يقول له وهو يضربه، متذكراً المحاكمة:

— ضائع، فوضى، ذاك أنت!

بلغ الأمر بالجندى حد الشعور بالرعب من سوط الرائد : لكنه اعتاد الخوف ، ومن حين لآخر ، كما حدث الآن ، يسعى إلى الانتقام . غير أن فكرة المسؤولية تأخذ بخناقه هذه الليلة أكثر من أى وقت مضى . ولكي يستعيد سمته غير المكترث ، عليه أن يلقي بنظرة على الخيام التى أودعوا فيها الجثث وأعلى إحدى الشاحنات التى مازالت الجثث مكدسة فوقها تحت الغطاء الواقى من المطر . حكمدار الخدمة يحذره :

— يتم تغيير نوبة الحراسة الآن ، ما إن نجرى القرعة على الخفرات . بعد ذلك ، تمثل أمام الضابط . أنت محروم من "التعيين" . وتنحصر خدمتك بين أقصى موقعين فى المقدمة .

ثم يضيف قبل أن يذهب :

— مجنون !

ثعبان طويل ضارب إلى السواد يزحف إلى جانب المتاريس. الدعم الليلي. إلى جانب كل حارس أربعة رجال. تنطلق نوبة الرجوع. فى النهاية، يقول بياثي ككل يوم منذ أربعة أعوام:

— ذهب يوم وجاء يوم!

تنبح كلاب فى قلب الليل، فى الوادى الموحش. وقريباً من السلك الشائك تعوي أيضاً بنات آوى، تتشمم النفايات. لا أحد يراها مع أن نحيبها — الذى يفوق نحيب البشر — ينبعث من العتمة القريبة من المعسكر. وليس من الغرابة فى شئ أن العرب، فى أساطيرهم، يربطون بين هذا العواء وبين خرافة الأرواح الضالة. هذه الناحية من المعسكر غير مأهولة تقريباً ويلفها صمت خرب. والركن غير المأهول له وجه شبه بمنظر قمرى: فوهات بركانية لحلقات من خيام متهاكة تشع بياضاً مشرقاً تقريباً.

تأتى التعزيزات وتجرى القرعة. ولا تحول مراقبة العريف دون فوز بيانثي بالنوبة الأخيرة، الأفضل، لأنها تتجنب مهمة استكشاف الأرض المحيطة عند الفجر. يبيعها للصيدلى، لكن هذا لا يدفع له أكثر من ريالين. بعد انتهاء نوبته يرسله العريف إلى مكتب الضابط المنوب الذى يعيده بدوره إلى مقر الحراسة ثم يرسل ملحوظة إلى الرقيب إريارتي. أما بيانثي فيذهب إلى حانة "بلانكا"، معتمداً تكتم العريف. الانضباط ثقيل فى الظلمة الباردة ويجبر المرء على التسلح بالحذر من ناحية المقدمة. يرتفع صاروخ ويشتعل فى السماء كزهرة الماغنسيوم. يدوم عدة

ثوان ويعكس في نقاء ظل الخيام. طلقات نارية في الجرف. ولكي يتجنب لقاء قائد الموقع، الذي اعتاد الوقوف بباب مركز القيادة، يحيد عن طريقه ويمر تحته عريش طويل من الأغصان الجافة. يفلسف جنديان جالسان على الأرض، فيقول أحدهما وهو يحك صدره:

— ماذا ينتظر من أرض كهذه، ليس بها عصافير؟

يتعرفان ببائشي بعد مروره:

— إيه، يا أخي إلى أين؟

— اللعنة

— لا تصرخ!

— لم تكن ساعة الصمت بعد!

— تبحث عن المتاعب!

يضحك ببائشي ضحكة خالية من التعبير:

— لقد وقعت في المحذور بالفعل! وأفضل ما في هذا الأمر أنك لا

تحاسب عليه مرتين!

— ليتني كنت في الحراسة، حدث تراشق بالعصي هنا في الداخل

فخرجنا من تحت الأرض كالسحالي.

يحرر الرقيب خطاباً في خيمته فينقلب المصباح (معلبة طعام بها

بترول). أما شعلته فرباط حذاء من القنب يطل من أعلى العلبة شبه المفتوح.

— هيا، اذهب إلى الجوار وأحضر ضوءاً!

يذهب جندي المراسلة إلى الخيمة المجاورة. ثلاثون أو أربعون جندياً

يمزحون ويغنون بعد العشاء . يظلم المكان، وعلى الرغم من الوعد بإعادة الضوء، يتأخر الرقيب في الانتهاء من خطابه . شرع جندي يغنى : "فى بلدى... لا ضوء هنالك، منذ أن جئت أنت إلى هنا" . والرقيب يرفع بصره عن الورق وينصت ويدمدم :

– أولاد القحبة يطلبون تسلياً لن تبقى عظمة سليمة !

فى نهاية الأمر، ينهض ويضغط الحزام فى تؤدة مرعبة .

– يا ولد، أحضر الهراوة !

يحمل إليه جندي المراسلة عصا غليظة بها عقد ويحتفظ بها الرقيب دائماً إلى جانب السرير، تحت الناموسية الوردية الأنيقة . بعد ذلك، فى الظلام، تضرب الرقاب والمفاصل :

– خذوا ضوءاً، أيها الخنازير .

همهمات متسارعة، صيحات مختنقة . بعد عدة ثوانٍ، وعلى الرغم من أن الرقيب يسد باب الخروج، لا يبقى أحد فى الخيمة . تسلق ثلاثة جنود العمود الخشبي ولبثوا هناك معلقين من القرص الخشبي فى نهاية العمود . يلومه إرياتي :

– ذاك أمر مؤسف !

– على العكس بالطبع ! ترى لم تسير السرية كالحرير؟ بسبب هراوتى . وأنتم تجدون كل شئ على ما يرام ثم تصطنعون الإنسانية فيما اضطررنا لضربهم .

يهز بيانثي منكبيه :

– يالسوء حظكم ! إذا كسرت ذراعك فلا تستخدم عكازاً بل رباطاً،

فهذا أنسب !

يستأنف سيره وعندما يعود من الخيمة يلتقى جندياً بالغ الشحوب،
مغطى من قدميه إلى رأسه ببطانية ومستنداً إلى سياج الخيمة. على حاله
هذه، منكمشاً تحت العباءة القذرة وغائراً رأسه الضارب إلى الصفرة في
الطوية المدببة للبطانية، يبدو في السبعين من العمر. أصيب بحمى الملاريا
ولا يريدون إعفائه من الخدمة، ترتجف يده. يبدو أن الحمى تمكنت منه. لا
يكاد يسمع. على الأرض، الطبق المنبعج والصدئ به قليل من اللبن.
— ماذا تفعل هنا؟

ياخذه بيانثي من ذراعه ويقوده حتى الخيمة، لكن المريض يقاومه،
يغمغم من بين أسنانه. يقول له الجنديان الآخريان:
— دعه ليست هنالك وسيلة تجعله يدخل. أصابته الهراوة مرتين أو
ثلاثاً ويعتقد أن الرقيب لم يزل في الداخل.

يتردد بيانثي، وتتقد عيناه بتعبير غضب يبدل سمته. لم يعد نفس
الشخص، بل الرجل الذي كان بوسعه أن يكونه، وربما الرجل الذي كانه.
لكن، كلا. لم يكن بيانثي على هذا النحو مطلقاً. والآن يساوره القلق
بشأن أصغر الأمور، تلك القريبة منه، وذاك واحد من مبررات حيرته أحياناً،
حين يفكر في السنين السابقة، سنوات الوداعة والإقدام. في مثل هذه
الحالات، لكي يعي أمراً طارئاً أو عارضاً، كان يرسم صوراً عامة، تقترب من
الكوني والأزلي. كان يعايش الابتدال دون أن يراه أو يستشعره. والدقائق
لم يكن لها ثمن في حساب عمره. كان بوسعه أن يحسب الزمن بالقرون
وحالته المعنوية بقوانين الطبيعة. أما الآن فيشير أقل رسم في كل لحظة:
الوجه المحموم للمريض بالملاريا يسبب له ألماً شبه جسدي. يلعن ويكتفى
بأن يقول له بنبرة بين لامبالية وأبوية:

— تشجع يا أخى، إنها الخدمة العسكرية!

ثم يذهب متعجباً من أن تلك الزوبعة لم تباغته وهو في قلبها. فمن

المعروف أن أية ضربة طائشة تكون من نصيبه . ففي إسبانيا، حين كان يعمل حدّاداً، كان صاحب العمل يقول له مرتين أو ثلاثاً يومياً:
- ماذا هنالك يا ولد، أنت ممغنط؟

لا تسقط "كماشة" إلا حين يكون تحتها . وتطير شظية لتستقر في وجهه . فيغضب صاحب العمل، ابن صاحب العمل، ويقذفه بالمطرقة في ساقه . وحين كان صاحب العمل يطلق عبارته المقدسة "أمسكوا من هنا" كي يخف إليه الجميع ويحملوا عنه الدعامة الفولاذية، كان هو آخر من يدركه، غير أنه يصل دائماً في اللحظة المواتية ليتلقى لكزة من أحدهم . وعلى سبيل المزاح، راحوا يلقبونه بالمغنطيس . فلم تكن هنالك قطعة من الفولاذ في الورشة لم تصطدم بعظامه . لذا، ربما كان نصيبه نصف دسنة من ضربات هراوة الرقيب لو وجد هناك، وهو في الحقيقة آسف لعدم تلقى الضربات بدلاً من الجندي المصاب بالمalaria . في أعماق نفسه، كان يشعر بنحو من الرضى . لكن... من يدري؟، ربما وقع تحت سوط الرائد أنسواجوا من حياته الفتية، العفوية، ومن النقاء والاندفاع الفطري القديم، لم يتبق له سوى الخوف من العصا .

يصل إلى الحانة محدثاً رنيناً برياليه . في لحظة دخوله يصطدم بجماعة تخرج متعثرة . ينتحي جانباً وخلفه الدورية :
- هيا، يا رفاق، فالعقيد لا يريد أن يرى واحداً منكم !
سوف تنطلق نوبة الصبحيان مع وشاكة الفجر . وبيانثي، الذي يرتدى أحزمته، يختلط بالدورية ويدخل :
- هيا، هيا، أيها الكسول !
يغمز بيانثي بعينه :

— فى حياتى الثالثة يا ولد !

الحانة الخاوية تتشع بعري بائس لخيمة فى سوق : كرسى مقلوب ،
قنديل يحتضر ، ظلال تترصد فى الأركان . يدندن الأعرج من بين أسنانه
بأغنية غير متناغمة تتردد فيها دائماً كلمتا "مديّة" و "يامس" . بعد ذلك ،
يبصق ويضع كوبين إلى أسفل ويقول :

— ما أحقر الحياة !

يعود ركضاً إلى مقر الحراسة . ترجّ خزینتا الطلقات اللتان يحملها
فيتذكر بيانثي ذلك الرجل الأندلسي الذى يرقص الرومبا مستخدماً مثل
هاتين الخزینتين كأنهما نهذان . ظلال بالقرب من خط المتاريس المتعرج ،
وكشاف جيب يصب رقعة واهية من الضوء على الأرض . ضحكات
مكبوتة . من أحد الأركان يصدر صوت مكتوم :

— تمام يا افندم !

طلق نارى على بعد خمسين متراً إلى اليسار . تتواصل الضحكات .
انطفأ الضوء . وبيانثي ، دون أن يكف عن الركض ، يحاكي صوت العيار
النارى البعيد : "إینتاااا کوووا" . وحين يصل عنبر الحراسة يرى الرقيب
إريارتى مائلاً أمام الضابط :

— أية نوبة تقوم بها ؟

— الثانية .

— الجندى الذى أمرت بإنهاء نوبة حراسته عليه أن يسير طوال الليل مع
الدورية . سيسلمه رقيب النوبة الأولى وأنت إلى النوبة التالية .

— من هو ؟

— يدعى بيانثي ، جندى أحرق

يفر بيانثي . يقول دون أن يتمالك نفسه من الضحك :

— نعم ، أحرق ، لكننى باقى فى منزلى .

ثم يدخل الحفرة التي هي مقر الحرس، إلى جانب المتاريس. بعد ذلك بقليل أصل أنا. ألا يوجد أى عريف هنا؟

— الدورية الأخرى هناك، فى قطاع المهندسين.
فى الليل، الحالك الآن، لا أحد يتعرف الوجوه. ونغمة النفير الحادة، التى تعلن بداية نوبة الصمت، طويلة وجارحة. يشير بذقنه:
— هناك، يقول إنه رأى ضوءاً ناحية نبع "مدوة". أطلق النار ولم يعاود رؤية شئ.

أمر على المواقع. يبدو قصف المدفعية بالغ الاختلاف. دفقات ترج الهواء وتكثفه.

— وبيانثي؟

— تمام، أيها الرقيب!

— كما تعلم، لا تفارق الدورية.

— بلى، يا سيدى.

ثم السؤال المعتاد عندما يكون النظام عسير الهضم:

— ماذا فعلت؟

يفسر العريف الأمر. ولما كان الجميع يعرف بيانثي، لا أحد يتعجب لذلك الانتقام الذى ليس له معنى.

— وبندقيتك؟

— بما أننى خارج الخدمة، ولست سوى مسجون...

حسن. هكذا يتخلص من حمل عدة كيلوجرامات. يهز العريف رأسه فى حسرة فيما يلصق ورقة دخان فى نشكاه البندقية ليتمكن من رؤيته فى الظلام. يقول جندى:

— من الأفضل طلاؤه بمادة متفجرة!

نسير فى الاتجاه العاكس. المعسكر هاجع. يرقد خمسة آلاف رجل

أسلموا أنفسهم إلى تعب يوم مقبل. تترك غالبيتهم الخيام -التي يتكاثف فيها خليط من الروائح الخبيثة- وترقد فيما حولها، في الهواء الطلق. هنالك مخبأ تتشعب عنده المتاريس في متاهات. وعلى مقربة من جندي الحراسة، الذى يلوح فى العمق، يرقد أربعة آخرون متراصين تماماً على الأرض ورؤوسهم فوق أول صف من الأكياس الرملية وحوامل بنادقهم تلتف حول أذرعهم والأربطة وخزائن الطلقات فوق صدورهم. تنفحهم أفواههم الفاغرة ولحاهم المهمة وألق العرق صرامة باردة كأنهم جثث.

- ماذا هنالك؟

- تمام يا أفندم!

والأربعة النيام، من أعماق اللاوعى، يجيبون أيضاً. وتنتقل عدوى آلية الأقدام والنظام إلى الروح: "تمام يا أفندم"، "...مام يا... ندم"، "...م يا... ندم"، "مياثم".

نسير فى الظلام، نرفع أقدامنا عالياً، ونتعثر مرةً فى الحفر، فى ثقة وسرعة هزليتين. هنا، خيام الخدمة الطبية الإضافية. يغطى الجنود رؤوسهم بالبطاطين اتقاء للطل، ويصطفون فى صمت رقادهم. ومن هذا الذى يقترب؟ آه، إنه القس ومعه جندي حراسة. يتحدث مع شخص فيجيبيه:

- كل هؤلاء، حتى الخيمة الثانية.

أقترب منهما. يوقدان جزءاً من شمعة يقربه الجندي من كتاب الصلوات. طقوس الموتى. هؤلاء موتى إذن. يخرج حارس من الظلال القريبة ويعطينى التمام. يحرس الموتى. يردف:

- ثلاثة من الفرقة الأجنبية يحومون حولهم.

- إن لم يغالبك النعاس فلا بأس.

يجثو القس على إحدى ركبتيه ويقرأ عباراته اللاتينية ويمسح على
الأول. لكن الجثة المذكورة تسحب قدمها، وتفركها في فخذاها وتنهض.
يصرخ الجندي الذي يحمل الشمعة وعينه خارج محجريهما:
- آه، اللعنة!

يبتعد الجندي، الذي لم يزل نائماً، وهو يجرب البطانية على الأرض
مغمماً دون أن يعي شيئاً مما يحدث:
- أئن تدعوني أنام؟

يمر بجوار الحارس الذي يوضح:
- يبدو ثملاً تماماً، لقد شممت رائحة نفسه.
ثملاً أم لا، يبدو أنه رقد إلى جوار الموتى ظاناً أنها الكتيبة. تُستأنف
الطقوس الدينية الآن بلا مفاجآت. وكلما توقف رجل الدين، ينظر إليه
الجندي مرتاباً ثم يقول "آمين" بسمت بالغ الصرامة. ويبدو أنه
يفكر: "قضى كل هؤلاء نحبهم كي آتى أنا وأساعد رجل الدين". والجثث
جميعها تقريباً لضباط. ستطالب أسرهم بها، وحتى إن لم تفعل، لا بد من
دفنهم في مقبرة المدينة بغصن الغار منقوشاً على شاهد القبر. بغض النظر
عن فظاعة القتل، وعن هالة البطولة المعتادة، ما أظهر وأجمل الموت شاباً
وفتياً، بلا احتضارات قدرة، بلا خورس من العجائز النائحات. ونحن
بدورنا، الذين لسنا ضباطاً، من حسن طالعنا أنهم يدفنوننا عادة في العراء،
على حدود المعسكرات، في تلك المقابر الجماعية المحددة بمستطيل من
الحجارة والتي يكون زخرفها الوحيد طلقتان قديمتان من عيارات المدفعية
يبلغ ارتفاعهما نصف المتر، طلقتان فارغتان غالباً ما تحفظان أسفلهما قليلاً
من ماء المطر، قليل جداً، لكنه يكفي لكي ينعكس عليه ومض نجم.

رجوعاً من القطاع الشمال الغربي، إلى جانب مطابخ الضباط، ثمة ملجأ به أعشاش المدافع الرشاشة يطل على المنحدر الذى يهبط حتى الطريق. فى هذا المكان، اعتاد حامل أوامر القيادة التجول، محتال كبير من محبى السهر. على سطح الملجأ، المشيد من الألواح الخشبية والخيش، يرتفع قائم خشبى، وفى نهايته طائرة خشبية بديعة تدور مروحتها مع الريح.

— طابت نوبتك أيها الرقيب. وإن كنت لا أعتقد ذلك، لأن الطابور سيخرج فى الثالثة، كما سمعت. إذا لم تنظموا "القول" فلن يستطيع ذلك أحد. فنحن هنا نرى أن قيادة الخامسة والثلاثين كانت سيئة فأبادوها.

إنه بالفعل حامل أوامر القائد. خمسون عاماً من العمر وثلاثون فى الخدمة. وهو فى حكم ضابط صف وفقاً لما يردده كلما سنحت الفرصة. حين يعلم أننى أقوم بنوبة حراسة يخرج للقائى قرب الخيمة، حيث نسير الآن. يمسد شاربته فى عصبية. يتشمم رائحة النبيذ. وبعد دخول الخيمة، ينعم النظر إلى إريارتي الذى يرقد على جوال من القش.

— إذا أصيب غداً بعبارة أخرى، فلا فائدة ترجى منه!

أصيب إريارتي بطلقة فى رأسه. دخلت من صدغ وخرجت من آخر. اعتبروه فى عداد الموتى لأنه كان فاقد الوعي ثم لأنهم عاينوا مسار الطلقة الواضح. لكن الطلقة اخترقت الكتلة الدماغية وغيّرت مسارها فى الداخل لتلامس سقف الجمجمة وتخرج من الجانب الآخر. لكنه لم يتلق علاجاً مناسباً. وتحت الجلد تُرى دائرتا الجرح اللينتان، فإذا ضغطت إحداهما برفق يبرز جلد الأخرى. والآن، يعاني الرقيب صعوبة فى اتساق حركاته، فمن العسير عليه، مثلاً، أن يلتقط أى شئ، إذ لا تتجه يده قط إلى حيث ترسلها رغبته وعليه أن يصحح الحركة مرتين أو ثلاثاً. فى نومه يصرخ ويتنفس فى حشجة مخيفة ويتكلم، يتكلم بلا توقف ثم لا يتذكر شيئاً. يمسح العريف على شاربته بشدة حين يرانى أنحنى فوق

حفرة فى الأرض وأخرج زجاجة جعة .
- من قبل ، شربت نبيذاً ، ثم عرقاً ، والآن جعة . قد تقوم الساعة ، لكن
لا يهم ، ففى الليل لا يهمنى أن أفقد رباطة جاشي .
فى الخيمة أربعة أسرة ، لثلاثة رقباء وضابط صف . أكثرها راحة سريرى :
فراش من قماش الخيام به بقع دم سوداء . ورغم ضيقه - إذ لا أستطيع التقلب
على جانب - هو أفضلها لأنه لا يجتذب القمل أو البراغيث ويوسعى أن
أرقد بنصف جسدى الأعلى عارياً . تركض الجرذان فوق السياج وتصدر
صريراً معدنياً خفيفاً . أما فى الليل فتتسبد الخيام . من لديه شئ يؤكل يعلقه
فى حبل رأسى ، فى الهواء . أثناء النهار ، تمر ركضاً بين أقدامنا ، وأثناء
الوجبات تجلس على مقربة منا فى انتظار الفضلات . إذا أومأنا بأننا نلقى
إليها شيئاً ، تومئ هى بدورها كأنها تفر ، بيد أنها لا تتحرك . وغدوت أنا
أكن لها بعض الود ، وثمة جنود يستأنسونها فى حب . وحين أقول إننى
"أحبها" يفهم العريف ذلك على طريقته ويأتى بإيماءة ترفع :
- أنا فى الحقيقة لم أكلها قط ، على الرغم من أننى أعتقد أن صفارها
لذيذة الطعم ، والفرقة كانت تعد من قبل بعض الشواء منها .

يرتعد إربارتنى فى فراشه :
- آه ، لكن ... ليس من العـدل لان ... لان ... آه !
ودائماً ... الانسحاب ، بالطبع !

مع آخر كلمة يبدو كأنه يختنق . يشعر العريف بالقلق . يريد إيقاظه
لكئنى أمنعه : "عليه أن يقوم بنوبة الحراسة الثانية ، ويعلم الله متى سيعاود
النوم" . مصباح بترول صغير يعكس ضوءه الواهى . وتتكاثر العتامة فوق
مخروط الخيمة وتحده نحو الداخل . طلقات بعيدة ، قريبة . أطلقت النيران
على أربع دفعات متتالية ، وبحساب الوقفات ، لا بد أن جندى الحراسة هو
الذى أطلقها .

قضاء الحاجة يكون هنا، خارج التحصينات، ومنبطحاً. حين يلج العريف العراء يتقهقر بحذر ويحيد عن طريقه نحو الداخل معتذراً. حين تعتاد العين الظلمة يتراءى سور السلك بأوتاده المائلة. ألف عين مجهولة تنظر من أحشاء الظلمة الشديدة الكثافة في الجرف، بين الرتم والزعتر. أصل إلى جانب الجندي. الجرف مشحون بالخطر. "أأنت أطلقت النار؟".

من المقدمة ينطلق صاروخ. وهذا القمر الزائف، الذي يكاد يعيش البصر، ينسكت بنات آوى ويغطي بكفنه الطبيعة الميتة. ينبطح على الأرض. على بعد خطوتين يضيئ بجلبابه البنى ومفرجاً رجليه—جسد مغربي. سيفه القصير الذي كان يحمله بين أسنانه شق خده لدى سقوطه ليكشف عن صف مزدوج من الضروس في ضحكة مشؤومة. لو أن الرعب تخيل غرضاً يثير الذعر لما وجد ما هو أنكى من ذلك. "منذ نصف الساعة وهو هناك عند السلك، يقذفني بالحجارة ليتيقن من أنني نائم. وكلما أطلقت المقدمة أعيرة ضوئية اصطنعت النوم، فاطمان وراح يقترب زاحفاً. ولما كنت لا أرى شيئاً، انتظرت حتى ينهض كي أصوب نحوه ولا أخطئه، وحين نهض أفرغت الشحنة. كان آتياً نحوي. الشحنة الثانية أخطأته، لو كنت أخطأت الشحنة الأولى..." مازال الصاروخ في السماء ونحن منبطحون. "هل مات؟". يمكننا أن ننتشله لكي يعالجوه. ينظر الجندي ذاهلاً: "لكي يعالجوه، ما كان عليّ أن أتجشم عناء قتله إذن! فضلاً عن أنه ميت تماماً. دخلت الطلقة الأولى رأسه، لقد باغته منبطحاً". وحين يتلاشى الضوء يتقدم في ثبات نحو الظلمة ويجر الجثة حتى السور—حوالي عشرين متراً—ويشدها إلى وتد بحزامه. ويعود ركضاً. "ما أثقل وزن الميت، ترتخي كل أطرافه..." ثم يردف: "لقد تركته هناك كشرك. سيأتون من أجله".

الاقتراب من هذه الناحية من السلك ضرب من الجنون . ما انفك الجندي يفكر بصوت مسموع: "لكن إذا تمكنوا من انتشاره سافقد الحزام وسأحاكم بسببه". يتردد هنيهة ويعود إلى السلك منحنيًا، في وثبات طويلة، ويحل الجثة ويعود ومعه حزام قديم انتهى عمره الافتراضي ولا يساوي ثلاثين سنتيمًا. شد ما أثارت حيرتي مثل هذه البطولة غير المنطقية. أقول له: "ما أشجعك" فيرنو الجندي إلى متعجبًا. يهز منكبيه ويجيبني: "أى شخص فى مكانى سيفعل ذلك".

أى شخص سيفعل ذلك. محتمل. "فى مكانى"، البحر أمامكم والعدو خلفكم، من سيسمح للخوف بأن يقضى عليه أو للمغاربة بأن يغرسوا سيفاً بين ضلوعه؟ يردف الجندي: "لا شجعان هنا". بالفعل، فالشجعان الحقيقيون ربما وجب عليهم أولاً ألا يجيئوا إلى هنا. فجميعهم جاء بذلك الجبن غير المفسر الذى يشير إليه الجندي والذى ينبغى أن نتناساه هو وأنا. أنصحه بالحرص وأذهب لآخذ "التمام" من كل حكمدار خدمة وأعطيه للضباط.

يعود القس ومساعدته. يحمل الأخير زيت الطقوس مائلاً. المسحة الأخيرة. استدعاء الطقس المسيحي المقبض يضاف على الخطر امتداداً قدرياً وخرافياً. يتحدثان، ولصوتيهما، فى الليل، أصداء مدنية. حديثهما غريب على المكان:

— وهؤلاء...؟

— الحق أن أرواحهم نالت الخلاص.

— حسن، لكن المؤكد أنهم قتلوا بعض المغاربة، هذا ما أقوله.

— لا يهم. فعلوا ذلك دفاعاً عن الوطن.

— هذه الأرض... أهى وطننا أم وطنهم ؟
— هى بالفعل وطنهم، لكن أى مكان ينبض فيه قلب مسيحي هو وطن
الله وعلينا أن نحميه من الكفار.

بعد وقفة، يضيف الجندي:
— آه، وهذه الحرب، هل دعا إليها البابا ؟
— كلا، بل الملك.
— ومن يطع الملك يدخل الجنة ؟
— أجل، لأن للملك سلطة إلهية.
— كيف ؟
— لأنه يمثل سلطة الله في وطننا.
— حسن، لقد تخيلت الله دائماً ملكاً.
— بالضبط.
— لكن لدي سؤال.
— إلي به.
— تقول إنه إذا أصيب شخص بطلقة في الاشتباك وتلفظ بعبارة بذيعة
ومات يدخل الجنة ؟
— أجل.
— لأنني سمعت كثيرين يجدفون وهم يسقطون.
— رغم كونها عادة سقيمة، لا يهم فالرب لا يلتفت إليها.
— وخلال المعركة، فرضاً، إذا تحدثت ضد الملك كما يتحدثون هم ضد
الرب ثم يضبطونني، هل يعدمونني ؟
— يقيناً.
— وأدخل الجنة ؟

– مطلقاً، إلا إذا ثبت توبة خالصة .
– إذن، لا أفهم، فطبقاً لذلك، ارتكاب الإثم ضد الملك أكبر من ارتكابه ضد الرب .
يصمت القس برهة، متردداً. بلغا خيمته. يربت على ظهر الجندي ويدعوه إلى كأس. يشكره الجندي لكنه يرفض. عليه أن يسرع ليتخذ موقعه، فائتاء الليل يجرى تغيير الحرس بدقة شديدة، ولنفس السبب تكون نوبات الخدمة على جانب كبير من الخطورة. يقول الجندي وهو يبتعد :
– أى حرج أوقعت فيه ذلك الأحمق !

السكون وظلمة الخارج يوقظان أنواراً وأصواتاً داخلية. وتترى الاستدعاءات في موكب متآلق. للذكرى لغة مغايرة. بين الحديث في المضارع والحديث في الماضي يكمن الفارق بين الواقع المفروض وواقع تلاشي بالفعل وأعيد خلقه في الشعور وليس في الخيال. والحياة في المعسكر ليلاً لها نبرة أشد حميمية.

أحلام في اليقظة أو في المنام. في الخندق، والبندقية فوق أكياس الرمل أو بين ركبتيك، تحلم أيضاً. تتذكر وتحلل كلمات الخطاب الأخير الذي يصدر حفيفاً تحت الحزام، في جيب السترة: وأحياناً، نجد للكلمات معنى غير منتظر. لكن الاستدعاءات تشتد في موقع (حظيرة خنازير) الحراسة الرئيسي، في حفرة إلى جانب المتاريس. في الخارج، السماء والليل الوادع والعتامة اللانهائية تشدنا إلى الواقع. نستشعر الحرية ونجتهد التركيز خشية الضياع، التلاشي. ومع ذلك، يشوب موقع الحراسة نحو من الشعور بالحبس وكل شيء يدفعنا نحو القرار إلى الذكرى بعد أن سدت الأمل مخاطر الغد. معلبة -القنديل المعروف- تشع على استحياء ضوءها الأحمر القلق. وتتآلق الوجوه تحت قناع من الغبار والعرق. في العراء يرقد عشرون أو ثلاثون جندياً: من استيقظ لتوه ليدخل الموقع، ومن يعود منه مشدوداً إلى أربطة العباءة المتربة. يتحدث شاب صاحب ملابس نظارة وينحني لعلا تصطدم هامته بالسقف:

- أقول لك إن أكل قار أو التهام زوج من الذباب لا يضر بالصحة. ففي

كل يوم، لدى تناول القهوة، تأتى ذبابتان أو ثلاث وتحوم حول الطبق فى وقاحة. إذا لم تذهب بعد ثالث مرة أهش عليها، أقابلها من الجهة الأخرى وبغثة "بلاف"، بالملعقة. أغرقها فى الطبق، فى القهوة، ولتذهب إلى الجحيم. مسألة كيمياء. لا يختلف ما باي حشرة عما فى أنسجتنا وعظامنا.

إنه الصيدلي الذي يجد لكل شئ تفسيراً علمياً. "بتطهير الأربطة من الحشرات"، بإمكانك الاستلقاء على الأرض والنوم. ينهض حكمدار الخدمة ويربط حزامه:

— أيها الأولاد! ستة عشر وسبعة عشر وثمانية عشر وتسعة عشر وواحد وعشرون.

من بين من ينهضون، يفتش أطولهم قامة فى جرابه الجانبى وينظر إلى السقف وهو يعض نواجذه، يهمس:

— تثق فيهم ثم... لا هي زمالة ولا هي شيء! لا يهتم أحد إلا بأمر نفسه.

— أنشط! كان يجب أن تكون واقفاً الآن! ماذا تقول؟

ينهضون فى تكاسل. ويكظم الجندي احتجاجه بتراخيه الهامس المتمهل. سعال، ثناؤب صاخب.

— واحد وعشرون! ما أسوأ أن يكون رقمك واحداً وعشرين دائماً! لا اصطفااف ولا أوامر. يخرج العريف وفى إثره خمستهم. يلكز الصيدلي — شبه النائم — زميله بحزامه:

— اسمع، اشتريت من بيانثي النوبة الأخيرة بريالين، والآن يتضح أنه ليس فى خدمة حراسة المتاريس.

— اشتريت منه ماذا؟ — يهمهم الآخر بلا فهم.

يحك الصيدلي صدره فى غضب وتتقلص عضلات وجهه ويدور

نصف دورة جهة الحائط :

- بديهي !

ثم يعاود الرقاد . " واحدة ماذا ؟ " . لا أحد يدرى . يرفع أحدهم إصبعه إلى صدغه ، يحتج آخر معروف بغرابة أطواره :

- ليس لأحد أن يقول عن أحد إنه مجنون ، لأننا جميعاً مجانين . وإلا ، يجب أن ترونا على حقيقتنا في بلادنا : فهناك ، يكون المرء على طبيعته . أبامكانك أنت أن تنبش في بلدك جثة على هذا النحو ؟ لا أنت ولا غيرك ! لأن ذلك أقدم الأشياء . لكنهم هنا ، نبشوا جثة مغربي مسكين للمرة الرابعة ، وإذا قمت بمهمة الاستكشاف هذا الفجر ستجده على حافة الطريق ممزقاً . من نبش جثته ؟ سيقولون لك إنها بنات آوى . وأنا أقول لك : اللعنة ! ولا أود أن اتحدث أكثر من ذلك ، أفضل .

كل الجنود تقريباً شاهدوه بالفعل ، ويفرقون في الضحك .

- ما لا يعرفه هذا الأبله أن قوافل الشاحنات تمر فوقه لأنهم ألقوه على الطريق ولا مفر من ذلك حتى لا يضيعوا الوقت .

يستلقي المفسر ويروح في النوم . ثم أصل أنا الكشك المجاور - كشك الرقباء - وأتهالك فوق صندوق ذخيرة . المكان معتم . صرير معدني على الأرض ، تلامس ناعم وهارب في نعال القنب . ليس لدي ضوء . أخرج وأذهب إلى خيمتي .

كنت جندياً في نفس سرية بيانثي ، ثم رقيت فراح يعاملني بنحو من الريبة ، على الرغم من أنني قلت له ألا يحدثني بصيغة الاحترام ، مثلما كان يفعل من قبل . فاعتبار "الأشرطة" يحول دون ثقته بي ويعوقها . في الخيمة ، أتينا على زجاجة . في رأى بيانثي ، الحبس بأمر الرائد يساوى أربعين أو

خمسين كيلومتراً، السير حوّل المعسكر طوال الليل، تصعد وتهبط، تتعثر وتسقط في الظلام، تبدد آخر قواك فوق ذلك النعاس الوحشي والثقيل والشديد الوطأة على النفس كأنه مرض. في الخيمة قد يستريح شيئاً. وأنا وددت لو قص على بعضاً مما عنده. وددت لو سبرت سر تجرده البارد والواهي من شخصيته في الوقت الحالي والذي يظهره بمظهر المتناهي عن نفسه. لكنه يستهل حديثاً متلعثماً، تائهاً، ويحاول اتخاذ سمت حاد لا مبرر له. بيد أن ابتسامة خامدة تكذبه. ما أريده أيضاً هو أن يحدثني عن ملابسات حياته العسكرية، لكنه يصبر على تذكر سنوات عمله في ورشة الحدادة. ويريني ست ندوب على الأقل في زهو صامت. طلاقات؟ كلا: آثار عمله الشاق في الورشة. اثنتان أصابه بهما صاحب العمل، لكن بيانتي يذكره بلا حقد، كمن يذكر من علم المرء العمل وكسب لقمة العيش.

— عامل آخر في ورشة الحداد، فرانتشو، وأنا كنا أشهر الحدادين في كل الناحية. كنا نفتح الورشة مع طلوع النهار ونخرج السندان الصغير إلى الباب. وما أجمل شدو الكيرا أشاهدت مرة كيف تقوم دوامة على الأرض؟ هكذا تكون بؤرة النار وسط الفحم. كنت أعمل لقاء الأكل واثنى عشرة بزيئة في الشهر.

أعيتني الحيلة لتجنب حديث بيانتي عن تلك الفترة. أنصت إليه وأنا أفكر في أنه يجد في ذلك متعة فريدة. ثمة إطلاق نار في الخارج. وبيانتي يلتفت برأسه:

— هؤلاء الجنود أجبن من قطيع ديك رومية. ثم يعود إلى ذكرياته، بقفزة أخرى إلى الوراء. ذكريات قرية مجذبة تحيا على الزراعة. والده ظل أربعين عاماً يحسث أرض الدوق دون أن يرى محصولاً جيداً. وكل خمس سنوات أو ست كان يحصد ما يكاد يكفي لتحمل غضب مدير الإقطاعية الذي لا يلتفت إلى مبررات.

- كنت فى الثانية عشرة من عمري وأسير خلف المحراث من طلوع الشمس إلى غروبها. كان على أن أضع نير المحراث فوق كتفى وأحياناً كنت أتعث وأسقط ويغطيني طمي الخط. كانوا يدفعون إلى بنصف رغيف ورأس ثوم مقابل العمل طوال النهار، وكانت أمي تقول إن ذلك لا يكفى. فى الثلاثين من عمرهما بدا أبواي فى الخمسين، متيبسين وهزيلين. كانت أمي تبكى دائماً، وأبى، مدعوراً، كان يقربنا إليه ويقول: "لا تبكوها، فقد يكف بصرها من كثرة البكاء". قد لا تصدق هذا، بيد أني لم أر والدى يضحك قط.

- والأخوة؟ كم أخاً أنتم؟

- فى ذلك الوقت كنا ثلاثة. أخ يصغرنى وأخت، لو عاشت لبلغت الآن عشرين عاماً. وهو ستة عشر: لكنه أصيب بمرض فى طفولته وأضحى معتوهاً بعض الشيء. من حيث العمل يعمل. لكنه، أعنى أنه عندما يحاول تفسير أمر تفر منه الفكرة...

لا يريد الاعتراف بأن أخاه أهله، لأن الكلمة تناقض حنان ذكرياته.

- فى الرابعة عشرة من عمري قلت لأبى: "لماذا لا نذهب إلى "ببشتر"، فهى مدينة بها قطار وأسقف؟ هناك ستعمل أقل وأنا على يقين من أنك قبل ستة أشهر ستتمكن من شراء بذلة جديدة". ففى صغرى، كان يتملكني هذا القلق نحو أبى. فهو إذ لم يبتع سروالاً بئساً فى ثلاثين عاماً، كان مظهره بالغ السوء: رقع من فرو الماعز ومن القنب وحتى من قماش الجوارات. لكنه كان يقول دائماً: "الظاهر أن الأرض ارتوت هذا العام وينمو القمح جيداً". فى أحد الأيام، رحلت إلى ببشتر. كنت أستشعر ثقة أمي، ورغم أنها لا تقول شيئاً، كانت تلك الثقة ترضيني وتشجعني.

« فى منديل، وضعت لى رغيفاً لدناً كانت اقترضته وقميصاً نظيفاً وستة ريالات يعلم الله من أين جاءت. أردت أيضاً سكين رحلات لكن أمي لم

تعطنى إياها. قالت: "مادمت فقيراً لا تحمل سلاحاً أبداً. فذلك لا يفيد إلا الأثرياء". فى الطريق، نحو المساء، التقيت أبى وكان لونه معتماً من القر، وعلى ظهره حزمة من الحطب المبتل. كان الطل يغطيه ويقطر من مرفقيه. فى أيام الشتاء تلك، كان يذهب إلى الجبل ويعود بقليل من الرتم والجوالق كى نتمكن من إشعال النار ليلاً لندفاً ونسخن بعض الحساء. فى وعود نار وخبز، كان أبى يتحدث ويبدو آخر. وكان دائم القول: لو سار الحول على مايرام سندفع المتأخر علينا ونشترى عدة أشياء وخنزيراً صغيراً. وكانت أختى تريد دجاجاً أيضاً، وكانت أمى تنصت إلى الجميع ولا تقول شيئاً، وأبى يقرب يديه إلى النار ثم يأخذ أيدينا ويضغطها بين يديه إلى أن نروح فى الكرى. حين التقيت أبى فى الطريق قال لى: "فى رعاية الله. كن رجلاً شريفاً ولا تنسنا".

« فى ببشتر، حالفنى الحظ. قبل أسبوع عملت صبيّاً فى ورشة حدادة، بلا أجر، لقاء الوجبة فقط. بعد عام كنت ألقى خمس عشرة بزيتة فى الشهر أرسلها إلى أبى. فى النهاية كنت أكسب ستين بزيتة أرسل منها خمسين. وبعشر بزينات فى الشهر ما كان بوسعى أن أذهب إلى المقهى أو أتعرف إلى فتاة. ولما كنت "معلماً"، كان ملبسى يناسب درجتى، كما تعلم، وكان ثمن السروال ثمانى بزينات وثمان نعال من القنب بزيّتين. ثم حل عامان لم نحصد فيهما حتى البذور، حينئذ كنت أرسل إليهم الستين بزيتة. اشتد عودى. كنت أقذف قضيب الحديد إلى مسافة ستين خطوة من مكاني. لم تعوزني الصحة. لكن الحال لم تكن كذلك فى المنزل. وفى أحد الأيام، كتبوا لى أن أمى مريضة. أخذت القطار حتى "بييران". وهناك بحثت عن عربة ذاهبة إلى القرية أو عن أحد يقرضنى بغلة. كان الجليد يصل حتى الخصر فى كل الناحية ولا تخرج أية عربة، كما أن أحداً لم يشأ أن يقرضنى بغلته واضطرت إلى السير على قدمي. ست ساعات حتى

قريتي، كان كل الجيران في المنزل ومضت خمسة أيام أو ستة دون أن توقد نار فيه. كان أبي جالساً في المطبخ وعيناه ناشبتان في نعليه، مازالت أراه. كانت أمي قد قضت نحبها. وقال الطبيب إنها استبقت الموت بشرب الماء البارد والنهوض عارية: وأبي، الذي كان يعرفها جيداً، كان يصدقه... فقد قال لي فيما بعد: "كانت تدرك أن لا علاج لها ولم تشأ أن نبذل في الأدوية البزيتات القليلة التي ادخرتها بحرمان كبير لكي تشتري لأختك ملابس تسترها". كانت الفتاة في الخامسة أو السادسة عشرة من العمر. خلاصة القول إن أبي...

شخص ما يزيع قماش الخيمة.

— أنت وحدك؟

— تقدم، تقدم!

— سامكت لحظة واحدة. كنت أبحث عنك ولم أشأ المجئ إلى هنا في حضور الرقباء الآخرين. سنخرج غداً. أنبدأ النوبة؟

— ليس لدى عرق.

— أعطني ست بزيتات وسأحضره أنا.

إنه جندي من مقاطعتي، من قرية زرتها في العديد من المرات. أقرب إلى ببشتر من قريتي. يعرف بيانثي ولكنه لا يقول له شيئاً. يدعوني إلى خارج الخيمة:

— أتعلم؟ هذا المدعو بيانثي أمسى مترصداً وليس من مصلحتك أن ترافقه، خاصة وقد أصبحت رقيباً.

ثم بعد وقفة، يردف: "كان من أقوى شباب الناحية، لكنه الآن لن يعرفه أبوه الذي أنجبه". يخرج ركضاً. من جهة المتاريس يسمع تنفس

متعب، حشرجة، ويتحدث شخص كأنما يحلم. أصبح السمع. أسمع يا بيانثي؟

— منذ برهة. إنه مريض بحمى الثلث.

نخرج. مازال الجندي المريض بالمalaria مستنداً إلى السياج، مطوياً إلى الأمام، وقد انحسرت عنه البطانية والعباءة. عيناه هائمتان بأحد أركان المتاريس الضارب إلى البياض، وتعكسان حجارة متراسة وأكياساً رملية مبقورة؛ ووراءها، الليل البعيد. على غير وعى منه وطأ طبقه النحاسي فانسكب ما كان به من لبن عند قدميه. يرتعد نصفه الأعلى في وهن مع كل خفقة. ليست هنالك وسيلة تجعله يدخل الخيمة. زادته الحمى رعباً، إحساسه الوحيد إزاء ما يحيط به. كيف لا يرحلونه؟ يستعيد بيانثي ضحكته البعيدة:

— المستشفيات مكتظة بالمصابين، لا يوجد مكان شاغر. والأسرة حجزت لأبناء الذوات. ابن دوق قرينى يعيش في مستشفى "دوكر" كامير، يحلق ذقنه كل يوم ويتعطر بماء الكولونيا. الخنثا

نمدد المريض على الأرض ونطوي بطانية تحت رأسه ونبسط أخرى فوق جسده. بيانثي يتفحصهما ويقول:

— ستأتى عليه البراغيث ما إن تلفحهما الشمس.

يهذي المريض وتصطك أسنانه. وكلما أردت أن أكلمه قاطعنى، باذلاً مجهوداً عظيماً فى محاولة النهوض:

— تمام يا افندم!

يردد ذلك مرتين أو ثلاثاً على نحو مضطرب، ويبذل كل قواه فى الحرف الأخير. لا بد أنه تجمد من البرد. يرتعد، لكن يديه محمومتان. ليس فى وسعنا أن نفعل شيئاً. نعود إلى الخيمة فى صمت. يهز بيانثي رأسه ويتحسر فى نفسه.

— إنه لهالك . حين تتورم أفواههم على هذا النحو وتتقرح أجسادهم لا نفع يرجى منهم . من الأفضل ألا يشربوا ماء .

بعد وفاة والدته ، بقي ثلاثتهم ، الأب والفتاة والأخ الأبله . كان في وسع الأخير أن يعمل مع أبيه وتنهض الفتاة بشؤون المنزل ، مهمة سهلة في غياب ما يمكن عمله . تقبل الأب موت زوجته بقدرية غير مبالية ، لكن بيانثي لم يستطع لفترة طويلة أن ينسى ظل جسدها الذي يعكسه على حائط الطوب اللبن ضوء القنديل المهتز . ولم تمر ثلاثة شهور على عودته إلى ببشتر حتى مرضت أخته .

— كما ترى ياسيدى ، كانت بهجة أبى الوحيدة . هل تصدق أنها ماتت هي أيضاً؟ فى ذلك اليوم جن جنونى أبى . كان يؤدى واجباته نحو الكنيسة دائماً . ما زلت أراه يذرع الحظيرة ، شديد الصفرة ، والسيد القس يعزيه : "إن الرب ليختبر إيماننا بالف طريقة؛ الصبرا" . فيصرخ أبى : "الرب ، أهذا من صنع الرب؟ أين الرب يا سيدى القس ، أين الرب...".

حينئذ غدت وحدة الأب ، فى بؤسه ، أشد وطأة ومأسوية . وراح بيانثي ، وهو يرى الأبله يستأنف بلا اكتراث حياة الحرث ويقارنه بأبيه الذى لا يزال ذا هلاً ، يسائل نفسه ألا تكمن السعادة الحقيقية فى الغياب التام للحس ، إلغاء الذهن؟ راحت مدخرات الأم فى علاجها ومصاريف جنازتها . لم يرد الأب أن يسمع شيئاً عن رحيل بيانثي عن القرية . وأضحى أفضل ما فى حياته "حبه" للمقابر . فيما عدا ذلك ، لم يكن ظل الابن الذى ذهب الالتهاب السحائى بعقله ولم يكن ظله هو سوى أضغاث أحلام مبهمه . وحيث رآه مدير الإقطاعية مهزوماً على ذلك النحو أراد أن ينتزع منه الأرض لكن بيانثي حادته ، سيرسل إليه الإيجار من ببشتر .

عاد إلى ورشة الحدادة . وصاحب العمل ، مشفقاً عليه تارةً وساخطاً أخرى ، كان يدعوه إلى الشراب أو يرمى ساقيه بـ "الكماشة" . ثم وقع له حادثان . سقط محور عربة على قدمه وطار إسفينان من المخرطة ليصطدما برأسه . "اللعة ، كائنك من حجر المغنطيس" . في أحد الأيام أعمل الفكر في تلك الكلمات ووجد أن لها مغزى أعظم وأرحب . كان بيانثي يستقطب الحديد - المصائب ، العنف - حوله . لكنه لم يكن الوحيد ، بل الكثير من الفلاحين والعمال من طبقتهم . كان يدفع الإيجار لمدير الزراعة ويرسل ما تبقى إلى والده ، لكنه لا من الأول حظي بأقل تفهم - كأن يقترض البذور أو يؤجل سداد الإيجار في السنوات العجاف - ولا استطاع أن يكفل لأبيه وأخيه طعاماً أو حتى ناراً في المنزل . ولم يتلق أيضاً كلمة تشجيع أو رضى من صاحب العمل ، رغم أنه كان يعمل اثنتي عشرة ، أربع عشرة ساعة يومياً . لكن أية محنة لم تدخل اليأس في قلبه إلى حد تخطيط الأمل . تماماً . فستأتي سنون الخير ولن تكون ثمة حاجة إلى ما يرسله وسيدخر المال لكي يبتاع "عدة" ويستقر .

ثلاث شحنات انطلقت في المقدمة . "الجنود في برج الحراسة يتسلون" . ثم تأتي الصواريخ التي يخرق ضوءها قماش الخيمة فيخفق نار قنديل البترول حتى يطفئها .

ينهض إريارتي في عجلة مذعوراً :

- إيه ؟ آه ، كنت أظن ... !

يطلب شيئاً يشربه . وبيانثي يناوله الزمزية وبها نبيذ .

- أنت دائماً مستعداً

يهز بيانثي منكبيه :

- الخبرة، أيها الرقيب !
- أحان موعد خدمتي؟
- كلا. ساوقظك فى حينها.
- كيف حال الليلة ؟ أثمة هرج؟
- دائماً
- أى معسكر هذا ثم يقولون إنه هادئ. حماية الطريق لم تعد.
- إيه ؟
- لا شئ يا رجل. لم أفق بعد. يبدو أننى حلمت أن حماية الطريق لم
تتمكن من الانسحاب.
يعاود النوم. كان بياتشى متوتراً فيما كان إريارتى يتكلم. والآن يعود
إلى طمانينته السابقة.

حينئذ، وجد بياتشى فتاة شقراء حلوة كعنقود عنب مرصوص. صار
خطيباً لها وأحس بحيرة الرغبة الأولى فى المساءات الدافئة البهيجة. يتردد
بياتشى: "دام وقتاً قصيراً. فى أحد الأيام شاع همس... همس أهاج قلبه
وحرمه العيش فى سلام. رأوا خطيبته مع الملازم ديات أورينيا - من جديد
يتهدج صوته عند ذكر الاسم - ساعة الغيب، عند النهر، على الجانب الآخر
من القرية. ظن بياتشى أنه سيجن، وتأخر فى فهم أن تلك الحزمة من القلق
والحيرة والهديان والحقد لم تكن سوى الغيرة العادية والمبتدلة. أسأله هل ما
زال يحبها فيجيبنى، وقد أسقط فى يده، أن نعم، وإن كان يتذكرها كأنما
قضت نحبها.

دخوله فى تمام رجولته لم يكتمل حتى عرف الحب. لم يفده فى شئ
أن يكون بطل الناحية فى رمى القضييب - وهو امتداد لرياضة رمى الحربة
التقليدية - أو أن يكون أفضل حداد فى تلك الأرجاء. الحب كان يرقى به

إلى مرتبة البشر، وبدونه كان كل شيء مصطنعاً وزائفاً. وبهره انطباع الأيام الأولى المشرق، الذي جعله يحلم بحياة جديدة أكثر صفاء، ذات ملامح أشد عمقاً ورسوخاً. وتعززت وداعته الفتية السابقة على نحو أشد. تقرب إليه زملاؤه في العمل، كل يطلب منه النصيح في شئون المهنة. وكان هو الذي تمكن من رفع أجر اليومية، بعد أن هزم عناد صاحب العمل الذي أقسم أن يقتلهم جميعاً قبل أن يسمح بذلك التراخي. وتلك الواقعة مع خصمه أخدمت قليلاً أحاسيسه. لكن وجب عليه أن يكافح، أن يدافع عن حبه، عن كنزه. عاد يبحث عن خطيئته. وفي نفس اليوم الذي تواعدا فيه أجريت قرعة الخدمة العسكرية، وحين علم أنه سيصبح جندياً تبدلت أفكاره في الحال. زايلاه نفاذ صبره بشأن التأكد من أنها تحبه ليذهب بعدها إلى دياث أورينيا و"يحطم رأسه".

ومنذ القرعة إلى التعبئة إلى التجنيد، لم يستشعر انصرام الأيام. كان يمقتة إلى درجة القتل. ولولا حاجته إلى الحرية كي يطعم أهله لكان قتله. وفي فترة التجنيد، كان الملازم دياث أورينيا معلمه. وكانت تثقل عليه طاعته كجبل من جليد. كان ذلك أول استسلام. فهو ليس فقط لم يقتله بل إنه في أحد الأيام تلقى منه صفعتين وقرر أن يدخرهما له. فقد وظيفته في ورشة الحدادة. وأحس بمرور الأيام بأنه ينفصم عما كان يعتبره، على نحو مبهم، حياته.

— وأبوك، أكان ثمة محصول ذلك العام؟

— بدأ الربيع على نحو بالغ السوء. في عيد القيامة سقطت أربع قطرات مطر؛ فقط حتى لا تخذلهم، فتلك الأرض مجدبة وغير نافعة. وأتى الجراد على المحصول الهزيل.

الرجل الذي من مقاطعتي يعود ومعه زجاجة ممتلئة حتى منتصفها. يناولني إياها. "هيا، اشرب". اعتاد أن يقدمني على نفسه في الشراب. وأنا

اعتدت نسيان أن في عنق الزجاجة ثلاث دبابات أو أربعاً. أشرب ثم أنفخ
فألصق دبابة في قماش الخيمة. أشاطر الصيدلى أفكاره. يتجرع بيانثي
حسوة طيبة، والآخر، الذى يراقب بصبر نافذ مستوى الشراب فى القنينة،
يحتسى ما تبقى -حوالى نصف اللتر- دون أن يتنفس. ثم يرمش بعينه
وتسقط دموع على خده وعلى لحيته القليلة. يتنحنع ويهز جسده كأنه
كلب مبلول.

- حظاً طيباً، هه؟

يطلقون على ذلك "بدء النوبة". وأنا لا أعاود رؤيته إلا فى اليوم السابق
على المسيرة أو العمليات أو الكمائن أو النقل. يأتى فى طلبى حتى لا يدع
طقوس "المواطنة" تلك بلا اكتمال. يذهب لكنه، قبل ذلك، يسأل:
- ألدك من يستطيع رعاية قطة ربيتها أنا فى قنادسة، لأننى لو تركتها
ستأكلها الكلاب؟

يغمز لى بعينه بإيماءة بالغة القسوة. ويصر على تذكيرى بنصيحته
السابقة بشأن بيانثي. بالفعل. هو "مترصد". هذا ما يقال عمن حوكم لاية
جريمة ارتكبها أو، ببساطة، عن أى جندى مراقب أو غير مرغوب فيه. لا
يقال عنه "كذا" أو "كذا" بل تطلق عليه هذه العبارة الدقيقة
المعبرة: "مترصد". لكنهم إذا ترصدوا الجميع لوجدوا فى الجميع نفس
الجرائم المحتملة. ومسألة التمتع بسمعة طيبة ليست إلا ضرباً من حسن
الطالع. احرص على ألا يترصدوك لأنهم إن فعلوا فسيجدوا فى أعماقك
نفس التمرد الصحى ضد العبث.

ليلة صاخبة. مزيد من الطلقات. حول المعسكر الهاجع ترتفع بنادق
جنود الحراسة فى لعبة مرعدة ضد الظلمات.

بمقت بيانشي ذلك الرجل عبر أربع سنوات من النسيان، وذلك المقت هو وحده الذى لا يزال يضيف على كلماته وإيماءاته بريقاً إنسانياً.
- وأبوك ؟ ماذا كان من أمره ؟

يتوقف، يفتش فى جيبى صدارته. يخرج ورقة متسخة متأكلة الثنايا، آخر رسالة تلقاها فى أقريقيا، منذ ثلاثة أعوام. أحاول قراءتها بلا جدوى. أسفل السطور الأولى ثمة ثلاثة حروف كبيرة فى الوسط: "أ.د.ج.". ثم نتحدث عن أخيه، الذى يبيت فى الحظائر لأن الناس إذ يتذكرون أسرته الصالحة يقدمون له "سقف بيتهم". والأب ؟ بيانشي يستعيد الورقة:

- لا تمكن قراءتها، لقد اتمحت من أثر العرق. عندما جئت إلى هنا توقفت عن إرسال إيجار الأرض لمدير الزراعة، وأبى، لئلا ينتزعوها منه، باع كل شئ وسدد العام الأول. فى العام التالى، وبعد محصول حقير خضجت السنابل قبل أوانها ففسدت-، لم يحتمل. كان يعمل ليل نهار، ويذهب إلى الحقل ليرى هل اجتاح الصقيع الأرض أو غمرها الطل. كان يرفع يديه كل حجر وينزع الأعشاب الضارة. لم يكن يأكل، ولم تكن هنالك نار بالبيت. أما أخى فرحل حين لم يجد خبزاً، فأعاده الحرس المدنى. فى مساء أحد الأيام، عثروا على أبى ميتاً عند تخم بالحقل. وكتبوا لى أنه مات بمرض فى القلب، بيد أنه مات جوعاً.

لم يذكروا ذلك لأن من العار على قرية أن يموت أحد ابنائها على هذا النحو. فى ذلك العام قاض المحصول -يهز رأسه فى يأس-، سخرية الحياة! بعد ذلك، يتحدث عن تلك السخرية بتجهم، كأنها سر لم يطلع عليه سواه.

فى قطاع المهندسين، خلف خيمة، ثمة ضوء وشخص يتحدث بصوت منخفض. يقامر جنديان، بورق لعب قدر. فوق ورقة، إلى اليسار، ثمة فار ميت، ويضعان آخر من مخطمه على حافة ورقة أخرى.

- على هذا، كم تراهن؟

- ثلاث بزيئات والفار الآخر كاملاً!

ثمة أعراض طاعون دملي، ويدفعون ريالاً لقاء كل فار ميت يقدم إلى مقر الحراسة حيث يعدون قائمة بذلك. من قبل، لم يكن مطلوباً سوى إحضار أذنان الفئران، غير أن الجنود كانوا يزيّفونها، أما الآن فيطلبون الفار كاملاً. وثمة من يربّيها، كما ظهر "الوسيط" الرهيب ومن يخزنها ويشترّيها بخمسة عشر سنتيماً.

ويلجأ الجنود إليهم لأنهم في مقر الحراسة لا يدفعون إلا بعد مرور خمسة أيام على إحضارها. حين يريأثنى يخبئان الورق والفئران. وينهض أحدهما مدعوراً.

- ماذا تفعلان؟ أتلعبان؟

- كلا، ياسيدي.

أما الآخر، الأشجع منه، فيعترف:

- لم نكذب؟ لقد رأنا!

هما الآن واقفان، في وضع انتباه. يحملان باقة معتادة منها ويخفيانها بصعوبة خلف سراويلهما. جيب أحدهما منتفخ ويشى باحتياطي متوسط الحجم. يتواصل النباح بعيداً جداً، ولولاه لما أحسست باللانهاية التي يخلفها الليل.

.

.

.

.

.

.

.

.

.

.

.

.

.

.

.

.

.

.

.

.

.

.

.

.

.

.

.

.

.

.

.

.

.

.

.

.

.

.

.

.

.

.

.

.

.

.

.

.

.

.

.

.

.

.

.

.

.

.

.

.

.

.

.

.

.

.

.

.

أحدث إليه وأحياناً يتأخر في الرد أو لا يجيب . يتعثر أكثر مما يبرره تفاوت مستوى الأديم . بغتة ، في منعطف ، يواصل السير في نفس الاتجاه ويسقط فوق المتاريس . يسير نائماً . يصل حكمدارات الخفرات ويقول له أحدهم إن عليه الخدمة في خيام العيادة . لم أزل إلى جانب المتاريس ، مهموماً بنجاولي بيانثي . لو أننا تحررنا بقية الجنود كم قصة مشابهة سنسمعها . وذلك المريض بالمalaria ربما يعيش هو أيضاً خاتمة مأساة مبتدلة مثل بيانثي . هنا ، تلبس المحنة زياً وللحزن برودة تشير الجنون . بعد نصف الساعة ، في الجولة الثانية ، أرى بيانثي واقفاً وسط الجثث . مستنداً إلى السياج .

— كيف الحال ؟

— تمام يا أفندم — يرد وهو يغالب النعاس .

ليس من الصعب تخيل ما يحلم به . فبسبب قلة النوم والراحة تتلاحق الكوابيس ، وبعد ما قصه على يحلم بيانثي بالطبع بالشئ الوحيد الذي لا يزال يربطه بالحياة : حقهده على الملازم ديث أورينيا . هي تلاشت من ذكرياته ، والحب البعيد وهن ويطفو كسحابة فوق حقيقة حقهده . وكم باغتني ذلك ، فقد كنت أعتبر بيانثي رجلاً منفصلاً عن الحياة ، عن نفسه ، ويتدلى منها بالكاد بإيماءة واهية ، ذاهلة ، بفعل نزوة من نزوات الطبيعة ، مثل تلك الصخور التي يحفظها توازن عبثي : "لست سوى روتين" ، "لم يعد ينقصك إلا أكل قليل من الخزاريف" ، "احترم جدك" ، "ما أسوأ

الحظ". ثماني جمل أو عشر من هذا القبيل هي كل حصاده، يرددها منذ أربعة أعوام، حسب الحالة، بضحكة غريبة لاشئ تحتها. في الحياة المدنية ربما نسي خصمه؛ لكن مسألة عدم رؤيته فقط لأنه جاء إلى المغرب حفرت في نفسه الحقد كوشم في القلب؛ والحياة العسكرية، الخضوع لضباط آخرين يتمتعون بنفس السطوة، كانت تثير سخطه وتحبيه. يحلم بيانثي بأنه يلقي دياث أورينيا ويقترب منه ليقتله؛ ولكن، بما أنه يجذب الحديد، يطير مسدس الملازم نحو رأسه وكل "سونكي" في الكتيبة يطير في الهواء ويحاصره.

في الركن الجنوبي، إلى جانب ملاجئ المدافع الرشاشة، ينشط الليل بألف همس. إلى الخلف قليلاً، في العيادة، يسمع صخب مألوف. قد يكون المجنون في واحدة من نوبات سهاده المرعبة. مجنون "متعقل"، ينهض في منتصف الليل ويصرخ ويهذي. وعلى الجانب الآخر، في ملجأ، يلعب الضباط الورق. والرائد، الـ "دون جوان" الأرمل، الذي يكتب كل يوم إلى إحدى عشرة إشبينة، حاضراً هناك أيضاً وكذا مقدم الكتيبة، الضامر، المعروف: روح مدني في معناه الإيجابي. يقلد المجنون نوبة انتباه للجنود:

— تاراتيتاااه، تاراتا تيبببي، الكولونيل، بيان!

ثم نداءان أو ثلاثة معبرة، وبغثة، يبدو وكأنه يلتقط خيط تهويماته: نحن نمزق الكاكي زحفاً بهذه الجبال وأنتم تشربون جعة مثلجة وتلعبون الورق وتكتبون بيانات: "الفقرة الرابعة من البيان الأول! نحيطكم علماً بأن الرائد المذكور يستحق ضعف مرتبه مكافأة، لأن خمسين من رجاله قتلوا". ثم تنهال عليه الأوسمة. هوب، لليمين انتشروا. ثم الانسحاب قفزاً، مثل

أزيز الحصاد. ثم ترسل الإشبينة كعكاً وتكتب على ورق عذرى. أوغادا. سروالى انتهى عمره منذ عام، ويطلب البق غيره منذ فترة، لأن البرد يدخل من الثقوب. ولكى ينقلوك إلى المدينة؟ ألفا بزيته بالتمام والكمال لا تخفيض حتى لأبيهم الذى أنجبهم. وأبناء القساوسة وحدهم بوسعهم العمل فى المكاتب. وإلى المستشفى؟ المستشفيات من أجل الموسرين. للخلف دُر...، وزنبور فى الزمزية. وإذا كنت أبقيت الماء حتى الانسحاب فالويل لك، شربه نعلاك.

يجسد منادي منتصف الليل ذاك روح العدل فى المعسكر. والعدل جنون فى هذه البقاع. عيار نارى ثم أعيرة أخرى إلى أعلى، إلى أسفل. يصرخ المجنون:

— أطلقوا النار على ذيل الذئب! رراب، رراب! لا تدعوا ابن بغي واحداً من هؤلاء. رراب!

— لنر، أين الممرضون. فليسكتوا هذا التعس. متى يرسلونه إلى المدينة؟

— إلى المدينة؟ — يصر المجنون — أعطهم ألفي بزيته ويرسلونك إلى المدينة.

يزأر "الشاحنة":

— إن لم تسكتوه سأوسعه ضرباً بالهراوة.

— أنت "الشاحنة"، أليس كذلك؟ أطلقوا عليك هذا اللقب منذ نكسة أنوال، لأنك بلغت المدينة قبل أية شاحنة ودون أن نعرف كيف. أما من حيث موقعك فكنت فى الخطوط الأولى، فلا تنكر.

ينهض الضابط ساخطاً. وزملاؤه، الذين ينفرون منه، يتكتمون الضحك بصعوبة ويظهرون له أن جزاءه كان جائراً. لكن "الشاحنة" لا يرحم. يتدخل أحد أطباء الجيش ويؤكد لهم أن المجنون سرعان ما سينام.

ويردف:

- إنه لبائس! فضلاً عن جنونه، لديه حروق من أثر الغازات الكاوية. فقد حملت إليهم الريح غازات من الخامس من يوليه فى تازة وتقرحت تقريباً أجساد كل جنود أبراج حراسة القطار.

يقول شخص حاقد على الطيارين للمقدم:

- يا للحمق! إلقاء غازات فى عكس اتجاه الريح.

خلف الظلام المتشابك وراء الملجأ ثمر الدورية. وأحد الحراس، من مخبئه خارج نطاق الموانع، يقول لحكمدار النوبة بصوت خفيض ورخيم معاً، يأتى من وراء الظلال:

- تمام!

أعاود المرور بالقرب من العيادة. أحبر المجنون على الالتزام بالنظام. ثمة آخران: أحدهما يمضى النهار مصدراً أوامر ورأسه منخفض ومائل إلى الامام إلى حد أنه يحفظ توازنه بصعوبة وبقفزات كبيرة. يصدر صراخات مرعبة وغير مفهومة -الأوامر- كلما توقف واستدار للخلف. ويسمع صراخه فى أنحاء المعسكر، ولا أستطيع رؤيته فى عناده الصارم دون أن أحس بأن احتجاجاً يائساً يصرخ فى قلبه. أما الآخر، الصامت والمنزوى والتجول، فلا يضايق أحداً، ينظر فى حذر إلى كل مكان ويحمل فى يده دائماً نصف "قارورة" ماء. يرقد وهى فى متناول يده، وكلما نهض ليذهب إلى المرحاض، لقضاء تلك الحاجات الأخرى الشاذة المعتادة فيهم، حملها ولم يطلقها حتى يعاود النوم. الغريب أنه لا يشرب الماء، بل يكتفى بالتأكد من أن الماء مازال بداخلها كل خمس عشرة أو عشرين ثانية فى قلق محموم. وللمجانين الثلاثة هيئة بالغة الصرامة، كأنما الجمجمة الحليقة وعظام الوجنتين والفك تمتص اللحم والجلد واللحية.

هنالك أيضاً مجانين متوسطون، لكن هؤلاء ليسوا فى العيادة. أحدهم

شعره أبيض تماماً. ولا يغيب بالطبع ضابط الصف المصاب بجنون العظمة - تم حبسه وترحيله بالفعل - الذي بعد أن يستعرض على نحو مثير للإعجاب عملية شرائه سيارة "إسبانو" *، ومميزات العربة والصعوبات التي واجهها كي يحضرها إلى مليلة في مركب، وبعد أن تسأله بنية صادقه عن ثمنها، يجيبك:

- ليست غالية، أربعمائة بزيطة.

مررت مسرعاً، محاولاً ألا يراني أحد، ومتجنباً مضايقات الرائد الذي يتصور أنه ديمقراطي ويتحدث معي على مرأى من الآخرين ويضفي على كلماته بشاشة تبسُّط تضايقني. كما أفر من النقيب "ن" الذي، حين كنت جندياً ثم عريفاً، كان يناديني في نبرة معينة بـ "السيد" أنطونيو. وأصل ذلك يرجع إلى واقعة طريفة. عندما كنا نسجل بياناتنا لدى وصولنا، كان الرقيب يسأل كلاً عن مهنته:

- وأنت؟

- صحفي.

- ممن يبيعون الصحف؟

- كلا ياسيدي. ممن يكتبونها.

- ولكن، أذلك تخصص أم مهنة؟

- كما تشاء.

- لكي نتفاهم، ألدبك أية شهادة جامعية؟

وحين أجيبته أن نعم سجل أمام اسمي كلمة "السيد". فلكونه يحترم اللوائح ويفي بواجباته لم يغفل هذه اللفتة مهما تكن صغيرة. وفي أحد

* سيارات فاخرة كانت تصنع في إسبانيا في العقود الأولى من القرن.

الأيام، بينما يراجع القائمة أمام النقيب، ناداني الرقيب بتلك الصفة المتألقة. أمر النقيب التزام الصمت. قطب جبينه ونظر إلى الرقيب وتفقد الصنف بعينين متحريتين. ثم قال :

— لنر، ليتقدم السيد أنطونيو خطوة إلى الأمام. أنت السيد أنطونيو؟

— أجل، ياسيدى.

— لكن، لمه؟

— هي أمور تعن للرقيب.

— إيه؟ ما هذا؟ الرقباء لا تعن لهم أمور، ياعزيزى "السيد" أنطونيو.

كان ذلك سخيلاً. فالرقيب—الذى كان يكن لى ودأ لا يخلو من التسلط لكنه أيضاً لا يخلو من الاحترام—تحدث إلى النقيب فنظر الأخير إليّ فى حزم. منذ ذلك الحين، كان على "السيد" أنطونيو أن يؤدى أروا الأعمال وأقلها حفظاً لماء الوجه. وكان يأمرنى بها دائماً النقيب وينادىنى بـ "السيد". فيما بعد، ودون أن أحيط بالسبب، كف عن ذلك بل وأهدانى أشرطة العريف.

خط سير خفريات الليل ينحنى عند منعطف الموانع ثم يعاود الدخول ناحية الملجأ. ينهض النقيب ويخرج نحو غرفة القيادة مغطياً رأسه بقلنسوة العباءة. يذكرني بصورة لسان فرانثيسكو لا أتذكر أين رأيتها. الظاهر أن الامربات مؤكداً. سنخرج غداً. تستمر حركة جنود الإشارة فى الظلام. يخرج عريف هذا القطاع ورقيب خدمة المدفعية للقائى :

— أتدرى ماذا يحدث؟ لقد سحقوا قوة حماية الطريق. نصبوا كميناً لثلاثين رجلاً. والفصيلة؟ وسريتا الثامنة والتسعين؟ قضوا عليها. من المحتمل أن تدق نوبة الاستحضار فى غضون نصف الساعة.

ينتشر الخبر فى المعسكر فى سرعة. يصدق حدس إيربارتى. وحين أتذكر جراح مخه وأربطها بهذا الأمر ينتابنى ضيق مبهم. الجمجمة

صندوق عجيب . جمجمة إريارتى تتلقى رسائل من الظلال التى ترقد وراء السلك الشائك . من فى الخدمة يتناقلون النبأ همساً . لم يعد أحد يشك فيه . القادة يذهبون ويجيئون ، وهم يضحكون ويدخنون ، بالغى الهدوء ، بالغى الاطمئنان ؛ غير أننا جميعاً ندرك ماذا يعنى ذلك الاطمئنان .

الضابط يستدعيني . ليس موجوداً فى مقر الحراسة ، ولكى أراه يشعل ويطفىء الكشاف الكهربى . برفقته ثلاثة ضباط من سلاح الفرسان بعيدون قليلاً عن خط الموانع . يتحدثون عن الفصيلة ، عما يمكن أن يكون حدث لها ، لكنهم يصمتون لدى وصولى .

— أبلغ كل الحكمدارات أن يجرؤا تفتيشاً على ذخيرة الدعم ومن ليس معه خمس خزائن فليكملها .

فى مقر الحراسة ، ينظف جندى مسدس الطلقات الضوئية ، يجربه ويصوبه مازحاً نحو جندى آخر . جمعيتهم يتحدث فى نفس الأمر . يطفى جندى مخضرم رأسه بالبطانية : " بين الناموس والفئران والشائعات لا سبيل إلى النوم فى مجموعة الحراسة " . فضلاً عن الضوء وصخب تغيير الخفريات ، ثمة نحو من القلق فى الهواء ، ضرب من التوتر العصبى . وبعد نصف الساعة من فهم ما يجرى ، يود جنود حراسة الموانع أن يقوموا بالهجوم فى أقرب وقت ، هذا إذا حدث وهاجموا .

تنتهى خفرتى ، وما إن يتم غيار الحرس أدخل خيمتى . إلى الجحيم جولة أخرى . لدى مرورى بالحانة المغلقة أسمع صوتاً مميزاً . خلفها قليلاً ، الماخور وثلاث فتيات ، واحدة منهن عربية . إذا كانت مثل هذه الأماكن فى المفهوم التقليدى — لها حضور فى الجمهوريات المنظمة ، فوجودها أشد إلحاحاً فى معسكرات الجيش . وهو مثل الخصاص الأخرى ، له حوائط من

الألواح الخشبية المسمرة، الموصلة جزافاً -أو بوحى من الشيطان- بألواح من الصفيح أو خرق من من الحصير أو قماش الخيام. فى الداخل، ثمة عدة دواوين صغيرة كقمرات السفن، وحجرة كبيرة يسمونها الصالون. والأرضية هى نفس أديم المعسكر الملىء بالحفر. والأسرة، المتصلة بالحوائط الخشبية، تنقل إيقاع العمل إلى أنحاء البيت فى طرقعة توقيعية تسمع ليلاً من بعيد جداً، وتخلف فى أثراً بالغ السرور.

فى الموقع القريب يطلقون عيارين. أقرب.

- ماذا هنالك؟

- نفس الضوء السابق. شئ ما كالكشاف يلوح هناك فوق التل، ويتحرك، أطلق عليه النار فيتلاشى، لكنه سرعان ما يعود.

أحد أفراد الخدمة، شبه نائم، يتقلب على الأرض ويزيح خزائن الطلقات حتى لا تنغرس فى ضلوعه، يتحدث بصوت أخن غاف:

- إنه مغربي معتوه يحمل المصباح الكشاف فى طرف عصا يأتى كل ليلة ليرقص فوق تلك الأكمة. إذا أنصت جيداً ستسمعه يغنى: "آه، مولاي، مولاي...". مخبول!

ما إن ينتهى حديثه يسمع شخيره. وحين أقرب من موقع الحراسة الرئيسى يبدأ إطلاق الصواريخ. يصل رتل متحرك من الطريق المظلم، بشئ من الحذر. دخلت طليعته المعسكر وبقترب قلب التشكيل وجناحاه، سلاح الفرسان والمشاة، قوة تأمين الطريق. يصطفون فى الظلام. ثمة سعال هنا وهناك:

- استرح!

يهدأ المعسكر وينام. والخوف السابق يمسى سخرية.

مجموعة الخمسة لم تنزل فى نقاش خفيض . يرى العريف من واجبه أن يقدم تقريراً "مكتوباً" . كانوا يقودون أسيراً لتسليمه فى "رأس فروين" بأمر من الرائد . اضطروا إلى الصعود مسافة أربعة كيلومترات وعرة والشمس فى كبد السماء وهم يحملون المعدات كاملة . ومرد هذا جميعه أنهم باغتوا "ذلك التعس" ومعه بندقية مشحونة وخطابات باللغة العربية . تفاهم العريف والجنود فيما بينهم بلغة الفجر . وقبل أن يقطعوا مسافة كيلومتر واحد اضطروا إلى التقدم دفعاً حتى يحيدوا بالأسير عن طريق السيارات . بعيداً ، إلى جانب اكمة ، أطلق عليه أحدهم عياراً عن كشب ؛ لكن المغربى استجمع قواه وجرب الدفاع عن نفسه فانقضوا عليه بالسونكى فى اشتباك قصير وغير متكافئ . رقد فى الشمس ودمه يغلى فى جراحه ، فكوا مداهم وأغمدوها وحملوا بنادقهم فى وضع مريح واستأنفوا طريق العودة يمزحون ويغنون بصوت منخفض . الخبرة ! وعند بلوغهم قوات تأمين الطريق أعطاه العريف التمام :
- تمام ياسيدى ، أراد الفرار فأطلقنا عليه النار .

كان الرائد يدرك ما حدث :

- حسن !

بيد أنهم الآن يتشككون . أيجب تقديم تقرير مكتوب ؟ "فقط إذا كانوا سلموك المغربى بتقرير آخر ، لكنهم فعلوا ذلك شفاهة . ليس من واجبك أن تفعل أكثر من ذلك . تمامه الآن مع الرائد " . يقتنع العريف ، ويخفى ندمه على طلبه مشورتهم فيأمرهم :

- نظفوا مداكم قبل أن يلصق الدم بها . غداً ، يجب أن تكون فى بريق صحيفة القربان .

من وراء خيام السرية الطبية ، يخرج بيانثي .

— تمام يا فندم!

بيد أن ثمة خمس جثث حافية الأقدام، الجثث الخمس الوحيدة التي كانت تلبس أحذية برقبة. الأخرى تلبس أحذية من القماش، من المعتادة، المقواة في أطرافها برقبة محكمة من قماش الخيام عند الكالخين والضباط الذين كانوا يرتدون واقياً للساق فقدوه أيضاً.

— ماذا فعلت يا بيانثي؟ لنتنظر أن يمر الأمر بسلام. من ناحيتي، لن أفتح فمي، لكن، إذا علم الرائد فسوف ينتقم منك.
ينصت إليّ في أشد حالاته ذهولاً:

— من حيث النوم أنا لم أتم يا سيدى الرقيب.

— إذن!

— لا أصدق ما أرى.

— عليك أن تفسر ذلك.

يتقدم بيانثي صوب إحدى الجثث ويزيح عنها الغطاء. ينظر الميت بعينين زجاجيتين غبشتين. به بقعة دم صغيرة تحت ذقنه، كأنه قطع صغير نتيجة حلاقة ذقنه، وفي مؤخرة الرأس، مكان خروج الطلقة، قطع ضخم.
— حسن، ماذا؟

— سخرية الحياة أيها الرقيب.

— أية سخرية؟

— دياث أورينيا، أيها الرقيب: سخرية الحياة.

أحذق في بيانثي. خذاها المعروفان يتغضنان نحو أذنيه ليكشفوا عن أسنان قدرة. لا أجيبه. أمضى في طريقى لتغيير خفرة الحراسة. يتزنج بيانثي بين الجثث، يحاول حفظ توازنه حتى لا يطأها. قد يسقط ويرقد وسطها إلى الأبد. فحقده على دياث أورينيا، الشئ الوحيد الذى كان يربطه بهذه الحياة، أضحى بلا غرض.

فى اتجاه "أنوال"، يزداد الريف خضرة، والطبيعة متحضرة تقريباً. لم نصل بعد إلى هناك فنحن محتجزون وراء مرتفعات تازة الجبلية، حيث يتخذ "النسق" الأول مواقعه الآن.

بيانثي يشرح:

— تترك تلك القمم جانباً ثم تمر إلى يسار "بنيتث" بلا توقف، وبعد ثلاث ساعات، تلوح مخازن إدارة الإمداد والتموين البيضاء. حسن، كانت ترى حينذاك، لأنها الآن أضحت خرائب. كان موقعنا أمام أنوال بفرسخين، منذ حوالي عامين. كانت نقطة ملاحظة متقدمة، و"الأرتال المتحركة"... لا أحد يعرف كيف كانت تتقدم—لحظة توقف كى يشرب جرعة ماء—، حينئذ كنا مائتى رجل نتحرك ونفعل كل شئ بحد السونكى. أما الآن فتؤدى العمليات بالوف الرجال ومئات المدافع والرشاشات والطائرات. من حيث الوصول كنا نصل إلى أى مكان، لكن الأسوأ كان الاستمرار. وكانت فرقتنا، الثانية والأربعين، فى قلب كل معركة. كان المغاربة يقولون: "رجال سيرينيولا مثل بنات آوى". وبنات آوى لم نكن نحن بل مسيحيي القيادة العامة. فأولئك الأوغاد هم الذين أوقعونا فى مأزق.

كانت أربع فرق تنفذ كافة المهام، خاصة الفرقة ٤٢، إذ كانت أميل إلى خاصية الالتحام ولا تبشر بخير منذ أضحت لها سرايا نظامية. ولما كانوا يرسلون إليها مجرمين بعينهم—حكم مقتنع بالإعدام—ساد الظن بأن حياة رجال فرقة ثيرينيولا تساوى أقل من حياة بقية الفرق. ورغم أنهم فيما بعد

خلعوا عنها تلك الصفة الإصلاحية، لبثت زمناً طويلاً تكابد سوء السمعة الذى كان ينتقل بالطبع إلى الحانات والمواخير، لكننا لم نعدم فتاة حسناء تقول حين ترى الرقم على الباقة:

– عندما أرى الثانية والأربعين أحرز سبع متعاً

ويضيف بيائشي:

– عندما رحلنا إلى R كنا قضينا وقتاً طويلاً فى أنوال، لذا سررنا، فقد كان الجنرال S رجلاً "فلكلورياً" ولا يدعنا نتنفس. كان دائماً يفكر فى وسيلة لإثارة القلاقل، وبعد تجشم عناء مضمّن للحصول على الماء، يحب تنظيم غارات على "الأدوار" فلا يذر دجاجة أو حيواناً، فكنا نقضى على كل شئ ونحرق المنازل: لكن المغاربة، فى اليوم التالى،، يرابطون من جديد قرب السلك الشائك. ويشبه أنوال هذا المعسكر إلى حد كبير، حتى اكدهاس تبين فرع الإمداد كانت مطابقة. سعدنا لرحيلنا إلى R، فنقطة مراقبة ليست كالمعسكر، ثمة خدمات أقل ولا أحد يخرج عن السلك الشائك. لم تكن فى حاجة إلى الخروج للبحث عن الماء إذ كان يمدنا به "قول" كل ثمانية أيام. وأخذنا نفكر: هنا أفضل من فندق؛ لكن هيهات، كان ينتظرنا أول اشتباك. وليلة "الغيار" قضيناها جميعاً فى الخندق. تتحرك السريتان الثالثة والرابعة ومجموعة الرشاشات وجماعة من الشرطة المغربية الموالية. أما الأولى والثانية، وجماعة أخرى من المغاربة، فلم يكن بوسعها الخروج. وصلنا فى منتصف الصباح، وفى المساء كانوا لا يزالون هناك. منتهى العصبث! إذ كيف كانوا سيعودون إلى أنوال إذا كنا نحن اضطررنا إلى الانتشار فى منتصف الطريق والانتظار منبطحين أرضاً فيما كانت المدفعية تخرج المغاربة من خنادق كانوا ينتظروننا فيها؟ فى ذلك اليوم علمت أن المغاربة يحفرون الخنادق بالعكس، فيلقون التراب إلى الخلف. ولكى يشقوا تلك الخنادق، يبحثون عن أرض تبدو منبسطة لكنها محدبة على نحو

طفيف، أفضل شئ يمكنه خداع من يطلق النار عليهم. فإذا أنت أطلقت عليهم شحنة واجتهدت في التصويب إلى أعلى من وضع الرقاد فلن تصيب سوى التراب دائماً. لابد أن تقف فوق رؤوسهم لكي تصيبهم. لكن أبناء البغي حين يحفرون الخنادق يلقون التراب خلفهم، وبدلاً من استخدامها كساتر يختبئون في الشق، إلى الأمام. كنا نحن والرشاشات نطلق النار على ما يرتفع عن الأرض والمدفعية على ما خلفه. وبالطبع، لا أحد هنالك على الإطلاق، لكنك فيما بعد تقترب مطمئناً فيقضوا على السرية.

الرائد B انتبه إلى ذلك قبل التحرك. كان هو أيضاً قد جاء كغيار. رجل شجاع في مسألة الخمر والنساء والمغاربة، بيد أنه متمزمت في مسألة اللوائح. كان يحظر على الضباط لعب الشطرنج في مقر الحراسة لأنهم، على ما يبدو، يطلقون عبارات ضد الملك والوزير. وكان يمقت الرائد X لأنه كان أشجع منه. غير أن كليهما لقي مصرعه في نفس اليوم. وأيضاً الجنرال S. في ذلك اليوم، حصد المغاربة حصاداً طيباً من النجوم.

ولما كنا جليلنا محل السرايا المتمركزة في R، أراد أفرادها الرحيل. كما أقول لك، منتهى الفوضى! كنا نفدنا "الغيار" ولم ننفذه. والضباط في بالغ حيرتهم من ذلك الهرج. وذاك عيب! لكنهم اضطروا إلى الرحيل. في تلك الليلة، الجميع وراء المتاريس. وحسب مقولة أفراد المدفعية والجرحى الذين مكثوا ينتظرون "القول"، لبثوا في تلك الحال مدة عشرة أيام. ومنهم من صار له ثلاثة أيام وثلاث ليال خلف أكياس الرمل. ونحن أيضاً، فيما بعد. بعضهم، بعد أن فقد القدرة على الاحتمال، كان يخرج ساقيه ليلاً ويضعها فوق الساتر حتى يصيبوه بطلق نارٍ فيضمّدوا له جرحه ثم إلى الخيمة والنوم كأصحاب الأملاك. فضلاً عن أن حصته من الماء تكون أكبر. والطبيب كالمجنون: كيف يتأتى أن يصيبوكم في سيقانكم إذا كنتم لا تظهرون من الساتر سوى أنوفكم؟ فيقولون: "طلقات مرتدة". ثم أدركوا

الأمر في النهاية وحاكموا المتقاعسين وانتهت الحيلة.

لم يكن الموقع صغيراً ولا كبيراً. وكانت المتاريس ترسم مستطيلاً أركانه مثمثة الأضلاع تحتلها المدفعية والشرطة المغربية الموالية. وكان يهبط منخفضاً شديداً الانحدار حتى إن مستوى أوتاد سور السلك كان أفقياً تقريباً. هناك، كانت ثمة نقطتا مراقبة ومدفع رشاش. وفي الوسط، تمتد سبع خيام وكشك الهاتف وكشك احتياطي المؤن الذي حفر نصفه تحت الأرض. وبارتفاع متر فوق مستوى الأرض صنعوا له سقفاً من الحجارة وأكياس الرمل. وثمة كشك آخر لنقطة الإسعاف. وفي أحد الأركان، خيمة أفراد المدفعية وكوخ متهالك؛ وفي ركن آخر، خيمة الشرطة الوطنية التي كانت تقضى يومها في الغناء وإعداد الشاي. أشغال ثابتة بلا حساب و"أحراس" في الليل. خدمات كثيرة. لكن الموقع، بوجه عام، كان نظيفاً وبالغ الاتساع. فبين الخيام والمتاريس، من الجهات الأربع، من الممكن التدريب على حرب العصابات في أسر.

من ناحية جبهة أنوال كان السهل يهبط في انحدار بسيط؛ ووراء طريق السوق، على مسافة حوالي ستة كيلومترات، يعود ليرتفع حتى أنوال. أرض ضاربة إلى اللون البني، تلوح كالرماد في البقاع التي قلبها المغاربة وحفروها من أجل الحصار. لأن الموقع منذ اليوم التالي على الغيار كان محاصراً.

— منذ دخلنا R ورأيت وجوه الناس أدركت ما كان ينتظرنا. سمحوا لنا بقليل من الراحة ولكي نأكل "طعاماً بارداً" كانوا أعطوه لنا قبل تحركنا. كتب على ظهر المعلبات: "لحم بتلو وبازلأ"، لكنها كانت فاسدة. أي جديد في ذلك! الغريب، بعد الصفقات الفاسدة بين الوزارات والموردين، ألا تكون فارغة.

كانت بطاريات مدفعية أنوال قد أسكتت المغاربة؛ لكن المتاريس، في أول المساء، راحت تطرقع من أثر الطلقات العالية، من أحد الجوانب. كانت النار تحيط بكل المعسكر. لكن قناصي النوبة ظلوا ساكنين. وفيما كانت المدافع الرشاشة صامتة، أطلق المغاربة النار من داخل خنادقهم ومسار أعيرتهم يمر أعلى المتاريس في زاوية حادة. لم يكن في وسعهم أن يصيبونا، إلا في حالة طلقة مرتدة. وهي حالات كثيرة، ويمكن إدراكها من العواء الذي يصاحبها. فالطلقات تفقد غلافها في اصطدامها الأول ثم تأخذ اتجاهاً عشياً، كتلك الألعاب النارية التي بدل أن ترتفع إلى السماء تسقط بين أقدام الناس، وتصدر صوتاً حلقياً تنازلياً. أخرج بيانثي قطعة بسكويت من الجراب الذي كان طواه فوق المخلاة المستقرة على الأرض. ولكن، لكي يأكلها كان يريد ماء، وقيل إنهم لا يعطونه لأحد. أكان عليه أن يواصل الصوم؟

— صدرت الأوامر بأن يمشوا في الصف وألا يتحرك أحد. اطلب إذنًا من الرقيب. هو المسؤول عن المؤن — ثم بعد تفكير، يردف العريف — اذهب أنت وقص عليه موضوع الملعبات. لكن إذا غضب فلا شأن لي.

يتحرك الرقباء جيئة وذهاباً ويتأكدون من أن كل شيء على ما يرام كي يوقع الرائد الجديد إيصالات "الغيار". حكمدار السرية الثالثة كان يتفحص برميل الزيت في قبو احتياطي المؤن. رفع الغطاء. كان الزيت يصل إلى الحافة؛ فالخمسون لترًا كانت هناك بالتأكيد، لكن من الصنبور السفلي لم يكن يخرج زيت، بل ماء. نظر الرقيبان كل إلى الآخر في وجوم. في الخارج كان دوى البنادق يصم الأذان.

— لن أتسلم هذا.

— اللعنة! لقد تسلمته أنا أيضاً على هذا النحو. أعتقد أنني بومة

وأنني شربته؟

- لا علم لي . سأسجل الواقعة في التقرير وعليك أن تفسر الأمر للرائد إذا سألك .

يمسح الرقيب المغادر على لحيته . ليست هذه زمالة . كم لتراً تنقص ، عشرة ؟

- تسلم الزيت ، وأعدك أنني إذا لاحظت من يأتي بعدك نقص الزيت سأسدد لك ثمنه من جيبى .

والرقيب المستلم ، وهو ينصت إلى إطلاق النار بعد توقف وجيز ، يهز رأسه مقتنعاً :

- لن تسدد شيئاً !

كان ثمة نذير شؤم في تلك الكلمات . أطل بيانثي على مدخل القبو ووقف "انتباه" ، راسماً على وجهه أبلغ تعبير بلاهة ممكن . نظرة شديدة العبوس ، ذراع ممتدة ، أمر صارخ :

- إلى الصف ! من أمرك بالجميـء إلى هنا ؟ إذا نقص شئ في الخيام فستشتعل فروة رأسك !

يبقون على الصفوف لتجنب سرقة الجنود المغادرين الذين مازالت معداتهم متفرقة في الخيام : قمصان ، علب سجائر مغرية . يعود إلى مكانه . وتنم هيئة الثلاثمائة رجل الجلوس أو المتكئين لتلافي ثقل المخلاة ، تنم عن انضباط معرض . فهم يخافون على الصف من قبيل المصادفة ، في "قطارين" طويلين . إلى الخلف ، أفراد الشرطة الوطنية المغاربة محتبون على الأرض ، بمعزل عنا تماماً . ينتاب بعضهم فضول فيدعون أعينهم تجوب الموقع . وبعضهم ينظر ، مهوَّساً في الظاهر ، نحو نقطة غير مرئية في الهواء . لكنهم لا يرون ولا يفكرون تحت وطأة التعب .

يمر جندي من السرايا المغادرة، يحمل كالدواب جوالاً من التبن وثلاث
مخال تتدلى من ذراعه وثلاث بنادق .

— إيه، يا أخى، أتغير منزلك ؟

— إلى أين تذهب، للتصوير ؟

يصمت آخرون، ينظرون إلى السماء الزرقاء الصافية والعميقة، بلا
طائر. عندما تترع الأعين بتلك الزرقة العذبة والطازجة والمتعشة لا يُحس
بطلقات المتاريس ولا أحد يعلم لم يطلقونها. يطلب أوتاثو، جندي من
مقاطعة "بيشكايا"، ناراً ليشعل نصف السيجارة التى يحملها في أذنه. من
غير المعقول أحياناً ألا تجد عود ثقاب وسط كل هؤلاء الجنود. يرى أمامه
عريقاً يدخن:

— هيا، أعطني ناراً.

— أرايت المستجد؟ تعال هنا لتأخذها.

يفتقر أوتاثو إلى مفهوم التدرج القيادى والأعراف الاجتماعية.
وهمجيته، لمبررات أخرى أيضاً، مردها سذاجة شرسة. يلزمه وجه لضبع
دموى، فهو لا ينظر إلى الأمام مطلقاً ويسب قبل أن يتكلم. لكن الجميع
يعتبره حملاً وديعاً، وعلى الرغم من أنهم لم يروه قط يضحك، يفرقون في
الضحك من سلوكه المضحك الرهيب. حين ينهض ويتقدم تجتمع كل
النظرات في ظهره. فمن المخلاة والبطانية المائلة ومن كم سترته نفسها
يتصاعد دخان منتظم. ضحك هنا وهناك. يدنو أوتاثو، الساكن، من
الرقيب:

— أعطني ناراً.

يغم الضحك. وأتاثو، فى نصف التفاته، يعلن:

— أهذا أيضاً يضحككم ؟ حسن، أقول إنكم ستضحكون كثيراً.

فى نهاية الأمر، يلتفت إلى الدخان:

— أيتها القاذورات، كان بوسعكم أن تنذروني .

ثم يقول له أحدهم :

— احترقت خزانتك يا رجل !

فيرد وهو "يشفط" السيجارة :

— لقد احترقت من قبل في منزلي بالقرية !

— وكيف كان هذا ؟

— أشعلت فيها النار بنفسى .

— له ؟

— لأن، اللعنة...، لماذا سيكون ؟ لأن أبى ضربنى .

إلى الخلف، يتجادل اثنان، ويختتم أحدهما :

— إذا أقاموا هذا الصخب نهاراً، البس ملابسك الثقيلة ليلاً .

يجرى التحضير للغيار . يخرج الرقيب .

— قف !

يشرعون في الوقوف معتمدين بنادقهم، وبعضهم يشد عليه المخلاة في عجلة مدخلاً ذراعيه في حزامي المخلاة كأنما يرتدي بذلة . ثم فوضى لحظية . فالعظام ابتردت بعد المسيرة وتشير المفاصل الألم . والرقيب الذي يغضن أرنبة أنفه بغثة يتفقد الصفوف بنظره :

— من أمركم بإنزال المخلاة ؟ أمركم بفض الصفوف أم ماذا ؟

ثم بإيماءة كدرة يتجه إلى بيانثي، الذي لم يجد بعد حامل المخلاة الثاني، فيطلق عبارة غاضبة ويرفع يده ويساعده على حمل المخلاة فيما يشبه الأمومة . هنالك هدنة مباغتة عند المتاريس . ناحية المنخفض، أطلقوا رصاصة . في الخارج، يكتسي المساء صمتاً عذباً وغائراً . تداخلنا رغبة في

وضع المخلاة فوق المتاريس والنوم. يخرج القائدان من كشك الهاتف وهما يزيحان خرقة من الخيش كتبت عليها الحروف الأولى من عبارة الإدارة العامة للاتصالات، ثم كتب تحتها بالعربية:

تلفن

أمام تلك الحروف العربية اعتاد أفراد الشرطة الوطنية المغاربة التوقف دهشة وقراءتها: "ترى...فو" أو "تلفن" ثم يستأنفون سيرهم. يبدو القائد الجديد في بالغ الضيق.

— عريف الإشارة

والرقيب، الذي لا تفوته فائتة، ينظر إلى حكمدار السرية الأخرى وفي مداراة يشير إليه بإيماءة قطع شيء "بزرادية" متخيلة. يفهم بيانثي: "قطعوا خط التليفون". يخرجون جهاز الإشارات الشمسية. حامل ضخم له ثلاثة قوائم ومراة صغيرة مستديرة، مليح الشكل كلعبة أطفال. تجب الإفادة من آخر شعاع شمسي. يملأ القائد والعريف يحرك عصا تستند إليها المرأة من الخلف، وبعد أن يدرجها يرسل النداء: "تاك تاك تاكا". وهنا لا يرى سوى المرأة مترعة بضوء الشمس وذبذباتها الصغيرة. ينظر جميع الجنود إلى خط أنوال الذي يرتسم بعيداً فوق المتاريس. القائد يوبخ بإيماءة. فهذا الفضول الذكي في الجنود يكون أحياناً عدم انضباط. وبعد نصف الساعة من الوقوف في الصف، المؤلم ألف مرة أشد من المسير نفسه، يصدر أمراً جديداً:

— اجلسوا بلا خروج عن الصف

فوق التل، يرى بيانثي نجماً أزرق كبيراً يضيئ ويخبو ويغطي المتاريس. أنوال يرد. بعد وهلة يحفظ جندي الإشارة جهاز "الهليوغراف" ويأمر

القائد بكتابة الرسالتين -السؤال والرد- وتسليمهما له . الآن ثمة قرار رسمي . يعود الرقيب :

- انتباه، اخلع المخلاة . العدد 1

ثم يقول الضابط :

- من واحد إلى خمسة عشر، خطوة إلى الأمام .

يجرى تغيير خدمات المواقع . خدمة بيانثي في أحد الأركان، إلى جانب ملاجئ الرشاشات . يحيط بالميدان بنظرة آلية . يشبه موقعه منبراً صغيراً وشاذاً شيد من الحجارة وأكياس الرمل، ناتقاً قليلاً . ثم ما يشبه المظلة من فروة متحللة بها بقع من الشعر: متصلة وقائمة على حوامل عشوائية -عصي، حجارة- تترك فيما بينها منفرجات طويلة مكشوفة . ثلاثون متراً بلا حجارة، بلا عشب، وسور السلك تغطيه خرقة تؤرجحها الريح . يجب توخي الحذر منه حين يجن الليل . وبعد ذلك النسيج المتشابك من السلك والأوتاد، ثمة صليب على الأرض حطمت إحدى ذراعيه، راقداً تقريباً . ولما كانت طلقات القطع البحرية لا تصل إلى هنا فإن قرابين هذه المقبرة لا تعدو كونها أربعة فوارغ طلقات مدافع جبلية، كأربعة قراطيس حلوى طويلة . وخلفها، انحدار التل الطفيف وأكياس الرمل الممتدة بطول الخندق . يقترب حكمدار الخفرة ويترك له على الأرض ستة من قنابل يدوية متراصة .

- لى ؟ من أى جهة بوسعى أن ألقبها؟ يبدو أنها من أجل الخفريات التالية .

دون أن يجيب، يلتقطها الحكمدار وهو يهز رأسه :

- اللعنة يا بيانثي ! سوف يعذبونهم !

-يعذبون من؟

- هؤلاء .

تصطف السرايا المغادرة . يهز بيانثي منكبيه .

يسكتهما دوى مدفع رشاش له صوت عادم دراجة نارية. إنهم المغاربة يتحركون فى صمت. يعرفون أن القوات ستتحرك. عند خط الغبار الذى أثارته دفعات النيران يرى ظلالاً تركض جهة اليمين، مبتعدة عن الموقع. سيكمنون للسرايا المغادرة. وهؤلاء المصطفين الآن، ينتظرون وهم يرزحون تحت وطأة أحمالهم، وقد تقلصت صدورهم وتقدمت رؤوسهم التى تظهر عليها التعب كأنهم متسولون رُحل. ومنهم من نفحه النعاس والظما عينين ذاهلتين وتعبيراً مزكوماً أو كمن يحبس دموعه فى أنفه. يخرج جنود المراسلة ثلاثة خيول. والضباط يغدون ويرحون ومعهم أوراق. ما زالوا يراجعون مرة أخرى لا أعرف ماذا.

حين نرى هذا الصمت، تلك الخطا الحازمة على نحو زائف والتى يظهر بها الضابط روحه العسكرى للنقيب والرائد، نفكر فى أن كافة تلك المراسم، وسط القمل والبؤس والجوع والأسعال، ليست سوى مزحة ثقيلة لحفنة من المجانين. لا ينطلى ذلك على أحد فى الواقع. لم يعد هنالك رجل واحد يعتقد فى جدوى شئ من هذا. فضلاً عن أن الجميع يعلم ما ينتظره فى الخارج. تنتابنا رغبة فى الصراخ: "أليس فى راحة الجميع أن نترك الصف ونطلق على أنفسنا الرصاص". يسلم الرقيب، حكمدارنا هذا الأسبوع، يسلم الضابط بعض الأوراق، وهذا يسلمها إلى القائد الذى يبسطها ويوقعها بقلم حبر دون أن ينظر إليها. ينتظر رقيب السرية الأولى نافذ الصبر. اتحمل "النمام" على الهامش؟ هل تذكر الرقيب موضوع الزيت؟ لكن القائد يلقي عليها نظرة ثم يحفظها فى صدره ويشكر زميله. ثم يقترب من المتاريس وينظر بمنظار الميدان فى إصرار، دون أن يشرذ لحظة. لون الآكام البعيدة الأبيض يستحيل ذهباً. ثمة وحشة وصمت غريبان.

ربما فى انحدار تلك السهول يركض نبض الموت الجليدى، الذى سيتفجر فى صفير وخوار ريح الشمال ما إن يتركوا الموقع. يراود بعض الضباط المحبطين -الفاشليين- شعور بالتعاسة ليقينهم من أنهم سيموتون من أجل حفنة نقود شهرية، وبالغيرة إزاء ميتة الجندى النزيهة والرومانسية. يعاود المدفع الرشاش فى تلك الزاوية إطلاق النار. وينتاب الجميع عصاب خفى. تأخر الوقت. لم يتبق من الضوء سوى ساعة ونصف الساعة.

الجنود، غير مكترئين، ينتظرون مرتفقين بنادقهم. ويهشون الذباب على أنوفهم وعيونهم بالمرق. الأربطة تضغط الرئتين، ومع التنفس تكشف صدورنا لتجنب شخيراً عنيداً أشبه بكبير قديم.

— عريف البيارق!

يرفع العريف رأسه الصغير والضارب إلى الخضرة وسط أحماله، ويرفع يده نحو الكتف الأخرى.

— أبلغ الملازم "إسرنّا" أن يعطوا الإشارة!

ويأتى هو بإشارة إلى أقدم النقباء، ويحتل الضباط أماكنهم. صمت جديد. يسمع وقع أقدام الخيل على الأرض. للمساء الآن لون العسل، وفى النسيان اللحظى لكل شئ -نسيان شديد العذوبة، شديد اليسر، غائر فى تناغم السماء، الهواء، الضمير النقى- هنالك حنين إلى صوت جلاجل الريف الإسباني. وربما يسمعه بعض الجنود فى عمق هذه اللامبالاة الدرامية التى هي تعب؛ بيد أنه ليس تعب ثلاث ليال مسهدة أو ثلاثة شهور تقريباً بلا ماء؛ بل تعب ألفى عام من الظلم.

يشرئب النقيب فوق كاحليه، ورسغاه ملتصقان بفخذه:

— انتباه...!

ليس حفيفاً جافاً أو حاداً. بل احتكاك ملابس وجر أقدام طويل ومتغير. يصطفون. وتنتصب قاماتهم. بغتة، يخرج رأسٌ عن الصف ويخر

جندى على الأرض فى بطاء إلى الأمام دون ثنى ركبتيه. تصدر جبهته لحظة اصطدامها بالأرض دويًا هائلًا، حادًا ورخوًا. يأمر النقيب من مكانه :
- أخلوه، فكوا أحزمته وليلحق بالسرية الثالثة، مع الجرحى، حين يأتى
"القول".

ثم يقول لضابط الصف :

- يجب أن يدرج فى قيد المصابين وأن ينتظر توجية الاتهام إليه !

فى الداخل، يسمع دوى طلقة "سر الليل". وفى الحال، تقصف بطاريات أنوال المواقع الخطرة بدقة كبيرة. تخرج دورية متقدمة، قطاعان ينتشران إلى اليمين وإلى اليسار. يركض الجنود مرة أخرى، يقهرون ضعفهم، حفيف الأربطة والأسرجة يذكر بجياد حلبات المصارعة. ومدافعنا تطلق قذائفها أيضاً قريبة منهم، وبعد عدة قذائف ترى أشباح تتحرك وتريد المدافع الرشاشة أن تحصدها. يدنو حكمدار المؤن من رقيبنا ويسحبه من يده خارج الموقع، فى المتاهة التى تبتعد عن باب الجحيم. يقول فى إصرار:

- شكراً لك يا صديقى ! لو قال القائد شيئاً سادفح أنا ثمن الزيت.

مازالوا يخرجون. فيما يجاوزون الأسلاك، دون توقف، ينظمون خدمة الحماية، وفى طليعتها قطاع الشرطة المغربى. والشعور الحقيقى بالأمان لا تخلفه القنابل اليدوية التى يحملونها بقدر ما تخلفه مسألة أن كل هذا الصخب المروع يصدره رجالنا. بعد مرور آخر جندى يسد سور السلك من جديد. خرج ما يقرب من ثلاثمائة رجل. وبقينا خوالى الثلاثمائة. ويسير الطابور الصغير بلا عائق، بخطو نشط، متعجل.

جهة اليمين، يرى بيانثى الأرض تفور فى فقاعات كبيرة تحت قصف

المدفعية . وخلفها، فى السهل، يظهر ركب من فرسان صغار الحجم كدمى من رصاص . لا تبلغهم نيران الرشاشات، لكنهم فى أنوال راوهم فتطلق المدفعية السريعة والفاعلة والرشيقة دفعة من القذائف . بين السحب البيضاء، تسير الخيل فى خط ملتو، تجمع وتنكص على قدميها الخلفيتين . أعلى الفرسان، لا تزال تتفتح سحب قطنية فى دفعات من أربع . والقذائف الجديدة تمزق السحب السابقة . والآن، يطلق مدفعاً الموقع نيرانهما ويد كان الخنادق التى كانوا ينتظروننا فيها هذا الصباح . قذائف غائرة ورخوة، كأنما المدفع دفن فى حجرة من القطن . على ارتفاع متر عن الأرض، فوق الأخاديد التى تكشف عن الخنادق، فرقعتان واضحتان، حادثتان .

ضوء المساء يخبو وتتيح الانفجارات رؤية النيران، الأشد بياضاً من الدخان، كأن القنابل متخمة بالفضة أو بشظايا من الزجاج . لم يزل الطابور يهبط ولا جديد، يبدو أنه يتقدم كثيراً، لكن السهل اللانهائى يحوطهم ويضمهم ويطويهم على نحو تدريجى فى تهديد صريح . الصخب شديد، بيد أن الطبيعة لا تفقد وداعتها الملوقة .

ينظر بيانثى إلى الطابور . الآن، ينتشر قطاع آخر إلى الخلف، والجناحان يخرجان السونكى . "آه، الأوغادا يتسللون وسط طلقات الرشاشات" . ينتشرون فى سرعة وبوثبات كبيرة . يتعثر أحدهم، يسقط على وجهه، يعاود النهوض، يسقط من جديد، على جانبه هذه المرة، كأنما يود أن يشق بكتفه ثقباً فى الأرض . إنه خارج الطريق، فى مجموعة الالتحام؛ يدنو منه عريف ويفك حزامه ويخلعه ويحمل بندقيته وينضم إلى مجموعة الالتحام . يواصل الطابور تقدمه . تسقط القنابل الآن بالقرب من الطريق . ينهض الجريح وعبثاً يحاول اللحاق برفاقه . ولولا دوى القنابل لسمع وهو يصرخ :

— أيها العريف ! بوسعى السير، إنها إصابة طفيفة .

لكن الطابور يبتعد ويظل الجريح إلى الوراء تدريجياً. في المتاريس ثمة إحساس بضيق ثقيل. يتذكر بيانثي ذلك اليوم الذي سقط فيه فاقد النفس في تقهقر بالخطوة السريعة. وكان القائد حينذاك هو العقيد:

— اسمح لي ياسيدى! أبوسعى أن أطلق النار على جندى من السرية الثانية لا يستطيع اللحاق بنا؟ لو تركناه هناك سيمثل به المغاربة. فقطعه العقيد غاضباً:

— حين لا نجد وسيلة أخرى. لكن جوادى مازال موجوداً. فليحضروه إلى هنا.

لكن ذلك العقيد كان معروفاً بين القادة بشاعريته، بفتور روحه العسكرية. الآن يعاود الجندى السقوط من جديد. تتسارع النيران إلى يمين الطابور وخلفه. تتدافع الأرض إلى جانب الجريح وتنفجر في الهواء قنبلتان، واحدة إثر الأخرى.

لا يرى بيانثي الجريح مرة أخرى. لكن، إلى الخلف قليلاً، حول الطابور، يبدأ "نقر" الطلقات. ينطلق وابل حقيقى من مكن ما لم تكتشفه بطاريات أنوال. ومدافعنا تقصف الآن أكمة صغيرة على الجانب الآخر من الطريق. تخف نيران البنادق، لكن الطابور ترك وراءه أربعة جنود آخرين في الطريق. يتسمر بيانثي بغتة:

— ونحن؟ ونحن؟

منذ حضوره إلى المغرب يفقد بيانثي ثقته في القادة للمرة الأولى. شهد فشل الجنرال S مرتين. لدى المغاربة وفرة من الخيل ومدافع رشاشة جيدة وقنابل يدوية أفضل مما لدينا لأن بها على الأقل كيلو جراماً ونصف الكيلو جرام من المسامير والشظايا التي يلتقطونها في ميدان المعركة. والوضع لم يعد كما كان. كل شئ يهن ويفشل. أمس أسقطوا طائرة وطافوا بالطيار ميتاً ومرشوقاً في عصا. يخفق الجنرال S في طلب قوات

إضافية. يقول البعض إن مرد ذلك تورط الجنرال فى التقدم من تلقاء نفسه ودون إذن من المفوض: ويقول آخرون إنهم لكى يرسلوا تعزيزات لا محيد عن مجئ كتائب من إسبانيا والحكومة لا تريد سماع أى شئ عن إرسال قوات بالبحر. ويقولون أيضاً إن المفوض يغار من الجنرال ويترقب فشله. يستوى الأمر.

وصل الطابور هناك، حتى منتصف الطريق. واشتد دوى القنابل. يصيب السعار مدفعى الموقع فيطلقان نيرانهما بلا هوادة، بلا تلك التوقيفات الواجبة لالتقاط الأنفاس خشية أن تختنق المدافع وتنفجر. تهتز المتاريس. نفتح أفواهنا لا إرادياً لتسهيل إخراج الدوى. ألوية الغربان الأولى تغادر جروف أنوال تلبية لنداء المدافع وتنتشر على الأرض وتؤلف مجموعة قوات خاصة. ربما أمست خبيرة بالخدمة العسكرية من فرط أكلها لحم الجنود. أعلى كل واحد من أعمدة الهاتف ثمة واحد منها. وجميعها سمين، متألق، يصرخ صرخات تخمة، كأنه يتجشأ. عدد طابورى الجناحين انخفض إلى أربعة جنود أو خمسة. من سقط من قبل لن يرقد وحده.

الضوء الآن كاب والانفجارات، الحمراء تقريباً، تُرى على نحو أفضل. وعذوبة الطبيعة ظاهر مخاتل. لأن الأفق، جهة اليسار، يحتشد بظلال زرقاء؛ وفي الرحابة المقفرة تستطلع القنابل الصمت وتتحقق مدى لا نهائيته الدرامية. من جديد يرتفع عدد أفراد مجموعتى الالتحام بالجناحين، ومن جديد يسحقونهم. وما هم الآن إلا نقاط سوداء متضائلة، نمل. انخفض عددهم كثيراً، نحو النصف. قائد الموقع يمر إلى جانب المتاريس حاملاً منظار الميدان فى يده، يقول للنقيب:

— كان عليهم أن ينتشروا جميعاً ويقاوموا. وبمساعدة خيالة أنوال كان بوسعهم النجاة. فقد الجنرال اتزانه ويعتقد أن كل ما يأمر به لا بد أن ينجح. يأتى النقيب بإيماء كأنه يشاركه السر ولا يريد أن يفرط فى الكلام.

بعيد ذلك، يصمت مدفعانا. من قبل كنا ينطلقان على فترات متباعدة. لا جدوى: تُستنفذ الطلقات بلا داع وقد لا تكفى للدفاع عن الموقع نفسه. جن الليل، والطابور لم يعد يرى، وقذائف أنوال باتت نادرة وعشوائية. فى المعسكر، يخف الظلام قليلاً وما زالت الرؤية واضحة لأن الضوء الأخير لم يزل ناشباً فى قماش الخيام وفى الأرض الجيرية. وكلما تباعدت قذائف المدفعية أمكن تمييز صوت طلقات البنادق. ليس كثيفاً كما كان متوقعاً. ربما ثمة التحام بالسونكى. وأصوات "الغيار" تبعث الحياة فى هذا المحصن من الأسلاك وأكياس الرمل.

ينتهى الكون بالمتاريس. والليل يلف كل شئ فى قطن أسود، فى برودة متوترة، فى سواد موحش وغائر. تم تنفيذ "الغيار"، كما حدث من قبل كثيراً. أولاً، فوضى من سيرحلون؛ ثم نفس الفوضى. فيمن يأتون. ومع نوبة الرجوع، كل شئ فى ظاهره المعتاد، فى ضرب من ضروب ذلك النظام البدائى والمهلهل لمتسولين. ثمة حديث هنا وهناك. يقول أحدهم وهو يبسط البطانية على الأرض:

— أتسال ماذا نفعل ؟ ندافع عن إسبانيا.

السرية الرابعة أتمت اتخاذ أماكنها داخل الخيام والجنود يتجولون بالموقع. هنالك دائماً ما يثير الفضول. والظلال وأدت الطابور فى الميدان. إنه حدث بعيد وخارج عن واقعنا، فيبدو أن الطابور تحرك منذ عام وأن الطلقات الآتية من الخارج طلقات عيد أو زفاف أحد الوطنيين أو شهر رمضان.

جندى وحيد، فوق "أكورديون" سراويله الذى لا يصدق، يدنو من ملجأ أفراد المدفعية. فى الأرض، رشقوا زجاجات جعة فارغة من أعناقها،

وصنعوا من قيعانها المقلوبة على مستوى الأرض فسيفساء مليحة على شكل شعار المدفعية ورقم الفرقة . بحركة ساقبه المنتظمة ورأسه المنكس يلتفت إلى تلك الرسوم مغرقاً في شروده :

— عمل متقن كهذا لن تجده في المدينة أو في أعروى أو قنداسة . وما تلك ؟ دجاجة ؟

يُرى نسر يتحرك . يضحك أحد أفراد المدفعية ويريه إياه في يده :
— ببغاء ؟

يعاود الضحك ويبتعد جندي المشاة في ضيق . إطلاق النار الآن أكثر حدة . جهة مؤخرة الموقع يجلس ما يربو على العشرين جندياً خلف المتاريس . وتستلقي مجموعة منهم على أكياس الرمل وقوفاً نحو الخارج ، ويحذر جندي من إقليم أشتوريس :

— ناحية هناك ليس ثمة سوى مغاربة متوحشين . إذا حانت لحظة الفرار ، من أين تذهب ؟ ... كلا يارجل ، من هناك ستلقى بنفسك في الجزر . يجب أن نتعلم دائماً من أين الفرار . من هناك ، إلى دراوشة . على أن تشرق الشمس دائماً عن يمينك وتغرب عن شمالك . إذا سرت على هذا المنوال ستصل رأساً إلى حانة "اللحن الثنائي" ، في مليلة .

يضحكون جميعاً . يقول أحدهم :

— بنات طبيبات في "اللحن الثنائي" .

يصمتون . يمر الطبيب يرافقه جندي ومعه دفتر الفحص . إلى أعلى ، السماء ، بلونها الخبازي القاتم ، تضيئ موجة بيضاء من السحب ، فتبرز لونها الداكن . لا أحد يعلم من أين يصدر ذلك الضوء الشمسي الساطع المنعكس على أعلى الخيمة .

تسترد اللحظة عذوبتها ، السكون ، النسيم العليل . مازالت بطاريات أنوال تهدر ، وإن يكن على فترات متباعدة . لا أحد يفهم جيداً سلام

المتاريس الفجائي. أحد ما يناقش فرد مدفعية:
- لا تساوى المدافع شيئاً. صخب كبير، نيران كثيرة: لكنهم
يصيبونك أيضاً.

- لا بد أن رأسك شديد الحمق إن كنت لا تفهم - يرد فرد المدفعية فى
إصرار-: لولانا نحن لما تمكنت من المجئ إلى هنا. وهذا ما سيقوله لك
الجميع.

- حسن؛ ولكن، أتريد أن تقول لى أنت أى رغبة لى فى المجئ إلى هنا؟
يضحكون جميعاً. يقول جندى من إقليم ريوخا وهو يهز رأسه
ويضرب ركبته بيده:

- هذا الـ"بيكيراس" الملعون دائم المزاح!

ثم: موضوع الساعة:

- أعتقد أنهم بلغوا أنوال؟

- لا أنا ولا أحد، لأننا هنا، فى الخدمة العسكرية، لا علم لأحد بنا قط
بما سيحدث.

الكارثة لا تبلغ معنويات الجنود، بل تعتبر حالة عارضة تخص القيادة
بعد أن تمثلوا جميعاً الآلية الحربية. أو ربما أصابهم اليأس التام فلم يعودوا
يهتمون.

جندى ضئيل وضامر، ظل عاماً يسبب الدوار للأطباء بنغمة أنه لا
يستطيع أن يمد ذراعيه جيداً، يقول وهو يحاول دون جدوى أن يوثق زر
واقى الركبة:

- لا فى الخدمة العسكرية ولا فى الحياة يمكنك التيقن. لأننى كنت فى
هافانا، وربحت ألف بيزو فى اللوترية وأنفقتها على البنات ودخنت طيب
السيجار. لا نظير لذلك الزمن من حيث وفرة المال.

جماعة من إقليم جليقية تصمت وتنصت. يخرج أحدهم نائياً ويشعر

في عزف ألحان من بلده. وسالجادو، حارس المؤن، الشديد القذارة إلى حد .
أن السباح يجاوز سترته وسراويله المفكوكة -وبلا واق للساق- ووجهه
ويديه ويمتد حتى ظله نفسه، ينهض ويبدأ الرقص. وفي الحال ينهض آخر.
في جدية شديدة، لا تكاد الأذرع تنفصل عن جسديهما، ورأساهما إلى
أسفل، يتقدمان ويتقهقران، ويتشابكان وينفصلان، يتبعان المذهب
الرتيب. يقول بيكيراس:

- حتى في الرقص يظهر حمقكما. ترفعان قدماً ثم الأخرى، كأن أحداً
ينكأ جراحكما، ولا شيء أكثر.
يرد سالجادو:

- صه، فلست جليقياً، لقد اضبطوا إلى إحضار ثمانى فرق موسيقية
كي تتعلم كيف تتبع الإيقاع.

- من يقل إن الجليقيين إسبان أقل إنه يكذب!
تشكاثف النيران هناك، إلى اليسار. بعض الجنود يلتفتون برؤوسهم:
- اللعنة، كم يعدبونهم!

تستمر الموسيقى. الإحساس الذاتى بالخطر يخفف من الشعور بالرافة
لحال الآخرين. يقولون إن الشفقة هي خوف من التعرض لنفس المحنة، ولكن
حين ندرك اقترابنا منها تخف الشفقة كثيراً أو تنمحى. جنود آخرون
حاضرون مع الجرحى. وجد أحدهم جندياً من قريته. الجرحى والمرضى
مستلقون على الأرض، تغطيهم بطانية. مع دوى المدفعية سقط غبار من
السقف فوق الضمادات والوجوه المتصببة عرقاً. يرتدون قبعاتهم جميعاً
فيما عدا جريحاً مصاباً في رأسه يحملها مطوية ومعلقة في حزام خاصرته،
فما أسهل فقدانها وهي غالية الثمن. بعيداً، ينادى عسكري مغربي نفسه
بلغته، عيناه مغمضتان، وأنفه ملتصق بالحائط. يقول أحدهم:
- القذارة تقضى علينا.

فى الظلام، يسمع البواق وهو يجرب وضع بوقه على فمه وفى الحال تسمع نوبة الجمع. الأحراس إلى المتاريس. يجب أن يحلوا محل خفرة المساء. فى الظلمة، يحتشدون أمام الخيام، يخرجون بأحزمتهم وينادقهم:

— هيا، فى نشاط!

ألا يراجعون القائمة؟ كم جندياً ينضم إلى هذه الخفرة؟ كل السرية. يتحركون فى طابور من "قطارين" ويلفون حول الموقع ليغيروا الخفريات. يختفى الطابور ليظهر بعد قليل من الجهة الأخرى ليضم من انتهت نوبة حراستهم. أحد ما يحتج:

— ليست هذه ساعة لإعلان نوبة الجمع!

من بين أفراد الخفرة الأولى لم يبق إلا الحرس فقط، الثلاثون الأوائل، ومن بينهم بيانثى الذى يظل فى موقعه. الليلة حالكة السواد؛ لكن طلوع القمر وشيك. بنات آوى لا تاتى، فزعتها. طلقات المدافع. بعيداً، تسمع طلقات متفرقة تسكن شيئاً فشيئاً إلى أن يسود الصمت. لو أن القمر طلع قبل مواعده بساعة لنجا نصفهم؛ لكنهم الآن سيضطادونهم كالجردان. لا أحد يعرف من أين يخرج كل هؤلاء المغاربة. بطاريات المدفعية تُصمت الآن تماماً.

يستشعر بيانثى رهبة لاعتبارات مبهمة. لو أمكن رؤيته لصار الميدان عرضاً رهيباً. فالخيالة المغربية تطارد الآن بلا ريب القلول الهاربة وتقتنصهم بحد الخنجر أو السيف. من ستكتب له النجاة قد يبلغ بمعجزة الأسلاك الشائكة فى أنوال. وكل شئ، تجت السماء المنجومة وغير المكترثة، بعيداً، غائباً حتى عن ذكرى الأحبة، يحمل على التفكير فى أن ثمة خطأ وأن هنالك مسؤولاً مباشراً عنه. أين؟ من؟ يتقدم الليل. أى خفريات هذه التى

لا تنتهى أبداً؟ تسمع طلقات بعيدة، متفرقة، وصخب مغربى. بعد ذلك،
طلقات قريبة. والنسيم، الذى يشتد هبوبة الآن، أو فار حركاً شيئاً فى
مقلب النفايات، على الجانب الآخر من السلك الشائك. وروح الليل ينبض
فى تلك الأصوات الخافتة والشديدة الإيحاء والوعرة التأويل على جندى
الحراسة. من الفضاءات المفتوحة تدخل الريح الباردة، مداعبة. إلى جانب
أنف بيانثي، معلقاً فى جلد السقف، يتدلى نوع من العطاءات من إحدى
رجليه. حرباء. بيانثي يمسك بها ويحيط ببطنها الناعمة فى حرص ويضعها
فوق خزانة طلقات؛ ثم يضعها بداخلها بعد أن يفرغها.

الهواء تشتد كثافته وتقبض وطاته على القلب. هبط الليل منذ ساعتين
وانتظم التنفس على ذلك الهم. هنالك رياء عظيم فى السلام المحيط،
الأنكى ألف مرة من القتال الصريح والمكشوف. وقع خطوات إلى جانب
المتاريس. يعاود النظر إلى الداخل. ظل مديد، ضامر، كتفاه ناتعتان ترتفع
فيما بينهما جمجمة عارية بلون العاج بمحجرين كبيرين مفرغين. يشير
بيانثي بذراعه متصلبة، يرتعد. يقول بغريزته:

— تمام يا أفندم!

— حذار، لن ننام الآن!

إنه العريف فيدل، الذى يغشق الخروج ليلاً ويلف منشقة حول رقبتة
وراسه.

من قاع الليل، تسمع مع ذلك أنات إنسانية قريبة، خافتة، مكتومة
طوعاً. يسأل بيانثي:

— هيه، من هناك؟

— لا تطلقوا النار، أيها الرفاق! أهذا أنوال؟

- من هناك؟
- النجدة! أهذا أنوال؟
- حكمدار الخفرة!
- يتأخر الحكمدار. يعتقد الجندى أنه أهمل ويصرخ:
- بحق أمهاتكم، أيها الرفاق، أنا من السرية الأولى من الكتيبة الثالثة من ثيرينيو لا. أصبت بعيارين. وكسروا ساقى. أهنا أنوال؟
- كلا، هذا R.
- الآن يجيب الحكمدار. يثن الجريح، يطلق لعنة. لا يرى شيء. ظلال كثيفة فوق أخرى شفيفة، ظل شبكة، سلك شائك. يطل ضابط:
- ماذا هنالك؟
- يردد الجريح مرة أخرى:
- أصبت بعيارين. أنا من السرية الأولى التى حللت محلها. أو ليس هذا أنوال؟ آه، بحق القربان المقدس! لو أن هذا ليس أنوال فإن يد الله تخلت عنا.
- هل وصل "الغيار" أنوال؟
- كيف عساه أن يصل؟ ألم تروه؟ أنا أفضل من نجا حالاً.
- ينبه الضابط:
- أيها الصبى، تتحدث إلى الملازم المعاون.
- تمام! ولكنه لم يصل ياسيدى. لقد مات القائد و...
- حسن، حسن. لا أريد معرفة المزيد. أملك البندقية؟
- أحضرت معي ثلاثاً!
- أدبت واجبك. اخلع ذراع الإغلاق واقذفها إلى هنا. حاول أن تسقطها داخل الحصن.
- يحمل هذا الأمر فى طياته يقيناً من أن المغاربة سيصلون فيما بعد حتى

السلك الشائك نفسه وربما استولوا على هذه البنادق واستخدموها ضدهم. وهو ما يعنى الحكم بالإعدام على هذا الجندى الجريح. يغمغم بيائشي بتهديدات بلا معنى ضد خسة الضابط. "أثمة كمين وسيطلقون علينا الرصاص إذا خرجنا؟ فى عتمة هذه الليلة ليس من السهل أن يقتلوا عدداً كبيراً، وحتى إن فعلوا، بما أن السلك سيكون مفتوحاً بوسعنا العودة إلى الموقع من جديد".

يفكر الجندى هنيهة، ثم يتوسل بنبرة بدلها الرعب:
- سيدى الملازم؛ قد لا يعنى ذلك شيئاً، لكننى سأتّم فترة تجنيدى بعد ثلاثة شهور.

- وما علاقة ذلك؟

- إذا عولجت بوسعى النجاة، يا سيدى الملازم!
صمت. ثم يضيف وهو يعجر كلماته كأنما يع صوته:

- لا أستحق الموت ككلب، يا سيدى الملازم.

- أمتنعك من مواصلة الحديث!

يغير الجريح نبرة صوته:

- تمام يا سيدى!

يطل القمر. يسقط فوق الميدان ضوء شبحى، بلون القصدير. والجريح، الملقى على الأرض، يعجر ساقاً مكسورة، كأنها خرقة، ويمسك بأوتاد السور. كيف سيتمكن من القفز إذا كان قوام عرضه أربعة أمتار من السلك الشائك المتشابك؟ وحين يدرك أن الضوء كشفه يحاول الإلحاح بصبر نافذ من الرعب، بين يائس ومهين:

- يا سيدى...!

طلقات قريبة. يصمت الجندى ويلتصق بالأرض. بعد فترة من الصمت، يردف بصوت خفيض:

– ها هي البنادق! في إحداها ربطت ميدالية هويتى لكى ترسلوها إلى ضابط الصف، ليكتب إلى أهل منزلى، بعد إذنك.

مات ضابط الصف، هناك أسفل؛ لكن الجريح لا يتذكر. يتورأى الملازم خلف المتاريس ليتجنب أن تطيح ذراع الإغلاق برأسه. تسقط الأولى بالقرب من السرية الطبية، وأخرى فوق الدورية أثناء مرورها، والثالثة، خارج الموقع. بعد ذلك، يريح الجريح رأسه على الأرض لتغطيه النمايات والقشور والبراز الجاف؛ والميدالية المصنوعة من الألومنيوم، بحجم عملة الخمسة سنتيمات، سقطت مع أول ذراع إغلاق. يقرؤها الملازم: "ت/ 7241". يسجلها في دفتر الجيب ثم يلقيها. كانت مربوطة فى شريط سوده العرق.

أفوال - الكارثة

فى اللئل؁ ٱٱءء موءع R مظهرأ مبهمأ. لا أءء يعرف موءعأ ءءى ٱالف ءبءارءه؁ أركانه. وكفت بضعة ألام كى ءءرع العلنان بكمل ءامء فى R؁ أى بما هو أشء ءياة. له بلاغة مءبطة وٱنبغى الإنصاء لها زمناً طوطلا ءءى لا لءء لها؁ فى اللئل؁ نبراء ءرلبة؁ نءسة. ٱعكس القمر بلاءاً ضاربأ إلى الزرقة؁ والملءان؁ لشءة ءباىن ظلاله؁ ٱبءو أرضاً ٱغطلها الزءبق. الهواء رطب؁ رطوبة نهر؁ ضفة؁ لا بءر.

ءراس ٱراقبون؁ ءراس المءافع الرشاءة؁ وٱءلاؤهم ءلوس وراء المءارلس؁ مسءلقلون. ءوالى ءلاءلن قناصأ فى النوبة ٱرقءون بملالس الملءان فى سباء مءموم. ءلاءة ألام من الظما ءءائق؁ بلا مؤن؁ بلا ءءاء. لا ٱوءء ماء؁ وٱعلنون ءلك فى ءءرلء وءمق كالحكم بالإنءءام. أءلك اعءراض؟ ءءا فى ءلابة المءنية. فى العسكرىة؁ قبل أن ءعءرض على أى شئ علىك بالطاعة. مء أولاً ءم قءم ءقرلراً "مكءوبأ" واءءلج. والمؤن...؁ بقى شئ منها لكى؁ من الغباء بلع أشلاء ءافة مرة وأءرى. الماء؁ الماء؁ الماء. فى ءلابة ٱسءوى الأكل وعءمه؁ النوم والسهاد. مضء ءلاءة ألام منذ أن وزعوا أءر ءصة منه. وكلما شربنا ءصبلنا عرقأ بءلء لا ءءبقى قطرة فى المءءة. ومع ءلك؁ كانت مءعة قصلرة؁ إءساسأ بالرطوبة فى ءلق والءلء معأ. من الوم نشرب بولأ. ولا ٱرلء بلاءل أن ٱءربه. ٱهءى وٱنءقلءه بىن ساقله ورأسه إلى ءلف.

فى أنوال ٱسمع أءلانا ءوى البءاءق ءءاء. والموءع فى ءالة ءاهب ءائم

اعتادها الجميع الآن . فى منطقة المنخفض ، رغم بعدها عن حماية المدفعية ، لا أحد يلزم الحذر ، فقمم السلك بالأسنان هناك مستحيل ، على من يريد عبوره أن يكون معلقاً من حبل . لذا فإن الخطر الحقيقى يتمثل فى الجناحين والمنطقة المطللة على أنوال ، خاصة هذه ، التى تعترضها الخنادق . يتأخرون فى البدء هذه الليلة . مضت عشرة أيام أو اثنا عشر منذ أن حوصرنا وقضى العرب على "قول" قادم من أنوال لم يجاوز فى سيره منتصف الطريق .

الشرطة الوطنية تحتل قطاعها المحدود ، تحت سقيفة صغيرة . تحدث القائد إليهم هذا المساء . كل من يحاول الخروج من الموقع بأسلحة أو بدونها سيلقى حتفه رمياً بالرصاص ، وفى المقابل ، من يبق منهم ويدافع عن الموقع يحصل على جائزة لأنه ، على أية حال ، سيأتى "قول" فى وقت قريب ، وبالطبع ، سنضرب بيد من حديد على أيدي المتمردين . ويعتقد بيانثي أن هذه الكلمات يمكن أن يكون لها أثر محفز فقط لو صاحبها برميل ماء .

ثلاثة أيام دون تذوقه . برميل الزيت كان به على الأقل عشرون لتراً أفادت فى الاحتفاظ بمائتى رجل على حافة الهذيان خلال أربع وعشرين ساعة .

لا أحد ينام . والظما يسبب خمولاً متزعجاً بالرؤى . لكن ، حتى الآن ، تتلخص العقبة الكأداء فى الوطنيين الحائرى القوى من شدة الظما واليأس ، وهو الانكى . عدم وجود الماء والهجوم الذى ينبغى صده ليل نهار عند المتاريس ، كل شئ يتراجع إزاء الخوف من الوطنيين ، فمن بين المتمردين الذين يشنون الهجمات هنالك العديد من العساكر المغاربة الذين خرجوا من المعسكر فى أيام سابقة وارتدوا ضدنا وهم فى طريقهم إلى أنوال . اقترح البعض قتلهم ، وبعض آخر طردهم من الموقع بعد تجريدهم من السلاح . وهم خاضعون لمراقبة حذرة . والعريف "مختار" يبدو متفائلاً غير أنهم لا يكادون يطيعونه ، لكن المدافع الرشاشة متأهبة لإطلاق شحنتها على الفارين . مات ثلاثة جرحى ، من بينهم مغربى ، وحل محلهم جنود آخرون حتى امتلأ

الملجأ وخيمة أخرى. والطبيب يذهب ويعجى بعد أن نفذ القطن والشاش أيضاً، في يده بندقية وجيوب سترته الأنيقة ممتلئة بأمشاط الذخيرة. يتحدث إلى الضباط تحدوه رغبة في المزاح:

— أى مستقبل متالق ينتظر المرء حتى أنوال!

لكنها مزحة مبتورة ومحيرة. في حفرة كبيرة دفنوا ستة عشر قتيلاً وثمة ثلاثة آخرون وجوههم إلى السماء في الموضع الذى كان من قبل مقر الحرس. بعض الجنود، قبل أن يتمددوا، يشقون بالسونكى حفرة صغيرة حتى يصلوا إلى الرمل البارد، ويرقدون هناك وخدودهم لصق الأرض. يبدوون كأنما يحفرون لحودهم.

يقبل الليل ملتبساً. ثمة وفرة من ذخيرة البنادق، ليس بنفس وفرة ذخيرة المدفعية. بقيت سبعون طلقة للمدفعين. و"الأرتال" لا تستطيع المجسء؛ القائد يغدو ويروح متجهماً. لا يكاد يخرج نهاراً، يحتسى من الشمس لعدم وجود الماء ثم يخرج ليلاً مع رطوبة الطقس. وربما أيضاً حتى لا يقرأ الجنود في وجهه الخمود والياس.

انضم بيانثي إلى جماعة ترقد جهة المنخفض، فالجانب الآخر معرض للإصابة بقنبلة يدوية: معلبات مبطنة بسلك ومحشوة بالمسامير وشظايا الفولاذ لها طنين الزنابير. يغطون هناك في نومهم الثقيل والخفيف، والوعى ألهبه الظما، اليأس؛ أفواههم شبه مفتوحة، الشفاه تشققت كلحاء الشجر. يطلق أحدهم كلمات غير مفهومة بعد أن بح صوته ولأنه لا يتمكن من إخراج الأصوات. وجميعهم، الخد الأيمن متورم واللثة تنزف دماً.

وبيانثي، فى أشد حالاته ضموراً، بلحيته المتسخة التى تختلط فيها شعيرات نحاسية اللون بأخرى سوداء، تسلخ خده كأن به التهاباً. فرجع البندقية والذبشك الملتصق بخده، فى غير ثبات تدريجياً على الكتف بحكم العادة أو التعجل، أدمى لثته وأصاب خده الأيمن بالكدوم، من

موضع العين حتى الرقبة. والبنادق إلى جانبه وخزائنها مفتوحة. يطلق أوتاثو لعناته ويده داخل صدره، واقفاً وسط من يستريحون، ويردف ناظراً إليهم شزراً :

— تنامون كالخنازير، اللعنة! لكن لو أنكم تربون القمل كما أفعل أنا منذ أن جئت هذا الموقع القذر، ستتمكنون من النوم جيداً! على مسافة أبعد، الأرض غير المستوية التي دفن تحتها أول خمسة عشر قتيلاً والفوهة السوداء للملجأ الحراسة حيث ترقد جثث أخرى. والذهاب إلى ملجأ الحراسة في R أخطر منه في المعسكر، لأنهم إذ يحملون المصابين يخلفون وراءهم سيلاً من الدم على الطريق. سقط عدد من أصدقاء بيانثي: ذلك الذي كان يريد أن يصبح جندياً نظامياً لأن النظاميين يتلقون 2.50 بزيئة يومياً ويرتدون وشاحاً أزرق. والاشتورى الذي كان يسدى النصائح من أجل لحظات الفرار؛ والاندلسي الذي كان يتذكر دائماً واجهة محل مأكولات رآها في مليلة، وجليقي من أشد جنود الفرقة حنيناً إلى الوطن كان دائماً ما يسأل :

— متى نسجل أسماءنا لتصاريح العودة إلى الوطن ؟ وأيضا جندي مدفعية مستجد وفتيان صموتان لا يتحدثان قط إلى أحد أو يطلبان سيجارة، ويحملان دائماً صحيفة في خزائن الطلقات. الآخرون من السرية الأخرى ولا يعرفهم الجندي "أوتاثو". والأمر سواء. فجندى يساوى آخر، وآخر. ثمانية أو عشرة يرقدون تحت التراب وثمة ثلاثة "في الحبس" سيوارونهم التراب حين يزداد العدد. لن تدخل السرية الخدمة إلا بعد منتصف الليل، والمغاربة يبدو أنهم ينتظرون حتى ذلك الحين. هذه السرية كانت نحسة دائماً. تحت القمر، يخرج جنديان من خيمة الجرحى جثة أخرى على نقالة.

بيانثي لا يستطيع النوم. همس الموقع الواهي يذكره، بالتداعي، بخير

الماء . وحين يفكر فى بيته فى القرية يحسد ذلك البؤس وحامل جرة الماء يقطر ماءً والذن الذى تغنى القطرات المنزلة منه عند إخراج دورق ماء . لا يتخيل لم رحل والقرية تنعم بذلك القدر من الينابيع ؟ ثم أيام الصقيع تلك التى كانت تملأ الطرق والشوارع بالبرك عند الذوبان . و "إبريق" ورششة الحدادة، بقطرات من شراب الأنيسون فى الصيف كيلا يسبب الماء التخممة ؟ كانت تلك عادة غريبة ولا بأس بها من عادات العجوز .

شئ هنالك فى الليل يطيل تلك الحقبة، يواصلها مخلفاً أحياناً انطباعاً معذباً وعذباً بالأمل . حينئذ كانت لدى بيانثي ثقة فى عدالة كانت تنبض وتحيا وراء كل أفعاله، كل أفكاره . عدل ناصع ووضاء مضمرة فى كافة الأشياء . وهذه الليلة كذلك، وراء كل شئ، ينبض إيمان بالعدل لا يشعر به مضمراً فى الأشياء أو الأفكار، بل هو موجود ولا ريب على الجانب الآخر من الظلمة، إيمان بعدل أسود، مهدد، صارم، أزلى، منتبه إلى كل شئ من مكمنه فى حشا الطبيعة .

الآن يرقد الجنود إلى جانبه . ذلك الذى هناك هو مارتين الريوخى (1) . أية ذاكرة ! مصاب بستة أعيرة، بل ستة جروح من طلقة واحدة . جاءته من جانب واخترقت ذراعيه وصدره . سوء حظ ! كان عريفاً مؤقتاً وكان سيؤدى الامتحان فى أى يوم . واللقنتي (2) . ذاك، المعلم الإسكافى الذى كان يجنى فى قريته، كما يقول، خمس عشرة أو ثمانى عشرة بزيتة يومياً . أكثر الفتيان رصانة فى السرية . لكن... تدوي طلقتان .

(١) من إقليم ريوخا الإسباني .

(٢) نسبة إلى لقنت، شرق إسبانيا .

ينضم الدعم إلى السرية ويبحث عن مواقع له. يجرى الحكمادات بأحمالهم. المدفع الرشاش يطلق مشطاً من الذخيرة. لقد أشعلوها. إذا قاومنا هذه الليلة فسيأتى غداً "قول"، هذا ما أكده الرقباء. ينتشر إطلاق النار، وهو أشد في الخارج. عواء الطلقات المرتدة يملأ الوقفات بين كل طلقة وأخرى. قماش الخيام مهترئ وتتدلى خرق في بعض الأجزاء. أى قوة انتشار رهيبة، فى قلب الليل، يندلع منها الآن كل هذا الدوي المغاربة يطلقون شحناتهم المكتومة، ودخان الطلقات وغبار الأكياس الرملية التى فجرتها الأعيرة يتوجان الساتر بالضباب.

يقترب ظل مخبول، يلقي ببندقيته بعيداً ويمر مهمهماً. بيانثي يسأل:
— إلى أين؟

— إليه! ماذا تنتظر هناك؟ سيدخلون، اللعنة: أصابوني بحجر. يشير إلى عنقه، قرب أذنه، ثم يتجه ناحية قطاع الشرطة الوطنية مهدداً بكلمات مبهمّة ويسقط على وجهه فوق الحجارة. يرى بيانثي بقعة الدم. يلتقط عريف البندقية ويضعها على سياج الخيمة. تطلق المدافع الرشاشة أعيرتها بلا توقف وكذلك مدفعاً الميدان اللذان يبدوان أربعة من جراء انفجارات القنابل القريبة. هجوم، هجوم! عدد من الحكمادات يخف إليهم. "انهضوا، ضعوا الأحزمة والمعدات، الديكم الأربع؟ أجل يا بيانثي". يتم كل شئ بالإشارة. لا أحد يسمع، وفى ذلك الصمت، فى تلك الطريقة الآلية للفهم ثمة وضوح جديد ومباغت. بعد أن اصطفوا فى قطارين غير متساويين، يحضر ضابط ورقيبان. جندي يبدو متردداً، وبندقيته فى يده. "إلى الصف!" والجندي ينضم إليه، لكن سرعان ما يأخذ منه أحد الحكمادات البندقية وينزع عنه أحزمته:

— أنت لا يا رجل. اذهب إلى الخيمة.

الجندي مصاب بعيار نارى.

بعد قليل يظهر ضابط آخر مع مجموعة من الجنود يوزعهم على قطاع الشرطة، فى أماكن تحكم. "يهاجمون". شظايا الطلقات تنفجر ضد الساتر حيث وزع قسم آخر من الجنود. بقية أفراد السرية الأخرى تجلس أسفل الساتر وسط التعزيزات، تنتظر. ماذا ينتظرون؟ من أمرهم بذلك؟ فى الخارج يطلقون أيضاً مدافع رشاشة. شائعة: قتلوا القائد. الحق أن طلقات الرشاشات فتحت ثغرة، ومدفعا الميدان يطلقان قذائفهما على هدف أقرب. مدافعنا الرشاشة تعمل بلا هوادة وفوارغ الأعيرة تقفز فى تواتر رنان يسمع بكل وضوح رغم الدوي.

يقتررب رقيب:

— ماذا دهاكم، أصبتم؟

— كلا.

— ماذا تفعلون إذن؟

ينهضون. من أمر بان يمحشوا هكذا؟ لا يتذكرون. بيانثي، بإيماءة معتادة، يطل ببندقيته من كيس رمل، يمزق غطاء علبة الطلقات ويتركها على الأرض، ينظر إلى الميدان وينتظر. حوالى منتصف الليل. يسمع خلفه:

— لم لا يأتى القصف من أنوال؟

لا أحد يقر باحتمال أن يكونوا احتلوا المعسكر فى هجوم أخير. مر أكثر من ساعتين دون أن تسمع المدفعية السريعة الطلقات. يقول بيانثي بصوت عال:

— ويقولون إن غداً سيأتى "قول"

يمر رقيب يردد بصوت خفيض:

— لا أحد فى الخندق الأول ، لا تصوبوا نحوه .

ولكنهم يتسللون من خندق فرعى عمودى ذى انحناءات طفيفة يصل حتى ذلك الخندق الأول . هذا ما يراه جيداً وراه جنود المدفعية الذين يطلقون الآن دفعات كثيفة . من أنوال يبدأ أخيراً قصف المدفعية . أول قنبلة يدوية ، قريبة جداً ، مزقت ثلاثة أمتار من السلك الشائك مخلفة أجزاء منه منفصلة ورنانة كإوتار قيثارة . والجنود ، مع ذلك ، ينتابهم شعور مريح ولحظى . تستأنف شحنات النيران فى الخنادق ، ويشعر بيانثي بصوت الأعيرة الخشن فى الأكياس الرملية ، وصفير تلك التى تمر عالية ، وبغثة صوت كصوت خرقة تتمزق قرب ماسورة البندقية . آه ، كم يجيدون التصويب !

شخص يعطى أمراً :

— السرية الثالثة ، ماذا تفعلون ؟ اجلسوا وانتظروا .

الذى إلى جانبه يبصق دماً . اللثة . ينظر بيانثي إلى وجهه . له تعبير روحانى ، قد يكون شديد الدرامية لولا أذناه الكبيرتان المنفصلتان عن الجمجمة . يومئ بالكلام لكن صوته لا يخرج . بيانثي يقترب . والآخر ، بصوت محتقن — فنفسه حارق ويخرج على دفعات جافة — ، يقبض على ذراعه :

— أيها الزميل ! شئ ما حدث هنا ؛ تذكر أنى قلت ذلك . شئ ما حدث هنا .

ثم يصمت . صدغه الأيمن محتقن . ثم يضيف مشيراً إلى البندقية التى يمسكها من رباطها حتى لا تحرقه :

— على هذا النحو ستذوب الماسورة كالشحم .

تطلق الرشاشات شحناتها فى غضب . يفكر : من أين لهم هذا الكم من الذخيرة ؟ طنان على الأقل من فوارغ الطلقات على الأرض . يأتى الآن

ضابط المدفعية مصطحباً في يده عريفاً. يقترب من الساتر ويقول للحراس وجنود التعزيزات والجالسين للراحة :
— من لديه رغبة فليبل هنا .

وهذا من أجل تبريد المواسير الاحتياطية للرشاشات . بيانثي يراقب الضابط . آه، كم تغير الرجل ! فهم يرون الآن في الجندي، ليس بشراً مثلهم فحسب، بل يفوقهم في قناعته واستهائته بالحياة . ضباط سريته، وخاصة رويث، يجيدون القتال . كلما أطل الطبيب من الساتر يطلق شحنتين . الجندي يحتفظ بهدوء أعصابه، تحت الصخب، تحت الليل المرعب، وينتظر في صبر الهدف كي يفيد من كل طلقة . لا يفكر في الماء لأنه غير موجود، ولا يثق في "قول" الغد . وحين تخترق رقبتة شحنة رشاش يقول إنهم أصابوه بضربة حجر، ويموت معتقداً أنه سقط لأنه تعثر . والضباط يعلمون ذلك، وفي هذه اللحظات يوحون بذلك في وضوح، في إعجاب صامت يرفضه بيانثي في داخله كقصعة في حلقة — الحلق القديم لمن يقرون له متأخراً بأنه على حق — . ما دامت هذه الحقيقة، لم راحوا يحطمونه معنوياً، ويحرمونه من حقه في الفكر، في إبداء الرأي ؟ لم اعتبروه في عداد الأشياء التي لزم جردها في كل تفتيش والتي تكون دائماً في متناول القدم ؟ آه، لتحفظنا العذراء، حين تصير هذه حال الضباط ! تلين عريكتهم عند الموت .

من أنوال يطلقون القذائف الآن ويصوبون على نحو أفضل ؛ لكن الانفجارات ترجف القلب ويبدو أنها ستخلعه من الصدر . بطاريات الموقع تصمت . والعساكر المغاربة ؟ معنا أو ضدنا، سواء . يعود الآن ضابط المدفعية ومعه الدلو مملوءاً . هذا الجزء من الساتر كان كافياً ؛ لكن الحكمدارات يعلمونهم بالا يبولوا على الأرض بل في الطبق أو الزمزية، وإذا كانوا خلف

الساتر فليطلبوا دلواً من المدفعية. من لا يلبي هذا الأمر سيعاقب. يجبر
الحكمدارات صناديق ذخيرة، يمحثون عند الساتر وأكوام من القنابل اليدوية
على مقربة منهم. مدفعية أنوال لم تزل تهدر. جنود السرية الثالثة ينهضون
ويعاودون تصويب بنادقهم. بعضهم كان تركها مصوبة. جنود السرية
الثانية يجلسون، يستلقون للنوم بجانب الساتر.

بيانثي يرى من جديد فوران الميدان نحو الخندق الثاني تحت انفجار
القنابل؛ لكن الخندق المستعرض لا يقصفونه، المدفع الرشاش لا يسيطر إلا
على جزء واحد فيوجه إليه شحناته ويصيب بلا ريب "لحماً" كثيراً. من
يفرون من القنابل يتقدمون بدل أن يتقهقروا. وانتهى بهم الأمر، على الرغم
من قصف الرشاشات إلى الاحتماء بالخندق الأول. وهم بلا شك يحضرون
للهجوم لأنهم لا يطلقون النار، يحاولون المرور غفلة فيما يتوزعون حول
الساتر. يلتقط أحد الضباط حجراً ويلقيه بقوة من فوق أكياس الرمل.
يسقط خلف الخندق الأول. وفي الحال توزع القنابل اليدوية. ستمنع
المدافع الرشاشة المغاربة من الانسحاب عن طريق الخندق المستعرض وإذا
خرجوا من الخنادق سيصطادهم الجنود بالبنادق. تبدأ الرشاشات في إطلاق
قذائفها من الخندق مكثفة نيرانها بحثاً عن فوهات مدافعنا. بإيماءات
كإيماءات الدُمنى ترتفع أذرع وتلقى بالقنابل اليدوية. يصمت الرشاش،
ويطلقون شحنات صوب الساتر. بغتة، يفتح النار. لكن مدافعنا لا تحيط إلا
بجزء واحد من هذه الجبهة، ومدافع أنوال، على الرغم من اقتراب قذائفها،
لا تبلغ بعد الخندق.

إحدى بطارياتنا تتخذ موقعها بصعوبة شديدة في الكوة التي خلفتها
القنابل اليدوية للمغاربة. إلى الخلف، خارج منحني الآكام القريبة، يرى
فرسان ومجموعات من المتمردين، غير مكترئين. أسراب الغربان التي تحلق
من حين إلى حين في تشاقل تكشف عن الأماكن التي تم القضاء فيها على

"القول"، وحيث قضى أيضاً على مسریتی "الغيار". يرى بيانثي بجانب السلك الشائك هيكل عظمى شبه مكتس بالجلد، له ساقان ضاربتان إلى السواد. إنه الجريح العائد يوم تغيير القوات والذي أجهز عليه المتمردون وجرده من ملابسه.

يحمل النسيم أحياناً روائح مثيرة للغثيان قادمة من السهل. حين تأتي من هناك تكون "صفعة حقيقية من الغائط"، كما يقول أوتاثو الذي يعتقد حقيقة أن العفونة مصدرها الموتى المغاربة. "لا يمكن لمسيحي أن يصدر مثل هذه العفونة".

ينظر بيانثي وذقنه ملتصق بأكياس الرمل:

— يا إلهي، يا إلهي! ماذا فعلنا كي يلقوا بنا في هذا الجحيم؟ لا أحد في إسبانيا يدرك ما يجري هنا. من حين لآخر تقول الصحف: "جنودنا يقضون نحبهم في أفريقيا"، لكي يثيروا ضيق الحكومة؛ لكن الشعب والوزراء اعتادوا الأمر. حسن، ثم ماذا؟ فذلك بعيد عنا، وهو على أية حال دفاع عن الوطن. اسمع، أنت، يا ولد: أتعلم ما الوطن؟

ينظر إليه بجانبه من عمق محجريه الضاربين إلى الزرقة ويهز منكبيه. يصبر بيانثي، مهوَّساً. يتحدث الآخر، في نهاية الأمر:

— أخبرنا بذلك الرقيب حين كنا مستجدين؛ لكنني لا أتذكر. آه، اللعنة: الوطن ليس إلا أسهم أصحاب الأسهم.

قال له ذلك يوماً عمال قطلونيون من السرية الثانية ولمبررات غاية في الوضوح. لكن الرفيق لا يعيره انتباهاً. يستند برأسه هو أيضاً إلى أكياس الرمل في وضع مريح للغاية. يسأله بيانثي دون أن ينظر إليه:

— أنت ظمآن؟— ويضيف على نحو محموم— أما أنا فلا. شربت بولاً.

أعتقد أن الرقباء والضباط يشربونه بالسكر فقد بقيت منه كميات كبيرة فى مستودع المؤن . أصبح مذاقه شديد المرارة لكنه يقضى على العطش .
بيانثي يحرك رأسه ، يريد أن يقول شيئاً لكنه يسكت عنه فى النهاية .
لا يستطيع ترك موقعه . زميله لديه جروح فى شفتيه المتورمتين ، ومن كفى سترته يطل معصمان ويدان نحيفتان ، بلون الأغصان المتيبسة . وجهه ملتهب ، وكذلك أحد جنبه . من شذقيه ينحدر خيط من دم اللثة . هذا المساء أطلق ستة خزائن أعيرة . طلقة مرتدة رفعت قطعة من لحم يده اليمنى فأعادها إلى مكانها ولصق فوقها ورقة تبغ . ليس للأمر أهمية . يتحدث من منطقته البعيد ، الدفين والغامض : " طلقة حظ . إذا أصابت كولونيل يرقى إلى جنرال ويعطونه منحة . يبدو أمراً لا يصدق أن يهتموا إلى هذا الحد بقطرات دماء هناك ، أعلى ، فيما الأمر هنا ... " . لا ينهى عبارته . يبصق دماً ويسأل :

— متى تتم مدتك ؟

— مازال أمامى ستة أشهر .

— وأمامى شهران .

يستمر القصف . من الخندق يصدر وابل حقيقى من علب الشظايا ومن القنابل اليدوية التى اغتنموها من " القول " . الرشاشات تتوج رؤوس كيس الرمل ، القاعدة . البنادق على أهبة الاستعداد وفى اليد قبلتان . المدفع الذى اتخذ موقعه فى هذه الجبهة يطلق قذائفه التى تفتتح على مسافة ستين متراً . يبتعد جندى مستنداً إلى بندقيته . الضباط فى الخلف ومعهم قنابل يدوية . سطوع شديد ، دخان بندقية صيد له رائحة البارود ، والملازم F يسقط شبه مشطور نصفين . أكانت إحدى القنابل التى يحملها أم واحدة من الخارج ؟ ليس فى وسعهم إلقاء أى قنبلة داخل الموقع ، لأنها ثقيلة جداً وهم يرمونها من عمق الخندق . قتلوا ثلاثة عساكر مغاربة . والإصابات ، فى

الأغلب، مميتة. لا أحد يرفع أكثر من جبهته، وفقط بسبب انحرافات غريبة عن مسارها تصيب الطلقات العنق أو الصدر.

أمر جديد بالجلوس خلف الساتر. مع ذلك، يشتد الهجوم: تنفجر القنابل في أكياس الرمل، في الهواء، في الجزء الفاصل بين الموقع والسلك الشائك، ويختلط بصوت الطلقات صوت الطلقات الصغيرة وشظايا الفولاذ والصفائح التي لها طنين الذباب أو بَمّ القيثارة. يريد البعض النهوض، بوحى من الغريزة لكن الرقباء يمنعونهم بإيماءة. مدافعنا الرشاشة تعمل بلا هوادة ومدفعا الميدان كذلك. أفراد الحراسة يشحنون بنادقهم ويطلقون الرصاص على نحو مستمر. يصيب عيار فارغ أذن بيانثي. يفرك خده المتورم ويقول لمن بجانبه، مقترباً منه جداً:

— الحق معك، شئ ما حدث هنا. لا بد أن شيئاً حدث. وإلا فانظر "قول" الغدا أعتقد أنه سيأتي؟

ارتفع الساتر شيئاً فشيئاً، وهو الآن إلى أعلى، أفقياً تحت السماء المنبوعة. جثث الكوخ تعكس نظراتها هي أيضاً إلى أعلى. نظرات مضيئة، حمراء، تلون الضباب بانعكاسات حريق. أولاً، لون وردي لكن بعيد ذلك، يتكشف ليصبح بلون الدم. بيانثي يسمع من يقول إلى جانبه:

— يغالبني النعاس، اللعنة! منذ دخلت هذا الموقع والنعاس يغالبني! كانت تلك العبارة، المقولة ببطء كسول، كافية حتى يشعر بيانثي بالسقوط الوثير في الظلمة. وايضاً الهاوية التي يسقط فيها حمراء. جندي بلا عينين، خاوي الحجريين، أخرق وجاف كالومياوات، يمكث أعلى، على الضفة. يشهر شيئاً، عظمة، بل هراوة ضخمة. الجندي ضخم كذلك، عملاق رهيب، يعزز بذلك مأسوية ورهبة موته نفسه. ما يحمله في يده ليس عظمة ساق، كما كان يعتقد، وإنما عمود هاتف. تلونه ظلال حمراء وسوداء، يتقافز على نحو غير محتمل إلى أن يزهر عمود الهاتف في طرفه.

تدوى رعود مخيفة. بيانثي يواصل السقوط. عندما يزهر العمود تسمع قهقهات صاخبة، الجثة تضحك، تضحك جثث الكوخ. بيانثي يضحك أيضاً، مستيقظاً. آه، إنها المدافع الرشاشة.

فى الخارج يمتزج القصف بصراخ وحشى. لم يزل الرقباء يوصوننا بالهدوء. فى وقفة، يسمع صوت عسكرى مغربى ممن تمردوا علينا أثناء تغيير القوات:

— سيدى القائد، تمام يا أفندم، ها هو الماء قادماً
ويرمى بقنبلة يدوية تنفجر عند السلك الشائك وتسقط ثلاثة أعمدة.
بيانثي يفكر تحت الصخب. لو أن الموت مكتوب عليه فالأمر سواء إن هو قتل نفسه برصاصة. لم يتخيل أن ينتهوا جميعاً هنا؛ لكنه حين يسمع صوت الآخر يحتضر، وشفته زرقاوان، ملتهبتان، تحت محجرين شبه خاويين، تنتابه لحظة فزع. يترك الحكمدار إلى جانبه عدة قنابل يدوية. وحين يرى رأسه مهنياً فوق صدره، ويده على الأرض، ظاهرها فى التراب وباطنها إلى أعلى، يهتمهم بشئ غير مفهوم ويرفع رأسه بصفعة:
— ظمآن؟ خذ.

يناوله الزمزية. بيانثي يعب منها حتى ينتزعها منه الحكمدار. يسأله من بجانبه:

— بسكر؟

يجيبه بيانثي بإيماءة برأسه. يردف الآخر:

— رغم أن مذاقه فى النهاية أفضل، يزيد السكر من الإحساس بالظما.
ينظر بفضول إلى غطاء القنبلة اليدوية، كأنه لم يرها من قبل. يشتد الصراخ. يبدو أن المغاربة بدأوا الهجوم بالفعل. ينهض الجنود، يرغبون

رؤيتهم، فتح النيران عليهم؛ لكن الرقباء يمنعونهم. مزيد من القنابل ضد الموانع، تنفجر إحداها قرب خيمة، فى الهواء، فتمزق قماش الخيمة. "علقة" ساخنة. يقول الزميل:

— ثمة مكان واحد آمن فى هذا الموقع، ذاك.

ويشير إلى الملجأ حيث يتكوم الموتى. نظر الرقيب معلق بالقمر. يلتفت بيانثي برأسه ويرى أن سحابة تتقدم ببطء نحو القمر. يدرك ما يحدث. مالم تغطه لن يخرج المغاربة من خنادقهم ليشنوا الهجوم. لم يبق سوى دقيقتين، وسوف تستغرق على الأقل نصف الساعة فى مرورها إلى أن يشع من جديد ضوء القمر. فى نصف الساعة هذه لا بد من المغامرة بكل شئ. يقول ذلك لزميله، وهذا يؤكد فى غير اكتراث:

— سيدخلون لو شاءوا. أرايت السلك الشائك المحطم فى كل هذا الجزء تقريباً؟ لم تره؟ يمكن الدخول سيراً على الأقدام.

بيانثي ينفذ عنه التراب الذى صبته فوقه انفجارات الموانع، ويلعن:

— مهما تكن خطورة ما يحدث، هم يعلمونه ولا أحد غيرهم. اللعنة، أين العدل! نحن أيضاً كان من حقنا أن نعلمه، ومادنا هالكين كان بوسعنا أن نقفز من فوق الساتر الخلفى، لينجو بعضنا.

يقسم الآخر أنه منذ شرب من الزمزمية أصبح رجلاً آخر. لم يعد يحتمل، رأسه يثقل عليه والهواء كثيف، ساخن، كهواء فرن، لكن وخزاً فظيماً ينتاب ساقيه. تحت الدوي، يشير الرقباء بأذرعهم. هيا! ينتصبون فوق سيقانهم النحيفة، الملتوية فى شكل رسم عشوائى. يترك بيانثي البندقية مصوبة، وينتظر معه قبلة يدوية فى يده اليسرى.

يبدأ القمر فى الاختفاء، تقترب اللحظة. تصمت الرشاشات والمدفعاان يسددان على مسافة أقرب، على نفس خط الموانع تقريباً. إلى الخلف، بعيداً عن الخندق، يسمع صياح حفل أو حرب. من الجانب الأيمن، ومن الخندق

الفرعى العمودى على الخندق الرئيسى، كأنه شق عظيم، يستمر حشد الخنادق الأولى. تنتهى لحظة الترقب بانسدال الظلمة فوق الموقع، وفى صمت مطلق يخرج المغاربة وترى ظلال أجسادهم بالقرب من السلك الشائك. دفعات متسارعة تمحو الظلمة، نيران البنادق لا تتوقف، والقنابل تنفجر فى الهواء فوق الأسلاك الشائكة، إلى جانب الموانع، داخل الموقع. مدافعنا تفتح نيرانها ومدافع أنوال تبدأ فى إطلاق قذائفها بعيداً وتحول دون وصول الدعم. أزيز طلقات فى الداخل، عند الموانع، فوق الأسلاك الشائكة الخلفية. تكشف الأرض عن سر بغضائها الشائن. حين يعود بيانثي ليأخذ قبلة يدوية أخرى يرى قريباً منه جلاباً بكمين قصيرين مفتوحين ومتقاطعين وبندقية عليها السونكى وعسكرياً مغرباً يحك صدره. ثم آخر أقرب إليه، إلى اليسار، ثم آخر وآخر. الرقباء، الضباط، لا يستقرون على رأى، يأمرهم بعدم استخدام المدى ويوزعونهم على الموانع. سقط اثنان منهم وشج رأساهما، ويقف أحدهم بجانب بيانثي يطلق النار دون تصويب ودون أن يطل منه سوى طرف عمامته. ضابط صف يلكزه بالمسدس فى ذراعه:

— أخرج رأسك، أيها الغبى، عساهم يشجون قرنيك!

الهواء محمل بالغضب، يتدافع، يندلع، يطلق الغبار والحصى. يرتجف الساتر، تهتز الأرض، وصخب البنادق لا يسمع إلا إذا كانت بنادق المهاجمين، الذين يصوبون ثم يسددون نحونا يدخلون القرعة فى رؤوسنا ويصمون آذاننا. يحشد الموقع كل وسائله الدفاعية. من أنوال يعاونوننا؛ رغم كل شئ، لا نستطيع صدهم بفعل هذه الظلمة اللعينة، التى

هى خير ساتر. تتواصل الشحنات. والأسلاك الشائكة التى كانت من قبل ترى بوضوح أصبحت الآن ساتراً ثانياً كثيفاً ومعتماً من الأجساد البشرية الممزقة التى تسقطها القنابل اليدوية وتقطع أوصالها مرة بعد مرة. سقط العسكرى المغربى القريب من بيانثي منكفئاً على نفسه يجر رأسه بجانب الساتر. يرى بيانثي زميله خارجاً يعرج. طلقة حظ؟ كيف يمكنهم أن يصيبونا بطلقة حظ من خلف الساتر؟ يحضر رقيباًن مهرولين: "اقتلوا العساكر المغاربة".

داخل ملجأ الجثث احتفى ثلاثة وطنيين، يطلقون النار علينا. الضباط يطلقون نيران مسدساتهم على كل من يلبس جلاباً، ويذهب الرقباء وجماعة من الجنود لتحصين الخيام. تقام جبهة جديدة داخل الموقع، لكن عدد المغاربة أقل ويرى أنهم يسعون إلى الاحتماء بخط الموانع وبمتاهة البوابة حتى يتمكنوا من الفرار محتمين بالظلمة. بشحنتين أو ثلاث يقتلون ضابطين وأربعة جنود أو خمسة. سقط رقيبنا أيضاً. بيانثي يلتصق بأكياس الرمل ويواصل إطلاق النار.

يستمر قصف الرشاشات بلا هوادة. ماذا يجرى فى الداخل؟ تصمت إحدى قطعتى المدفعية. يصرخ أحدهم: "المدفعان!". ويتركز القتال فى الكوة التى اتخذ فيها موقعه المدفع. الحراس الوطنيون الباقون فى ذلك القطاع عبروا الساتر وقروا؛ وكذلك فى هذه الجبهة، تحت الدوي، يقفون فوق الساتر كدمى خرقاء ويركضون نحو السلك الشائك. تصوب رشاشاتنا نحوهم وينجو منهم فقط اثنان أو ثلاثة. فى الميدان، تقدمت موجة جديدة نحو الموقع. والمدفعان؟ يستأنف كلاهما القصف. أما زال هنالك عساكر مغاربة فى المحصن؟ أطلق الرصاص على عساكر مجموعة الخدمة الثلاثة فى أماكنهم، وسقطت بقيتهم خارج الساتر. ربما نجا منهم ثمانية أو عشرة. فى كوة المدفع قتلوا اثنين من جنود المدفعية. لم يزل هناك عسكرى مغربى

فى الداخل ىركض فى جنون؁ وىندقىته فى يده؁ من مكان إلى آخر. حىن يقترب يفتح بعض الجنود على النار فىفر وىسقط على وجهه فوق سىاج الخىام؁ ىتقهقر وىستمر فى ركضه على غير هدى وىتلقى أعيرة من كل جانب. ىضل طريقة من شدة الهلع؁ أم أنه ىرى أن ىفر من نفسه.

ىعاود بىانثى توجىبه اهتمامه إلى السلك الشائك لكنه ىستشعر هوس المجنون وىسمع وقع ركضه وصىاحه بالعربية. جنون العسكرى المغربى مثل خميرة عته الجمىع؁ الصاعقة التى ستفجر عقل الباقىن. الحكمدار نفسه ىومئى كالمجنون؁ ىتحرك كالدمى المشدودة إلى خىط؁ وتؤتى أفعال خرقاء مثل التبول بالتناوب فى دلو الرشاشات كلما مر الضابط. والمحصىن ساحة لجأ إليها مائتا مجرم. الحرس المدنى فى الخارج. لا تتركوا واحداً منهم على قدمىه. لكن؁ فى الداخل أىضا؁ هنالك حرس متخف؁ وهؤلاء ىدفعون الثمن. يقترب الحكمدار؛ وىضحك:

— ذلك التعس... رشق نفسه بمدىته.

بىانثى ىضحك كذلك. لم ىزل ىضحك بعد أن ذهب الحكمدار: لكن؁ من بعيد؁ لن ىدرك أحد هل ىضحك أم ىسعل؁ تلك السعلة المستمرة؁ الجافة؁ العصبىة.

فى الخارج تواصل الرشاشات قصفها. الآن ىسقط المجنون منهكاً؁ وأحد ما ىصوب مسدساً إلى صدغه. لا ىكاد السلاح ىلمس جبهته؁ ىقفز إلى أعلى وىصدر عنه بعض الدخان. ثم ىحملون جثث الوطنىىن إلى الجزء الخلفى وىلقون بها فى الوهدة جثة جثة كى ىرى المتمردون العقاب. هم ثمانية عشر أو عشرون؁ وىسقطون متعثرىن بإىماءات جروتسكىة. بىانثى ىفكر: "لو كانوا تخلصوا منهم منذ عشرة أىام؁ لتبقى ماء حتى الآن"؁ وىشعر بحقد غامض. لكن بعض الظلال تخرج من السلك الشائك؁ كأنما الأجساد المىتة تمتد على الأرض فى أذرعة

صامته. ولا توجد ذخيرة. تكاثف الهواء حتى إنه سيخنقنا من حيث لا ندري. تلك الظلال الأخطبوطية هي أشباح الليل العفن الذي يبعث من بعيد دفقات مثيرة للغثيان. بيانثي يطلق النار في عجلة صرعية. يسقط على ذقنه خيط دافئ وعيناه ملتهبتان. المدافع الرشاشة ترفع الأرض في الاتجاه المعاكس على مسافة عشرين متراً على هذا الجانب من السلك الشائك. تنفجر قذائف المدفعية وتمر الطلقات طنانة. لهب أحمر يضئ عن قرب خزائن طلقات منكبة، بنادق مشهرة السونكى، موتى يرقدون على ظهورهم، سيقاناً عارية ترتفع فوق السلك الشائك. وبطاريات أنوال تتسلى بتكسير الحجارة ستين متراً إلى الخلف، حيث لا يوجد أحد. فى الكتف، ألم روماتيزمى عميق، وخزائن الطلقات شبه خاوية، والجسد مائل على الساتر. أذرعة الأخطبوط تمزقت. مدافع الهاون شلت حركتها. لكن بعضها ربما تمكن من الزحف حتى الساتر ونهض ليحوطه بمحاجمه القوية اللزجة. السونكى، من الأفضل تركيب السونكى. دون أن يدري كيف، ألقى يديه محمليتين بقنبلتين فيلقى بهما صوب الخارج. لا تنفجر إحداهما. لكن الأخرى تنفجر على مسافة خطوتين. الأخطبوط تقهقر ويصدر رائحة شياطين وزيت مقلّى. لكن آخرين يقدمون ولن تكفى القنابل الجميع. إلى الخلف، داخل الموقع، يسمع أزيز الطلقات عدة مرات. تميل خيمة بصاريها المحطم وتسقط على جانبها، كقبة ضخمة. ويطل القمر من جديد. لا يرى كائن حى. جثث عند سور السلك، جثث أخرى فى الداخل، قرب الساتر. نصمت المدافع الرشاشة منهكة. البنادق كذلك، فيما عدا بيانثي الذى لم يزل يطلق النار على جسد سقط على مسافة قصيرة من الساتر مغمغماً بالسباب، فى هياج عظيم. يطل بعض الضباط ويدنو أحدهم من بيانثي:

— هيا يا رجل، أجننت؟

— النذل... ١ — يبرر الجندي مشيراً إلى الجثة.

بيانثي ينظر في ذعر إلى السماء: لكن لا سحب هنالك. لا خوف، في هذه اللحظة، من هجوم ثانٍ. لا الرشاشات ترد ولا المدفعا. بعض قنبلة وطلقات بنادق متفرقة. المفاربة يضحكون، يصرخون، يهددون من مكنهم في الخندق. في صوته نبرة مظفرة غير مفهومة في أعقاب تلك المجزرة. بطاريات أنوال تقصف الآن قريباً جداً من الخندق الذي محته الأرض المقلقلة وحفر الانفجارات. قذيفتان أو ثلاث تسقط مصادفة فوق الخندق العمودي وتخلف وراءها على الجانبين مزقاً ممددة من القماش، أعضاء بشرية ربما.

بيانثي يشعر بأنه غارق في عرق بارد. يصيبه غثيان، تؤله كتفه، لثته؛ وفي عنقه، قريباً من ظهره، يحس بأن أحداً رشق فيه خطافاً من الفولاذ. يتأخر برهة في تعرف نفسه وحين يمر بيده على ذقنه لا يشعر بشئ. أما فيما بعد فنعم. يشعر بمقبضين تحت الجلد المترهل، على امتداد الخدين، ويفكر في أنه بهذا الجلد الشديد النحافة لن يتمكنوا من حلاقة ذقنه دون أن يصيبوه بقطع. يجلس. تبرز من شق بسريره ركبة متيبسة وضامرة. إلى يمينه، ثمة مثل أربعة أمتار بلا دعم. أجهزوا على ذلك ذي الوجه المؤسي؟ ودون أن يستكنه السبب، يشعر نحوه بازدياد لا نهائي. في أعماقه هو مقتنع بتفوقه ويؤازره أمر حقير: أنه شرب البول بالسكر فيما شربه الآخر "سادة". يقول بصوت عال، بنبرات غريبة، محتبساً صوته أحيان في حنجرتة:

— يقول إنه يبقى شهران ! أليس في وسعي القول إننى أنهيت مدتى ؟ هنا، ليس ثمة سوى كلام وكلام . والآخرون يتخذون سميت من يصدقه — شحنة أخرى فى الخارج، وصيحات عربية: ولكنه مادام كان سينهى خدمته فى غضون شهرين فمن حقه أن يختار السلاح، وأى فرقة شجاعة اختارها؟ يعود برأسه إلى الخلف ويجرح نفسه بحجر، لكنه لا يستشعر أى ألم. فى أذنيه، فى العمق، تطن خطوط التلغراف، خطوط وهمية. يمر بظاهريده على شفتيه اللتين بدأتا تتشققان.

— شهران ! وأنا يبقى لى ستة أشهر، ولا أقول شيئاً، فيم يفيد؟ يوزع الحكمدارات زمزمية على كل ثلاثة مملوءة بالبول. فيدل، كالمعتاد، يلف منشفة حول رأسه ضد "الطل". بيانثي يسأله: — و"الغيار"؟ أم تعتقد أننا كخيال الظل سنمكث هنا إلى الأبد؟ أعرف من يدير هذا.

يعتقد أنه يصيح؛ لكن الحقيقة أن أحداً لا يسمعه. يخرج من بين أسنانه همس مبهم. يهز فيدل منكبيه ويقول، ماراً به فى سيره المتارجح: — صه ! تثرثر كدجاجة.

يقدم جنديان يمسكان بندقيتيهما من حامليهما، متدليتين: حتى لا تحترق أيديهما. أحدهما، بضمادة حول رأسه، والذي يبدو كفرع شجرة مجدوع ويعلوه الجليد، يدخن سيجارة ويردد أنه كان فى كوبا وأنه أنفق مالاً وفيراً.

— هناك تحيا كالملك. وكذلك فى فرنسا. هناك، الجنود غير مهندمين.

أول زى عسكرى يرتديه إسباني أفضل من ملابس قائد فرنسي، ويسمون المدافع الرشاشة "متريليوز".

ينفجر كلاهما ضحكاً. ويردد بيانثي حين يسمعهما:

— ثرثارا

بضايقه أن يتحدث الآخرون، وقبل كل شيء أن يضحكوا. شحنات جديدة من النيران ومن جديد تعمل المدفعية. البعض ينهض بصعوبة في شيء من السأم، ويقترب رقيب:

— بيانثي، انهض!

يرغب في النهوض وحين يلتفت الرقيب إلى ذلك ينهضه ويتركه واقفاً إلى جانب الساتر وبندقيته متأهبة. يلتقط بندقية أخرى ويقف بجانبه. يقدم له الزمزية؟

— ساخن؟

— كلا. برد وبه سكر.

يشرب بيانثي للمرة الثانية في ثلاثة أيام. لا يشعر بالظما من حيث هو ظماً. في اليوم الأول لم يكن بوسعه التوقف. وفي اليوم الثاني كان يستوى الأمر تقريباً، على الرغم من أن عظام المرء ترتخي وتتورم شفتاه. ثم يعاوده جنون العطش، ثم نعاس يسبب غليان الدماغ والحشا، وبعد خمسة أيام أو ستة في أحد مساءات هذا الشهر—يولية—يحملونك مسعوراً ككلب.

يسأل بيانثي:

— أجا "الغيار"؟

يجيبه الرقيب بالنفي ويطلق الرصاص. نحو الفجر بوسعهم النوم قليلاً.

يزمجر بيانثي:

— ما كنت أوده هو أن أشق روح أي من العساكر المغاربة الذين فروا "بجلدهم".

لكن الرقيب ينصحه بأن يتوخى الحذر، ربما كرروا الهجوم. دون أن يدرك السبب، يخر بيانثي على ركبتيه مرة أخرى، يهمس:

— أنا أيضاً أثرث!

يتمكن من التفكير في نفسه؛ ولكنه يرى نفسه معتوهاً من منظور المنطق المعتدل لمن ينظر إلى شخص غريب عنه؟

— من أنا؟ أتحادث وأتحدث ولا أدري له، لأن هنا لا أحد يستمع. يستوى أن تصرخ وأن تهمس في الأذن. يضحكون ثم يذهبون وإن قلت إنه ظلم يضحكون حتى نوبة الصمت. لا شيء، أنت لا شيء يا بيانثي. مثرثرون، اللعنة، فلا تشبعون من التبول وانتظار "قول" الغدا صمت. في الزاوية تغنى البنادق وتقرقع الرشاشات.

— أغنية جميلة! لو كان هنا معلم الحداثة الذي كان يرقص على طرق السندان وقرع الأجراس في غياب صاحب العمل لرقص الآن كذلك. يعود الصديق ذو التعبير "المؤسي"، يعرج:

— ماذا حدث؟

— أمر الطبيب "بالخدمة" لكل من بوسعه الوقوف على قدمي - ألم تعد هنالك "طلقات حظ"؟

— بلى، لأولئك! - يشير إلى ركن من الموتى. لا يلتفت إليه. السماء آخذة في الشحوب. هنالك برودة عذبة. يقدم الحمكدار فيدل:

— الضباط مع القائد، قتلوا أربعة، والملازم X يحمل عياراً في رقبته ويتحدث من نصف واحد.

تطلق الرشاشات النار. لاي هدف؟ رغبة في الصخب. يطل الحمكدار فيدل من الساتر ويسقط في الحال على ظهره. ترتد البندقية في خبط خشن. المنشقة كانت تقبه من "الطل"؛ لكنها، ما كان أسهلها من هدف!

-

.

7

.

عند الفجر للوجوه شحوب الشمع يعززه ظل لحية سكان الكهوف . ما إن ترتفع الشمس تنعكس أعلى خيمة . ما زال جميعهم عند الساتر . الآكام ناصعة ؛ السماء باردة ، صافية . نامت الطبيعة وصحت فغسلت محياها . ما حدث في الليل كان كابوساً وحشياً ، بقي منه وسوم درامية ، زائفة . سور السلك ذاك ، وتلك الحملة من المغاربة المشتبكة به ، ماذا تفعل هنا ؟ هيا ، انهضوا ، كفى . اذهبوا إلى القبائل وصلوا صلاتكم المثابرة . الدم يفرش تحتهم ، بين أوتاد السلك ، بساطاً أحمر يضرب إلى السواد .

زرقة الصباح أشد شحوباً تحت هذه الشمس الزرقاء الإجماعية . والجنود ظلال رمادية تتحرك بصعوبة ، في تراخ ، في صمت . ثلاثة أو أربعة منهم يذهبون ويجيئون بلا هدف ، عيونهم غائرة وخطومهم بارزة . يعاودون الذهاب إلى نفس المكان ، كأنما نسوا شيئاً ، ليرجعوا دون أن يفعلوا شيئاً . هنالك هوس لا يستكفونه ، وهذا الهوس يدفعهم إلى فعل أشد الأشياء تضارباً . لم يزل بيانثي مع جثث سور السلك .

ـ هيا اذهبوا إلى القبيلة . أيها الخنازير ، أبناء العاهرة ! ها قد طلع الصبح . ألا تصلون إلى الله الأكبر ؟ الله هنا ، أيها الأنذال ! السلام عليكم ، أيها المختنون ! ألا تصلون ؟

بيانثي لا يرفع عينه عنهم فيما يغمغم . والموتى ، المنكفئون على وجوههم ، المعلقون من بطونهم في السلك ، يتحركون أحياناً . بعض آخر راقد على ظهره ، عنقه ملتو على الأرض ، عارية سيقانهم ، ينظرون إلى صدورهم في إصرار . بيانثي لا يرفع عينه عنهم :

- هيا، صلوا، فها قد طلع الصبح.
يخفق الصمت بجناحه فوق الموقع. خورس إجماعى يأتى من سور
السلك: "مولاي عبد-السلام..."، ويعلو تدريجياً، فى شبه أغنية، شبه
تلاوة. يفتح بيانثي عينيه غير مصدق:
- أيها البلهاء، أيها البلهاء: الآن تصلون! ثم تأتون بعد ذلك لتطلقوا
النار علينا وتحاولون القفز فوق السلك الشائك. ونحن هنا أياماً وأياماً...
- من لديه نصف كسرة فليفتتها وياكل.
- القهوة! لم أجربها منذ اثني عشر يوماً.
هناك، مطبخ الميدان بمدخته مصوبة نحو السماء كمدفع منتقم
متأهب لإطلاق قذيفته.
- وماذا فى ذلك؟ أتريدون قهوة؟ ما أريده أنا هو النوم جيداً. فى أنوال،
فى بعض مرة، كنا ننام القيلولة.
يتحدثون مستدبرين الساتر، فى سلام لحظى، تحت اللغظ البعيد
للمغاربة الذين، فى مأمئهم الآن من مدفعية أنوال، يعدون خطتهم. لا أحد
يراهم؛ لكن الرياح تحمل مهماتهم.
- فى أى يوم نحن؟
يهز بيانثي رأسه:
- فيم يهم؟ أعلمه أحد؟ حين قدمنا، رشق الرقيب فى عمود الخيمة
حفنة أوراق تقول: واحد: الثلاثة؛ اثنان: الأربعة، بقلم الرصاص، وهكذا
حتى ثلاثين.
- أى رقيب؟
- ذاك!
يرقد على ظهره، فى صفوف الموتى الممتدة حتى الوهدة، خلف ملجأ
الحراسة.

-تنتاب المرء رغبة فى إصدار الأمر إليهم: انتبأاااا وربما نهض أحدهم
بحكم العادة.

بيانثي ينبه:

- أتدرى شيئاً ؟ ليس الموت مخيفاً كما يبدو. تموت وينتهى الأمر

إلى الطابور. يخرجون. فضلاً عن الحرس يمكث عند الساتر حوالى
خمسة عشر رجلاً. والآخرون يصطفون. رقباء نوبة هذا الأسبوع
سيقومون بالتفتيش؛ لكن الرائد لم يبق سوى واحد فقط - يأمر بالعد
ويضع القوائم فى جيبه. أربعة وأربعون، أى ثمانية وثمانون جندياً،
من أصل ثلاثمائة حضروا إلى هنا، فضلاً عن بعض القدامى وقطاع
الشرطة الوطنية. بيانثي يدرك الآن لماذا يرى وجوهاً مألوفة عند الساتر.
هم جميعاً تقريباً من السرية الأخرى. يجرون التفتيش على المؤن،
تحسب حسابات بصوت خفيض. وبما أن أحداً لا يحتمل وضع
"انتباه"، يصدر أمر "استرح" ثم ينصرفون ويعودون إلى مواقعهم عند
الساتر. البعض يرفع رأسه ليحتفظ به فى وهم اليقظة العنيف ويفتح
فمه وينعس دون أن يغمض عينيه. وإذا أطلق الرشاش النار، يستوى
الأمر، يواصل النوم.

يخلف الموقع انطباعاً موحشاً كحظيرة قديمة مهجورة. أنين فى الخيمة
المحطمة، تحت قماشها الذى رفع من أحد الجوانب كى يتسنى المرور. هناك
يرقد الجرحى، وسط أحجار السياج شبه المتهدم. والليل، فى غياب القمر،
كان حالكا كاحشاء بركان، أشد ظلمة منه فى إسبانيا. والفجر، الأكثر

إشراقاً وروعة بعد كل دقيقة، يفيض على الموقع قبلاً وبرودة. الأرض تفيض دماً: نشع، برك صغيرة. وعلى الساتر دم كذلك؛ وعلى كيس رمل، على مقربة من بيانثي، جزء من كتلة دماغية.

يتجنب الجنود النظر إلى الوجوه. لهم هيئة زائغة، محمومة، جنونية، عيونهم متورمة، محتقنة، شفاههم سوداء ومتقيحة. بين كلمة وكلمة يلكزون ويهرشون. يعود ضابط المدافع الرشاشة ومعه الدلو، يقول: — إن شئتم، هنالك بول بارد.

يلاحظ في عينيه إعجاب ما صامت. يفكر بيانثي: "بالطبع! فنحن من تسميهم الصحافة أبطالاً. أن تحمل مخ زميل ملتصقا بحذائك وترى القمل وتشرب البول، هذه هي البطولة. أنا بطل. بطل أ.ب.ط...ل". والكلمة بعد ترديدها، تفقد معناها ولها وقع زمجرة حيوان أو احتكاك شئ بآخر.

يخرجون جهاز الإشارات الشمسية وينتظرون حتى ترتفع الشمس قليلاً. القائد نهب للقلق والتوتر، والانطباع الذكي في الماضي أفسح مكانه لغباء غير مكترث:

— كم طلقة مدفعية؟

— ست لكل قطعة.

تنعكس الشمس على مرآة الجهاز وجندى الإشارة يبدأ عمله. يشرع في إرسال النداء وأنوال يرد. القائد ينزع الورقة من دفتر ويكتب، وجندى الإشارة ينقل الرسالة وعينه تحدجان الأفق: "المقاومة مستحيلة. حين تسمعون الطلقة الثانية عشرة، وجهوا قذائفكم إلى الموقع". ثم يمزق الورقة إلى قطع صغيرة. بيانثي يتحرى عيني زميله:

— أعتقد أن "القول" سيأتي؟

يحمل جندى الإشارة الجهاز ويهم بحفظه. يقول القائد:

— له؟

حقاً. لا طائل تحت حفظه. لن يضطروا إلى الإبلاغ عنه. يتكئ على السياج، بعينين بلهاوين.

— لكن هذا... آه، كلا! هذا محال!

ينظر القائد إليه في صرامة والجندى يصمت. تهتز نجمة أنوال الزرقاء. ماذا يقولون؟ لا شيء. تسلموا الرسالة. والآن! أكل شيء انتهى؟ حين لا يأتينا رد من أنوال فلا نجاة لنا. ماذا جرى هنا؟ لا يجدى اعتبار أن لا أمل في أن تفرض قوة الأحداث نفسها. لذا، لا يستسلم المرء. ولا يفيد اليأس، الجنون، لأن المرء على أي نحو، وفي كافة الأحوال، يصطدم بسقف الموت الأسود. لكن هذا محال! هل ينبغي أن ينتهي كل شيء هكذا! القائد يراقبه ونظراته تؤنبه في صمت وتذكره بأن عليه أن يحفظ السر. سرفى ساعة الموت. أية سخرية! ومن هو القائد الآن سوى جثة؟ جنود الساتر نهضوا أيضاً من بين الجثث هائمين في أداء خدمتهم على نحو أخرق. يضحكون بالفم فقط وتثبت بقية الوجه تعبيراً صامتاً. يتجه نحو بيانثي، ونحو القائد الذي ينظر إليه دائماً ويداعب مؤخرة مسدسه. سيقتله بطلقة. يؤدي الجندى التحية. القائد يأمره بأن يخفض يده:

— قل لهم إنك سألت متى يصل القول وإننا ننتظر ردهم.

يتجه صوب الساتر. يطلب بيانثي منه سيجارة فيخرج جندى الإشارة علبتين ويوزعهما ويحتفظ لنفسه بسيجارة واحدة. يدخلون جميعاً. القائد والضباط الثلاثة الباقون يخرجون أيضاً علب تبغهم على مقربة من خيمة. في أنوال يبدأ سماع نيران الرشاشات ومدافع الميدان وفي ذات الوقت تحتشد الآكام المجاورة ويبدأ تواتر المتمردين في الخندق القمودى من خلال ما يشبه الطريق المغطى الذي صنعوه بالإفادة من حفر الانفجارات. مدفعا الميدان ينتظران مشحونين بالقذائف وتستعد الرشاشات بأمشاط

الذخيرة التي يشبكونها ويركبونها في شكل سلسلة طويلة . يشد بعض الضباط على أيدي البعض وواحد منهم، بحكم العادة، يبتسم لدى أداء التحية . والقائد، من موقع استراتيجي، قدماء مضمومتان وذراعا ملتصقتان بجسده، وخصائله الرمادية يطيرها الهواء، يعطى الأمر بالانتباه فينتجه جميع جنود، عدا الحراس، إلى الداخل :

— جنود إسبانيا !

يتخطى صوته الساتر ويمتد فوق ميدان الفجر الذهبي :

— الوطن يطالبكم ... !

قذائف ودفقات السلاح تخنق صوته . يُستأنف الهجوم . يصرخ القائد ثلاث مرات في صرع : "تحيا إسبانيا" ، في انتشاء يغير سمته . تحت تراشق النيران، وسط قذائف المدفعية، يجيبونه في همس هنا وهناك، في بحة صوت مزكوم . القائد يعد مسدسه ويطل بلا حذر من الساتر . يطلق النار مرتفعاً أكياس الرمل . بيانثي، حين يراه، يشعر بضيق في صدره، بحنان غريب . صوت من أعماقه ينفحة شجاعة، يترعه بشقة جديدة . تشع الشمس على مقبض البندقية، تضيء أنجماً عند فتح وغلق غرفة الانفجار . جندي الإشارة انبطح على الأرض يسف التراب ويلعن . للمدافع صوت أكثر نعومة في صباح يوم من شهر يولييه، يرتفع وينشر ألوانه الزاهية . كل شئ في سلام، في السماء، في الأرض .

جندي الإشارة أحصى ست طلقات مدفع . يطلقون ويطلقون ولا يعلمون ... طلقة أخرى ! أصبح سبعاً توقفوا أيها الرفاق ! آه، لو تعلمون ! ينهض ويأخذ بندقية، يبحث عن خزائن طلقات، يتجه ناحية الساتر . قذيفة أخرى . تبقى أربع . الموقع الآن أصبح ينتمي إلى عالم الذكرى، خارج اللحظة التي لا تنعكس إلا على الظما والقدارة واليأس الذي أضجى فعلاً جسدياً أيضاً . يفتح النار على الظلال التي تتوج

أكياساً رملية على مسافة أقرب من الخنادق الأولى .

وابل من القنابل يسبق الهجوم . للمغاربة تكتيك يائس . موجة تبلغ سور السلك نفسه وتتحصن في حفرتي قنبلتين ، خلف ساتر من الجثث . من هناك تسقط القنابل الآن داخل الموقع وتكسر ذراع جندي الإشارة . بالآخرى يواصل إطلاق النار والألم يغسل ظلال العقل -القول الشائع بأن الألم المعنوي بظهر صحيح فيما يختص بالألم الجسدي- فيعمل فكره . لو أن القتال بين جيشين نظاميين لاستسلموا وصاروا أسرى ؛ لكن هنا ، بعد ما رآه الجميع -عذاب الضابط الطيار- لا بارقة أمل هنالك . القذائف انتهت إلى تدمير خيمة الجرحى ، دمرت الساتر من جانب وجرحت عدة جنود . بيانثي لديه رصاصة مرشوقة في ركبته . عندما يعتلى المغاربة الأسلاك الشائكة ، تقدم الرشاشات عرضاً لا طائل تحته وتطلق المدفعية قذيفة واحدة ، ثم أخرى ، بعد فترة طويلة . يتردد المهاجمون وفي النهاية يتقدمون في حزم .

ينظر بيانثي إلى كلا الجانبين . لا توجد قنابل يدوية : يرى الأرض مزروعة بجرحى جدد ممن كانوا في الخيمة والذين يموتون وقد سحقوا أنوفهم فوق الأرض وسط بركة من الدم الحى والأحمر ، بعد أن فروا زحفاً حين رأوا السياج الحجري ينهار فوقهم . لقد أصبحوا قريبين جداً بحيث لا يمكنهم أن يخطئوا . ثمانية أو عشرة شهروا مداهم وينتظرون في تشكيلين على جانبي الأبواب . آخرون على مسافة مترين من الساتر يحملون المدي أيضاً . يلقي أحدهم سلاحه ويركض في كل الاتجاهات مصدراً أنيناً نحساً ، ويطل جريح من بين قماش الخيمة المهشمة وحين يرى أن بيانثي ينظر إليه يخرج خطاباً من صدره ويصرخ :

— من فضلك ! إذا دخل "القول" أعطه لحكمдар البريد .

يعتقد أن كل ذلك الصخب هو "القول" وأنه وصل بالفعل . يلتقط

بيانثي الخطاب من الأرض ويحتفظ به. على المظروف، الحروف الأولى مزينة
بزخارف غريبة وفوقها زهرة.

من قطاع العساكر المغاربة قفز عدد من الوطنيين ومن مكمّتهم الآمن
خلف سياج الخيمة الأولى يطلقون النار على الرشاشات. يعمل الآن مدفع
واحد فقط. المدفع يطلق القذيفة الأخيرة وجندى الإشارة يسند فوهة
البندقية تحت ذقنه ويخرج إصبع قدمه من حذائه ويضغط الزناد.

بيانثي يرى جلاباً يعتلى الساتر. يشهر مديته ويتقدم، مستجمعاً كل
قواه. يصطدم السونكى بشئ شديد الصلابة، يرتشق به فيحرك كيس الرمل
الأخير ويلقى به إلى الخارج. يرتفع الجلاب من جديد وفي تلك اللحظة
تصم الأذن صرخات بشرية. ألم، بهجة، غضب. حلت مكان هواء الصبح
الوادع وصخب المدافع والقنابل. وبيانثي، في ذهول كل تلك المفاجآت، لا
يرى؛ لكنه، وسط ضباب الأصوات والصراخ، الممتزج بانفجار خشن
لطلقات الماوترز، يشاهد فوق منحني الأكمة، على مقربة من الخنادق،
جماعات من الفرسان المغاربة.

يتمزق الهواء في خرق عنيفة. دفقات شديدة ترفع الوجه وتهز
الأطراف السفلية للمسترة. ينزاح الجو فوق الرأس كما تنزاح أغصان أوكة،
وتطير قطع من الأكياس والحجر وأكمام مغبرة معتمة. بطاريات أنوال تطلق
قذائفها فوق الموقع. اختفى جزء كبير من الساتر. تصل موجات جديدة من
المغاربة، وفي فوضى بالغة، يطعن الهواء وكل ما يعن للعين. خمس عشرة
قذيفة، عشرون تنفجر هنا وهناك.

بيانثي، المصاب في إحدى يديه، لا يستطيع بيده الأخرى أن يخرج البندقية من خليط غريب من الخيش والغبار والجلابيب. وسط الدخان والدم والصخب -الفرقعات كثيفة وجسدية وتدفع المرء إلى الخلف-، بيانثي يثب، يتقهقر، يفر، ليس من المهاجمين الذين لا يراهم بل من الكون الذي يتدفق فوق الموقع وينفجر أشلاء على مستوى الرؤوس. يسوط الهواء ظهره في موجات عنيفة مع كل انفجار. يركض دون سلاح، بإحساس من يفر من الخدمة، من يهجر الجميع لحظة الكارثة النهائية وأيضاً بإحساس من يخلف في موقع R جزءاً هاماً من نفسه. إن إحساس الناجين هو نفس الإحساس الذي قد يشعر به الموتى لو أن لديهم الوعي بأنهم قضوا نحبتهم منذ قليل. يسقط، ينهض، يسقط ثانية. والبندقية؟ وأين ترك أيضاً "الطاقة"؟

بعد قليل، يجد نفسه يهبط الأكمة، بلا سلاح، بخزائن الطلقات فارغة. خلفه، إلى أعلى، يبقى الموقع براقاً، يصم الأذان، بنطاق من الأرض المقلقلة، وقوة بركان مكبوت. الآن، تُسمع على نحو أفضل بطاريات أنوال. والقائد؟ رآه يطلق على نفسه الرصاص. قفز من أماكن أخرى رقيب وستة جنود أو ثمانية؛ لكن من هؤلاء سقط على الأقل ثلاثة في الحال. كان الرقيب يحتفظ ببندقية، إنه آرميسن، رقيب السرية الثانية. بطاريات أخرى تطلق قذائفها خارج الموقع وتسقط قذيفة على مسافة ثلاثين متراً. بيانثي ينهض ويواصل الهبوط بصعوبة. تدفعه قوى خارقة. لا يشعر بالعطش أو بالم ركبته أو يده. والفرقة التي يخلفها وراءه تزيد من هرق عينيه المتسعيتين والمسمرتين على المعسكر البعيد الذي يمد إليه طريقاً طويلة طويلة. آه، يا إلهي ألم ينج أحد، لم ينج أحد! بيانثي يدرج نفسه ضمن من تشملهم عبارته. هو أيضاً سيموت قبل أن يصل أنوال. قذيفة أخرى تسقط على مسافة أقرب، ناحية خنادق خاوية. وبعدها، أربع أو خمس،

بطنين حاد من عدة طبقات . إلى أعلى ، من المؤكد أنه لم يعد هنالك حجر فوق حجر .

فر من قبره؛ بيد أنه لديه انطباع بأنه رقد هناك ميتاً وأن الانفجارات نبشت قبره . وإذا كان يمشى ، بعد أن خرج من القبر ، فمرد ذلك إلى شدة انحدار الأرض وإلى الهواء الذى يدفعه . يجرب حفظ توازنه ومن أجل ذلك يتجنب الصخور بالدوران حولها أو برفع قدميه على نحو شاذ . إن يسقط فلن ينهض ثانية . قوة حدسية جديدة تقول له إن التعب وعدة ليال بلا نوم —ثمان، عشر، اثنتي عشرة؟— والحمى والعطش ستسقط فوقه ككتل من الرصاص ولن تدعه ينهض . السير، السير . يود تفحص جروحه فى لحظة رصانة هادئة . ينحرف أكثر ناحية شق فى الأرض تعمق قاعه الاشواك والعليق . عدد من الغربان يتقافز مستنشقا الهواء ويحلق ويخرج فى أسراب . رائحة لحم متحلل ، ساقان عاريتان من اللحم تحت خرق سروال . يختبئ ولكن دونما حذر . يشعر بالغرابة أن يرى نفسه يرثى لحال بيانشي الآخر الذى مكث هناك ، أعلى الاكمة . يجلس خلف عدة صخور وهساقه المتيبسة يتفحص جرح ركبته . دم غزير لكن الطلقة سطحية والمفصل سليم . لو استطاع أن يبلغ أنوال فلا خطر . هناك ، ينتظره الماء ، الأمان ؛ وربما نقطة الإسعاف ، لو أنهم اعتبروه مصاباً ، ومن يدرى ، ربما يرحلونه إلى مليلة ، إلى المستشفى ، حيث توجد أسرة كما فى إسبانيا وأشخاص بمعاطف بيضاء يعتنون بالمرء .

جثث نصف عارية ، شبه مغطاة بالذباب . ترتدى الأحزمة ، وإحداها لم

تزل تحتفظ ببندقيتها . يفتش زمزمياتها . من إحداها تنطلق ذبابة زرقاء
تطن، ويخرج من الأخرى تراب . ثمّة بعض الخزائن ممتلئ بالطلقات وبندقية
فى حالة جيدة . ينقل الطلقات إلى خزائنه ويلتقط السلاح . آه، ثقل حامل
البندقية ومسؤولية السلاح الغريبة يغيران وجهة أحاسيسه ! يسمع الدوى،
إلى أعلى، يهز منكبيه ويطلق عبارة بلا مبالاة معتادة فى الحياة العسكرية .
ثم يتفحص الأرقام المكتوبة على الياقات : 42،42،42،42،42 . ينتمون
إلى آخر "قول" . يستأنف مسيرته إلى أنوال . بوسعه أن يصل إلى هناك فى
ساعتين . ولكنه عندما يغادر الوهدة يشعر من جديد بالرعب بسبب خزينة
الطلقات وبسبب بندقيته . يفكر : مع ذلك، سيستقبلوننى استقبال الجندى
الشجاع فى أنوال، وإن لم أحمل معى كل هذا، إذا تركته هنا، الحق أننى لن
استحق الحفاوة . أليس كذلك؟ لكننى نفس الرجل من قبل ومن بعد .
إذن... لم يزل يتردد . ومن الممكن أن ينهض كل هذا بدور كبير فى
الوصول إلى هناك . يخرج ويتابع طريقه صوب أنوال، منحرفاً كثيراً عن
المنطقة التى تكثرت فيها القوات المتمردة . الشمس تلفح وجهه كاملاً . لا بد
أن الساعة الآن الثانية، ربما التاسعة؛ وتحت تأثير السهاد، عيناه متعجلتان،
محتقنتان دماً، محمقتان، تخزين، تقطران . يلمس خده الملتهب، ويتابع
السير بالمنحدر الخفيف الذى يقربه من السهل . ثقل سلاحه يدفعه إلى
أسفل .

بغته، حين يجتاز منعطفاً، يرى امرأة عجوزاً وطفلاً من الوطنيين .
كلاهما يحمل على ظهره جرة غليظة ودائرية من الفخار ممتلئة بالماء . توقفا
برهة وراح الطفل يحكم رباطاً من الحلفاء . يترجرج الماء وتلتمع الجرتان
بفعل الرطوبة ورشح الماء . توارى بيانثي غريزياً، دون أن يحول بصره
عنهما . دافع أعمى يدفعه إلى التأكد من أن البندقية مشحونة وإلى رفعها
نحو وجهه والتصويب ناحية العجوز . مازال الماء يصدر صوتاً مع كل

حركة . ويعنف من يكبح جماح ابن آوى، يكبت اندفاعه . فالفرع قد يكلفه حياته . بيد أنه لا حاجة لإطلاق النار . فالمدية لا تصدر صوتاً ويمكنه أن يرشق بها شخصين فى ربع دقيقة . وإذا صرخا؟ المتمردون على بعد كيلومترين وسيسمعونهما بسهولة .

رجرجة الماء ما زالت تسمع وتهيج العطش . فى هاتين الجرتين الكبيرتين، المدورتين، يكمن سر الحياة . الشجر، النبات، الحيوان، لها الحق جميعاً فى الماء، التلذذ به . والظما يشعر به الآن فى شفتيه، فمه، صدغيه، جلده القدر . لو سقط المطر مباغتاً لامتصت ماءه مسامه، كإسفنجة . يتأهب بالمدية فى يده . الدم يغطيه بطبقة شبه مصقولة ضاربة إلى السواد تتحلل وتسقط على حدائه . يستشعر بهجة وحشية وراحة طازجة فى حلقه . يتقدم على أربع حتى السفح، ينهض، يستطلع ضحيته . الطفل ينحنى الآن بمشقة ويلتقط مظروف طلقة بندقية فارغاً . ينفخ فى فتحتة فيصدر صغيراً واهياً فيشرق وجهه بهجة . يفتح بيانثي عينيه على نحو بالغ . منذ برهة وذبابة تقف على شذقه . تشل حركته تلك البهجة البريئة للصبى الذى يستأنف سيرة تاركاً مع رجرجة الماء خيطاً من الآمال .

وحين ينتبه بيانثي يكون بعيداً جداً عنه . يشعر بوسن مبهم ودفين، وساقاه يشتد ثقلهما . ينهض مذعوراً، يتذكر جثث الوهدة ويواصل طريقه غير الآمن صوب أنوال . تجلط الدم فى ركبته وفى يده .

فرسان فى ملابس حفل، نساء بوشم نجمة زرقاء فى الذقن وفى كل خد . نسيم زبد من ذلك التل الأبيض، الفج شيئاً وكأنه من النشا الخشن

المعتاد في كل ثوب مغربي . الفرسان والمشاة يحملون بنادقهم منكبة : يحيي بعضهم بعضاً، يضحكون، بمعزل فيما يبدو عن مأساة R . يوم السوق، وهذه هي الطريق إليها .

يستنتج بيانثي أنه يوم الخميس، ففي كل أسبوع تقام سوق الخميس . يختبئ قدر استطاعته وينتظر، تحت وطأة التعجل والخوف وكذلك شعور مبهم بالدونية أهاجته البهجة السعيدة والخالصة والنضارة الجسدية وتناغم حركات الوطنيين . تباغته نفسه مهمماً بكلمات خائنة . حين يتذكر الطيار الممزق والموتى في الوهدة يكتب شعوره، لكنه يفعل ذلك برعب لن تجد فيه أقل أثر للكرامية . يلبث ساكناً في وضعه غير المريح . الشمس والسكون يصيبانه بالخدر .

بعد فاصل من الصمت، تعاود بطاريات أنوال إطلاق صواريخها الغاضبة فوق موقع R البعيد الآن . مع الصخب، الجماعات الذاهبة والآية من السوق تنظر إلى أعلى وتحث الخطا وتهجر هذا القطاع مسرعة . وحين يشعر بمساندة مدافعنا يستعيد حقه على المغاربة . لا يتمعن، لا يفكر . فكل مشاعره تتولد بمعزل تام عن روحه : تفاعلات كيميائية أو فسيولوجية مجردة . في حقه يغمغم : يا أبناء البغي ! أينبغي أن أتبس هنا؟ .

ينهض ويستمر في سيره، ركضاً هذه المرة ليجاوز السهل الموحش . بعد عدة خطوات يتوقف ثم يواصل في ببطء، يحس بأن قلبه يخرج من حنجرتة في حشرجه نفسه . يتعثّر، يسقط، وجرح ركبته يعاود النزف . تخف نيران المدفعية وبيانثي يرغب في الخروج من هذه المنطقة قبل عودة أبناء البلد . يجرب العدو؛ لكن حذاه يستحيل بغتة كتلاً من الرصاص ويصدر أيضاً صوتاً خشناً وعميقاً على الأديم . يلهث صدره مثل كير قديم ونبضه يصدر لغطاً متسارعاً حين يصطدم الجزء المعدني لأحد

الأربطة بزر في سترته . مع ذلك، يغامر بكل شيء في تلك اللحظات، ويحدو به الرعب إلى الوثب مرتين، ومرة أخرى؛ وبعد ذلك لا يستطيع إلا أن يركض . يصعد منحدرًا، منكشفًا تمامًا، حتى يصل إلى وهدة صغيرة تتوسط السفح الضخم كشريط . ثم تصعد حتى أنوال . يفكر في السقوط داخلها ثم ارتقاء السفح من هناك حتى يدنو من المعسكر . الشمس لافحة الآن وللميدان تحت المدافع صمت كصمت القبور، مقدس وخرافي . يتوقف جالساً فوق كاحليه . جرادة تفتح مروحة وتطير سهماً أو زهرة . يحس بثقل قرب صدره فينتابه دعر . بيانثي يزجر بشيء غير مفهوم . قبل أن يواصل سيره يقيس بنظره المسافة حتى الوهدة . يتقدم على أربع، ينهض، يركض من جديد .

شد ما يكره هذه الشمس في منتصف الصباح، بذلك الصفاء، وذلك الإشراق، وتلك الظلال السوداء إلى جانب كل نبتة عرعر، وكل شجيرة ! عدم اكتراث الشمس يحول المأساة إلى شيء أخرق ومبتذل، بلا معنى . تنتاب المرء رغبة في الضحك .

مرة أخرى رائحة نفاية، لحم متحلل . لا بد أن هنالك جثثاً . هناك، في القاع، العشب البري اليابس حتى الركبة يصعد متتبعاً الشعاب . خرق ملابس، بقع سوداء، ثم، بغتة، شيء خفيف ومغبر وحي . ضبع . بعد قليل، يتكرر العرض . جسدان عاريان بطناهما مرشوقان هوتد واحد من أوتاد السلك الشائك . الضبع كان يتناول غداءه . يكتشف أن الموتى العراة لا يخلفون في المرء أى شعور . لابد أن الزى هو السبب، مظهر

الحياة الهزلى سببه الأردية . الطبيعة تحصننا ضد الخوف من الصورة الخارجية للموت، وجثة عارية لا تصيب النفس بالذعر. بيانثي يستشعر ذلك دون أن يعيه ويتقدم، متأرجحاً كالبحارة .

الشعب مازال يصعد إلى أعلى، يعيد أحياناً مشهداً مكروراً . جثث عارية، ممزقة؛ إحداها مبتورة الساقين إلى ما فوق الركبة وشارة "ضابط" محشورة فى الفم المفتوح . أنذال ! صفيران عاليان . طلقات ؟ من أين تأتى ؟ حين يريد الإطلال على الخارج يسمع بوضوح مدافع أنوال الرشاشة . يحس بالتعب وفى الحال ينهض بإيماء آلية ويستند إلى البندقية . ينتابه خوف من التوقف وسط هؤلاء الموتى فى هذا الشق الذى تحول إلى مقبرة جماعية طويلة . ارتفعت السماء واختفى الظل . على مقربة منه، فوق عشب يابس، سرب من الذباب المائل إلى الزرق . ميت آخر؟ الطنين المتضاعف له رنين معدنى، التماع، عفونة . عندما يمر بين الأشواك والعشب يرى جيفة شبه متيبسة فيواصل سيره، دون أن يتوقف حيال شئ . يخيم كرب عظيمى فى هذا السكون تحت ريح شمالية مميتة تسمع إلى أعلى، وتزحف كذلك، بين حين وحين، بين العرعر والزعر على حافة الوهدة . أعلى، هنالك من يطلق الرصاص . من؟ على من؟ والآن، المدافع . ثمة حفل صاخب فى أنوال . لكن بيانثي لا يضع أى خطة، لم يعد فى وسعه أن يخطط للدفاع عن نفسه، لفراره، أو أن يستجلى مجرى الأحداث . يا إلهى، ما أكثر الموتى ! من قبل كان يسميهم "اللحم البارد" ؛ غير أنه الآن، فى هذه الوهدة، وهو يرى كيف أن الآفاق لا تعدو كونها شريطاً من السماء فوقه، يداخله شعور مباغت بالاحترام : الفرار من نفسه ليصطدم بالموتى المتحللين بين خفق أجنحة الغربان، والاقتراب من المعسكر دون إدراك لوضعه الخاص، معتقداً أحياناً أنهم سيلقون به فى الحبس لأنه لم يصل فى موعد "نوبة الرجوع" ، يفكر

بغثة في أنه لن يخرج ابداً من الوهدة وأن عظامه ستتكلس إلى جانب هذا أو ذاك. يطل على الخارج ليحدد اتجاهه. الأكمة التي كان يتركز فوقها موقع R اختفت. ولا يرى المعسكر لأن الأكمة تحجبه: لكنه لا بد أن يكون قريباً. تمكن من الدوران حول أنوال دورة كاملة؛ ولكن، أهناك خنادق في هذا القطاع؟ المدافع الرشاشة تسمع من جديد على مسافة قريبة. أربع قذائف مدفعية والقنابل تزرع شظاياها قريباً أيضاً، غير أنها جد منحرفة عن هدفها. طلقات البنادق تطرق كأتما المعسكر نار هائلة من الأغصان الخضراء. لا يجرؤ على الخروج أو مواصلة السير.

حين ينتبه يكون جالساً وعيناه ناشبتان في جذر يخرج كثعبان ثم يعود إلى باطن الأرض. على هذه الحال تمر ساعة، وأخرى، في انتظار توقف النيران، لا يجرؤ على مواجهتها. العينان مازالتا ناشبتين في الجذر، على نحو هوسي؛ وفي حنجرتهم، في قفاه، يحس بطنين ذبابة أو زنبور. من حين إلى حين، تنطلق من مؤخرة الرأس دفقتان مضببتان، وكل منهما على حدة تدور حول المخ، تحت الجمجمة، لتجتمع في الجبهة عند بداية الأنف. في نفس الوقت يغفو مرعوباً، لكنه قبل أن تلتقيا ينتفض ويهز رأسه. لديه يقين من أنهما إذا تلامستا بين الحاجبين سيسقط ميتاً أو على الأقل سيروح في النوم، الذي هو في مثل هذه الظروف - كالموت.

النيران لا تتوقف. الظل أخذ في ارتقاء حافة الوهدة ويغطي نصف الجذر فقط. للموتى، في الظل، لون آخر ووضع آخر. فهم لم يعودوا رجالاً ساكنين، جيشاً منفردة، وإنما هم حشد من آلات الموت، يحوطه ويهدده. كلما شعر في جدار الجمجمة بتقدم الطوق المضى يهز رأسه ويحاول تغيير وضعه. المدافع الرشاشة توقفت وتسمع قذائف المدفعية على فترات متباعدة على الجانب الآخر من السفح ثم تلزم الصمت كذلك. شيئاً فشيئاً يفقد بيانثي إحساسه الجسدي بنفسه. يشعر بتنميل

الدم فى ساقيه، وينبض قلبه تحت حامل البندقية فى ضيق خائق . خنفساء تتحرك فوق أصابع قدمه، لكنه لا يحس بلمس أرجلها .
أنوال . أصبح على مقربة من معسكر القيادة حيث سينتهى كل شئ :
عدم النوم، الجوع، التعب . هناك، لابد أن لديهم ماء وخبزاً أو بسكويت
وما يكفى من القوات لكى يتمكن من حين لآخر من أن ينام القيلولة .
الحواس تتعزى بالأمل، أنوال، أنوال، مكان الخلاص . أنوال، نوم، ماء . . .
ونوم ونوم . . . لكن تلك الأحاسيس تتولد فى الهواء، بمعزل عن إرادته
ونفسه . لكى يستعيد وعيه بذاته لا بد أن يتذكر R، حيث من المؤكد
أنهم جميعاً قضوا نحبهم، حتى هو نفسه . فكرة موته هو هذه لا تهجره .
ولكن القاسى هو ألا يكون الموت كالنوم، وإنما يطيل الهم والألم .
وحدة الوهدة أعمق من أية وحدة : لها رائحة، تكشف الهواء، تلف
قلبه بـ "دوبارة"، مثل كرة . يداخله خوف من ألا يكون مات، من أن
يكون كل ذلك حقيقياً وأن تبقى له بعد تلك الضرورة المرعبة : ضرورة
الموت .

همس قريب يجعله يعد بندقيته، بلا خوف الآن، آلياً . كلب ضارب
إلى البياض توقف بغتة على بعد عشر خطوات منه، ويدبر رأسه مسمراً
فى الأرض بعينين محتقنتين دماً . هزيل، شعره متفرق ومبتل بالدم، ظله
يتلاشى رعباً .

يقرأ بيانثي فى عينيه ياساً حانقاً . يتذكر ظهورات الشيطان التى
كانوا يقصونها عليه فى طفولته فى القرية، وتستحيل المفاجأة فضولاً .

يتقدم الكلب، ليس إلى الأمام، بل فى خط زاوٍ وفى بالغ البطء. يلتقط بيانثي حجراً ويشرع فى الصياح لكن صوته يخونه. يركب السونكى وينتظر.

فى مجرى الوهدة يسمع صوت حشد، والكلب يستمع برهة ويخرج وثباً من أحد السفوح.

بيانثي ينهض، يفكر فى الفرار، فى الدفاع عن نفسه؛ ثم يركض دون ركض، يتخذ ساتراً، يتأهب لإطلاق النار ويشعر بالحشد فوقه. هم جنودنا، قوات أنوال! مستودع الماء، وربما المستشفى! يقتربون: فى المقدمة ضابط ورقيب:

— تمام يا أفندم! تمام! أنا من... تمام يا أفندم!
— إيه؟ ماذا تقول؟

الرقيب يزيحه عن طريقه ويأمره بأن ينضم إلى الطابور. للجنود نفس الهيئة الضامرة والذاهلة.
— ماء! أمعكم ماء؟

أحدهم يناوله زمزمية وحتى يأتى عليهما لا ينتبه إلى أنه بول أيضاً.
هؤلاء الجنود من سان فرناندو. يقول له أحدهم:
— إيه، 42، أجئت من موقع R؟

— أجل. وأذهب إلى أنوال. لابد أنه قريب.

— آه، اللعنة، أنوال لم يعد فى أى مكان. الجنرال S أطلق النار على رأسه ومن بقى من 42 خرج منذ قليل فى حرب عصابات تدريبية ليحمى إخلاء الجرحى. لم يبق أحد. بعضهم لن يتوقف حتى يصل دراوشة، ونحن... لن يدعونا ننتشر حتى. نحن هنا ثلاث سرايا.

ينظر بيانثي إلى الخلف. حوالى ستين رجلاً... ثلاث سرايا؟ ثلاث سرايا؟ لكن، إذن...

يتوقف لكي يتقيا جزءاً من السائل الذي عب منه من قبل، عرق بارد
يغطي شعر لحيته بقطرات كبيرة رمادية. يعدو مدفوعاً بمن خلفه، محوطاً
بمن إلى جانبه، والطابور الصغير يطأ أعضاء بشرية، جثثاً، تحت سحابة من
التراب العفن والذباب الأزرق.
بعيداً، يسمع صوت بوق ملحمي ذي نبرة حزينة، وحنين ما لأغنية
شعبية.

السماء ليست إلى أعلى، بل إلى الأمام. وخط الأفق هبط ومر تحت القدم كما في لعبة "نط الحبل". ماذا يعنى أن ينقلب العالم بغثة فوق الزرقة الصباحية الطازجة والرطبة، وأن يمكث المرء هكذا، في مواجهة اللانهائى؟ كلا. كل شئ فى موضعه. ما يحدث هو أن بيانثي مستلق على ظهره فى قاع وهدة ضارب لونها إلى الصفرة ناحية اليسار، فى عدة طبقات. هذا كل شئ. ولكن، ماذا يفعل هناك، ورأسه على الأرض وساقاه ممددتان؟ آه، نعم! كان يفر من شئ، من أحد. من العار مسألة الركض هذه؛ لكن الحقيقة وقبل أى شئ أنه كان يركض بلا أجنحة، منقطع النفس، والآخرين أيضاً: ربما كانوا يسقطون على رؤوسهم، كالآرانب، ويتدحرجون إلى أسفل.

صوت هوق أحد الأولوية كان يوجه نداء استحضر بإشارة 42. لكنه لم يكن 42، غير أنه كان يفعل حتى لا يكتشف أحد من يوجه النداء. الحمقى! نداء جمع كتيبة! الثانية تمزقت عند هبوطها من أنوال؛ والثالثة أبيضدت بين موقع R والغيار فى اليوم الأول. من سيلبى النداء؟ والبواق مستمر بإشارة 42! والموتى، أيذهبون إلى الصفوف، ألهم حصّة طعام، أيؤدون الخدمة؟ إذن! الكتيبة الأولى، المتمركزة فى أفران، كيف ستسمع الإشارة؟ آه، إلهى! هذه حال كل شئ! رائد كتيبة سان فرناندو ذاك، يصرخ فى تشكيل حرب العصابات: قف! قف! ويهدد بمسدسه. من يابه لمسدسه! إلى أن أصابوه برصاصة. والسريتان المتبقيتان من الكتيبة 42 لبشتا فوق منحدر أنوال، وراحتا تنسحبان فى تشكيلين. إحداهما تنفذ تشكيل حرب عصابات بعزم والآخرى تنسحب. ثم تتوقف هذه لتنسحب الأخرى.

لكنهم أبيدوا هناك جميعهم. وانكشف الجيش دون أن يتمكن من الانتشار. وفرت شاحنتان تنهبان الطريق صوب دراوشة. ورغم أن الجنرال S انتحى أراد بعضهم المقاومة متشدقون! أى رجل يساوى الآخر، فيما عدا الذكاء، والجنرال رأى أن الذكاء لن يفيد في شئ فرشق دماغه برصاصته. إلى دراوشة، إلى دراوشة، ومن يصل بوسعه أن يحكى ما حدث لو سأله. يحاول النهوض ويتمكن من ذلك بشق الأنفس. أين هو؟ وماذا يجري خارج ذلك المنخفض؟ حسب ارتفاع الشمس يقدر الوقت. يشعر بجلد ظهره متقلصاً ومتيبساً ومؤلماً، ويحس بألم مكتوم أعلى، ناحية الكتف. بيده الأخرى يتحسس قشرة كبيرة من الطين الحشن ملتصقة بسترته وجلده، ويلمسها. عند الكتف، إلى الأمام، سترته تقطر دماً. تلك القشرة لا بد أنها هي أيضاً دم وطن ممتزجين. يهم بخلعها، لكنه، بوحى من الغريزة، يتركها كما هي، خوفاً من مضاعفة أصابته فهو لا يلم بحالتها. توقفت يده عن النزف، وكذلك ركبته. بقى له من سرواله، من الجانب الأيسر، ما يغطي نصف الساق، وفقد طماقيه. يسير حافياً وباطن قدميه متشقق. يقف عليهما بصعوبة لأن مفاصله، بدورها، تصلبت. الصمت والوحدة مطلقان. يسعل فيحس بقصبته الهوائية تحترق، كأنما تجرع حامضاً. لكنه لا يبصق دماً. حمداً لله. إصابة الكتف لم تبلغ الرئتين.

يرتقى ربوة وبطل منها: سهل رمادى، مقفر، عمره فقط بقع طويلة تؤلف أحياناً عناقيد من ثلاث أو أربع. وراءه، قمم تازة. هذا يساعده في تكوين رأى. هناك، الشعب الذى سقط فيه الكثير من فرقة سان فرناندو والكتيبة 59. أجل. إنه فى طريق دراوشة. سار حوالى ثلاثين كليومتراً فيما وراء أنوال. متى؟ ارتفاع الشمس يشير إلى ما قبل منتصف النهار بقليل. أمس، كان أمس، حوالى منتصف الليل. ضل فى الوادى، سقط فى الوهدة ربما حين أصيب بعيار. كيف سار كل هذه المسافة؟ آه، الظما: الظما مرة

أخرى! والمغاربة؟ أين هم لأن هذا يبدو مهجوراً منذ قرن؟ أرحلوا إلى الداخل بالغنائم؟ هناك، يرقد الملازم N عارياً وشارته مرشوقة في عظمة العضد. وإلى اليمين قليلاً، ناحية الطريق، ثلاثون جثة على الأقل، وثلاثة بغال من قطاع الرشاشات مبقورة، وثمانية أو عشرة صناديق ذخيرة فارغة ومنبوعة وهيكل سيارة أحرقت.

ينتمى السهل إلى كوكب ليس كوكبنا. كوكب ميت، أباده غضب رؤبوى. صمت وموت لا نهائيان، بلا آفاق، ممتدان في الزمان والمكان حتى الأصل والنهاية السحيقين. الأرض بيضاء؛ الشجر نادر ويابس؛ السهل تقطعه ألف طريق غير مرئية من الوحشة. مغاربة موتى، إسبان ممزقون. الوحدة تصرخ في الشمس في ألف ومضة بلا صدى: "أنت سترحلين من الغرب، وأنا من الشرق، وفي النهاية نلتقى في ملتقى التعاسة". بلا أى حفيف للريح، بلا طائر، في الصمت الذي يوغل في الصباح حتى الزرقة الضاربة إلى السواد لآخر صبح في الكون.

— إلى أين؟

بثلاثة أحجار كبيرة صنع جندي ساتراً ومن هناك يستطلع المكان في كل اتجاه. شعره أبيض تماماً. بندقية مستندة إلى الساتر، ثلاث خزائن، خمس عشرة طلقة.

— لا تأمن. رغم ما يتراءى من أنهم ذهبوا هم قريبون من هنا، ومن حيث لا تدري يفتحون عليك نار رشاشاتهم ويصوبون نحو شعرك. وأنا أفعل ما يخصني. أترى أولئك؟ جميعهم مغاربة قتلهم هذه الليلة. إذا

أطللت هناك، فى المنعطف، ثمة أكثر من مائتين.

— أتريد مزيداً من الطلقات — بيانثي يعرض بلا فهم:

— وفيم تفيد؟

بيانثي يديم النظر إليه ثم يقترح:

— تعال معي إلى دراوشة!

يغرق الآخر فى الضحك فى فهقهات معتمة، دون أن يهجر تعبيره الصموت:

— أنا؟ لا أستطيع السير، أدوس على عظامى. جئت من R وثباً فى المنخفضات.

إحدى قدميه مشوهة، ملتهبة، باطنها ممزق.

— ألا يستهلك الحذاء؟ حسن، الشئ نفسه يحدث للقدم. إذا كنت ذاهباً إلى دراوشة أخبرهم ألا يخشوا شيئاً فهانذا هنا أحمى الطريق.

— من أية دفعة أنت؟ تبدو عجوزاً.

— عجوز مثلك. ثلاثة وعشرون عاماً. أديت الاختبار لدرجة حكمدار وثمة اقتراح بترقيتى لحين يصدر الأمر.

يود بيانثي تذكره. من سريره فى موقع R، كان ثمة رجل "خفيف". لكنه لا يتذكر. ومجهود الذاكرة يصيبه ببالغ التعب. ينظر حوله ليحدد موضعه. بعيداً، السهل خاوي. والجثث أغلبها من قواتنا. ينبع كلب بعيد. صوب دراوشة، تكتسى الآكام صفرة، وفجأة، تشق قمة جبل زرقاء داكنة تلك الزرقة الأخرى الشفيفة، زرقة السماء. يهم بمواصلة سيره.

— ألدك ماء؟

— أتحسبني مستجداً أم ماذا؟ ثلاثون شهراً وسط هذه الأراضى القاحلة.

ماء، أنا؟

يعاود الضحك. والضحكة لا تبلغ أسنانه، بل تبقى حبيسة الصدر بين

خرق الكاكي، وتصب من شذقيه مزيداً من الطين. يصبر بيانثي :
- أتريد طلاقات؟

- حسن، أعطني واحدة. واحدة فقط. في الليل، أولئك المغاربة ينهضون ويحضرون إلى هنا. لا تأمن لهم وإن بدوا كالموتى، فذلك الذي هناك هو "القط"، والقطط "بسبعة أرواح".

بيانثي يترك له رصاصة، دون أن يفهم تماماً كلمات المجنون. بعد ذلك، وبلا رغبة، يخرج في طريقه إلى دراوشة. بوسعه أن يصل إلى هناك عند المساء. لا يحس بالجوع، لا يحس بمعدته. لو لم تلفحه الشمس الحارقة، لن يحول الظما دون وصوله إلى الحصن. لم يكد يخطو عدة خطوات، يعود ليقول للمجنون بصوت خفيض:

- أتدرى فيم أفكر؟ حدث هنا شيء رهيب!
يقول الآخر معتداً:

- ماذا بوسعه أن يحدث! وذلك جنون.
- حسن! لنتنظر ونر.

وبيانثي يذهب في غم يثير ضيقه.

موتى، موتى في كل مكان. الإحصائيات ستعلن فيما بعد الرقم: اثني عشر ألفاً. لا تنبعث منهم رائحة كتلك المنبعثة من وهدة أنوال؛ لكن يجب أن نضع في الاعتبار أن الهواء هنا رحيب. ينظر إلى الجثث كما لو أنها لا تمت إليه بصلة، كما لو أنها جزء من التضاريس الطبيعية للمكان. الشمس تلهب ظهره، وبيانثي يسير ويسير، يستخدم البندقية

عكازاً، ورأسه مكشوف - أين فقد طاقيته؟ - وشيخوخة، هرم ثقيل فى عظامه. يتخذ إجراءات وقائية بحكم العادة، فلا يتقدم دون أن يحل شفرة أقل ظل، أقل انحدار موات. نظره يكشف الطريق من مسافة كيلومتر. عن بعد، ثمة من يجلس على صخرة، بجانب شجيرة من تلك الشديدة اللزوجة. أيحمل سلاحاً؟ كلا. وله هيئة جندى. مظهره الوداع يؤكد له ألا خطر فى هذا القطاع. هنا، استنفد الخطر كافة احتمالاته. الحق أن الصمت مطبق، لا صوت لطلقات فى أى مكان. آه، دراوشة! وإذا بلغ دراوشة! سيسقط تحت وطأة البؤس، والدم الذى فقده، والقمل الذى لا يهدأ مثله مثل الحمى والشمس، ولكل شيء سيكون ثمة علاج فى متناول اليد.

عندما يقترب ينهض الجندى؛ يريه مسدساً بلا ذخيرة. عيناه مغرورقتان، وفردة حدائه ملطخة بالدم. يمد له زمزمية شبه ممتلئة بسائل داكن يعب منه بيانثي فى لذة.

- هذا ليس بولاً.

- كلا. جعة.

ينظر إليه بيانثي دهشاً. يرتدى سترة جندى قذرة وحائلة فى عدة مواضع لكن السروال له هيئة لا تقبل الشك.

- من أية كتيبة أنت؟

- أنا ضابط.

- تمام يا أفندم! جئت من R. أين أسلم نفسك؟

يهز الضابط منكبيه ثم يتمتم:

- اسخر كما تشاء. لم تعد لى شىء أهمية.

يلاحظ بيانثي أن إحدى قدميه مهشمة. لا يبدو الضابط ثقيل الوزن.

- سأحملك على كتفى قدر احتمالى.

— ذاك محال . أنت أيضاً مصاب . سأحاول السير أو أنتظر أن يتقدموا من دراوشة .

بيانثي يديم النظر إليه . والضابط، حين تحدث عن دراوشة، أشار إلى الاتجاه المعكس . ينبهه بيانثي في ضيق:

— دراوشة ليس من هناك، بل في هذا الاتجاه . كيف بالله ستصل إلى دراوشة من هناك .

يخاطبه بلا صيغة احترام عن قصد، في صنف من التآخي في المأساة . يكتشف الآن في الضابط اليأس الذي لا يكاد يستطيع كبحه والذي يطفح لدى مخاطبته بلا صيغة احترام . تسمع طلقات بعيدة، ويجيش الضابط بالبكاء . بيانثي، بعد أن ردت إليه الجعة قواه، يستاء:

— ضابط؟ أنت ضابط؟ أنت نفاية! خلعت سترتك حتى لا يروا شارتك . اعترف يا رجل!

مندفعة، متارجحة، شبحية، تأتي سيارة في سرعة لا تصدق من طريق الدواب، تتقدم وثباً . تتوقف فجأة ويركض بيانثي ناحيتها . يتجه الضابط وهو يعرج في بطاء شديد، وبارقة أمل في عينيه . تتوقف السيارة ويرتقى بيانثي سلمها .

— تمام ياسيدى القائد!

قائد لم يزل شاباً، له تعبير صموت، نحس تقريباً . وضابطان ينظران إلى ناحيته في حذر . القائد يسأل بإيماءة وبيانثي يزعم:

— أنا من السرية الثالثة من الكتيبة الثانية، وجئت من R . يسكته بإيماءة . تسمع طلقات قريبة .

— كيف الحال هنا؟ أين هذه الطلقات؟ والجنرال S؟

— سيادة الجنرال انتحر .

قائد السيارة نافذ الصبر . القائد والضابطان يحملون مسدساتهم

مستعدة لإطلاق النار. بيانثي يثبت يديه فى حافة السيارة ولا يكاد ينتهى من تقريره العشوائى. يقول القائد :

— حسن، حسن!

ثم يدفعه إلى الخارج فيما يبدأ تحرك السيارة. بيانثي يتوسل، يتمتم بعينيه :

— ثمة مكان إلى جانب السائق: أصبت بثلاث طلقات يا سيدى

القائد!

بيد أن القائد لم يزل يدفعه، وحين يرى أن بيانثي مازال على السلم يضرب أصابعه بمؤخرة المسدس فى غضب. الضابط يلعن خلفه. بيانثي، بإصبع مكسورة، يطلق يديه ويسقط إلى جانب الطريق. والسيارة، مرة أخرى متدافعة ومتهالكة، تركض مخلقة وراءها لهات المحرك المتسارع. والضابط، غاضباً، يائساً، يسلب بيانثي بندقيته ويطلق ثلاث طلقات على السيارة التى تزيد من سرعتها. يتقيا الضابط سباباً. وبيانثي، محاولاً تحريك أصابعه، يطلب منه البندقية، يهز منكبيه ويمضى، يفكر: "القائد يفر ويمضى فى طريقه. أنا أيضاً ما كان على أن أتوقف وأضيع الوقت مع هذا الأحمق".

السهل آخذ فى التقلص قليلاً صوب دراوشة لتشق طريقها عدة آكام إلى اليمين، يتلاشى فى بعد أخضر داكن من أشجار التين وعش الغراب. إنها القبائل، والأدوار، حيث يستعذب الأهالى فرحة النصر. الطريق إلى دراوشة تحدد معالمه الجثث، أعمدة الهاتف التى يغطى قممها الغربان بطلاء لامع.

والى الخلف قمة تازة بأعمدة دخان الحرب .

يود بيانثي أن يركز خياله، أن يتذكر كيف تمكن من اختراق الجبال، فتتملكه مقاومة عنيدة للعود على الماضى . كل شئ يدفعه إلى الأمام، كل شئ موجه بالغريزة لتوقع الخطر، حدس الصعوبات؛ وبذلك الانتباه المتوتر الذى يفوق قواه تتقدم قدماه أسفل جسده المتردد بحزم وثقة فوق العادة . لا يريد النظر إلى الخلف، يزدري الضابط، لم يغد يفهم صيحاته المتعبة والمشوشة . لكنه يصيخ السمع ويتمكن من ترتيب بعضها . يتوسل إليه أن يطلق عليه رصاصة، أن يقتله :

— هراء !

تغطى السماء سحب بيضاء تحجب الشمس لكنها تزيد الضوء شدة وتصبغه بزرقة قمرية . أعمى، أصم، مخدر الوعي تحت وطأة مشاعر جديدة، يسير بلا توقف، بلا تعب، قدماه شبه مسلوختين، وثقل فظيع فى كتفه . لا يهم . الجعة توزع الآن طزاجتها المفيدة وأخذ يحس بها أيضاً فى جلده، بالعرق . السهل لم يزل فى سلام أشد غوراً من الوحدة المجردة، لأن السلام المطلق، الوحدة التى لا يسبر غورها واللائهائية، يراها على نحو متصل فى عين الموتى . أحياناً يركض فيحس، وسط السكون، أن خطواته ونعاب الغربان هما التعبير الحى للوady . يدنو من نقطة مراقبة تتصدر هذا القطاع، على الطريق . المزيد من الغربان أعلاها، فوق السلك الممزق : جثة تستند إلى عمود الهاتف بوتد من الفولاذ مرشوق فى صدرها . شئ ما يهبط، يصطدم بالحجارة، يسقط من المنحدر . يتعقبه غرابان على مستوى الأديم، وذلك الشئ أو الحيوان الغريب يتضاعف اندفاعه ويسقط فوق حجر وتخمد حركته فوق الطريق . رأس بشرى حصد عند مستوى الفك، من كثرة ما به من ثقوب لا يبدو من لحم . فالغربان، بمهارة حقيقية، تلتقط العينين وتفر بهما . بيانثي يتجنب أن يعثر به ويواصل طريقه .

حين يجاوز أكمة تظهر، على البعد، دراوشة. السهل المغطى بشجيرات يرتفع بعيداً، في تدرج كبير، وفوقه، إلى اليسار قليلاً، يرى بياض العنابر، بعض الخيام. هنالك شئ غير متوقع ومباغت، كأنما اضطروا إلى مواجهة واحد من تلك الأعاصير التي تقتلع الخيام وترفع سقوف الأكواخ. جزعه يحدد لنفسه هدفاً، وبؤسه غاية. ما أعذب أن تصبح الأحلام مادة حية! لكن السهل، المعتم تحت تلك الشمس المضربة، لا يحيط به جيداً. ثمة الكثير من الشجيرات. وثمة أيضاً حماية للطريق. لكن الخيل لها ذبول كثة وطويلة، حتى باطن الركبة: عربية. على مسافة جد قريبة، يرى شاحنتين محترقتين وسط الطريق، تحوطهما ظلال بشرية ممددة. هنا، هناك، تسمع طلقات متفرقة. محال مواصلة التقدم: كل مكان محتشد بالمغاربة، وفي الهواء تهز الأذنان رياح الطلقات الطائشة الباردة. يحيد بيانثي عن الطريق، ينحرف نحو بقعة غير مستوية تسودت فيها الأرض بين الصخور، ومن مخبئه، يراقب. بعيداً، يشتد تراشق النيران. عدة قنابل تخرج من حيث لا أحد يدري وتتفتح بالونات وبالونات رمادية على مستوى الأرض. يرى المغاربة بوضوح: يملأون السهل. يطلق الفرسان بنادقهم في الهواء ويلتقطونها وهم على ظهور الخيل. تسمع أصوات عربية قريبة، وبيانثي، مفزوعاً، يكتم أنفاسه. إنهما مغربيان في حوالى العقد الرابع من العمر، يحملان بندقيتيهما من حامليهما ويغزان السير مشتبكي اليدين. يسيران متلاصقين، ليس لأنهما حميمان بل لكي يطمئن كل منهما الآخر أنه لن يسرقه في غفلة منه. وحين يراهما يتحدثان، في أدب، رقيقين، يبتسمان دائماً، من الصعب جداً أن تنتبه إلى ما يخفيانه من قسوة سنورية. يتوقف أحدهما، يخرج من حافظته الجلدية الضخمة أنبوب معجون أسنان، يبسطه فوق قطعة خبز ويأكل بشراهة مستلذة. بيانثي، وسابته على الزناد، يترقب كي يفتح عليهما النار إذا ما اكتشفا وجوده.

يتلاشيان صوب الجبل. في غضون الساعة، سيكونان على مرأى من الضابط، وبعده بقليل، سيكون بوسع المجنون أن يصبوب نحوهما في يسر. لا يجرؤ بيانثي على الخروج من مكمنه. سترة مضمخة بالدم تظهر فوق شجرة زعتر. على الياقة لم يتبق سوى رقم معدني واحد : 2. لكن، إلى جانبه، يرى أثر رقم 4 محتفظاً بلونه. للصباح درجات لونية حائلة. طبيعي. نرف كثيراً ولن يشفى أبداً من هذه الأنيميا، أو يستعيد مظهره الصحي.

في مرقد، يرتب بيانثي ذكريات وإيماءات قديمة. وهو، مؤقتاً، هادئ بما يكفي لكي يفكر، والساعات بطيئة. بعد أن انتهى كل شيء في R وفي أنوال، يشعر بخواء معرض وغير مكترث، ورأسه يدور به مازجاً ومخطئاً أحداثاً وأسماء وأشياء. فيم يهم الموت؟ البقاء ممدداً في الطريق أقل ما يمكن أن يحدث. الحق أنه مات مرتين. حين انضم إلى الجيش مات الشاب الشجاع، الواصل، ذو الحدوس الكونية الرحيبة؛ بعدها تلاحقت التفاصيل النافهة والشواغل الحقيمة وإحساس بالمطاردة والحق قد فيما تبقى: هو أيضاً لم يكن هو نفسه. فالرؤساء، فيما عدا الحكمدرات، كانوا ينظرون إليه لماذا؟ - كمن ينظر إلى مجرم، بازدراء وجفاف وبرفض للحميمية والثقة. ارتاب من أمره، بلغ به الأمر حد الهوس بنقصه، بدونيته.

تأخر في اعتياد حياة الشكنات عاماً؛ لكنه، في نهاية الأمر، شعر بتماهيه مع السخرة والبله، مع المداراة والخبث. كان لديه أصدقاء، أعداء، كما في حياته السابقة، وتبع كرب حياة بلا معنى، ونظام لا أحد يفهمه

لم كل ذلك؟-، وهن ناعم ولا طعم له، تراءى له -في خاتمة الامر- افضل سلاح لمواجهة الزمن. لا يفتأ يرى ما لا يقهر منسحقاً، وبدل أن يعود كما كان يظل خاوياً وميتاً أمام السهل المكتظ بالجثث.

الحمى تضرب صدغيه ويعاوده الشعور، داخل الجمجمة، بطنين أسلاك تلغراف، وبرأسه خاوياً وفائراً. لم يزل ميتاً وحيّاً في تباينات شاذة، به شيء من مقبرة وصخب وحركة سوق. ارتجلوا خياماً للشاي تحت مظلات ذات خطوط ملونة. يرحل المساء في بطاء. السماء ملبدة، والسحب البيضاء تستحيل بنية ورمادية. جرب بيانثي متابعة السير حين لاحظ اختفاء الفرسان والخيام العربية لكن لم تنزل هنالك جماعات متفرقة. يفاجئه ألا يفتحوا النيران من دراوشة على السهل. لو فعلوا لقتلوا مئات المتمردين بلا أي خطر. وهذا لغزود بيانثي لو يستطيع أن يحله. فقط، على أحياء متباعدة، تسمع طلقات متصلة على بعد غير محدد. والقذائف الأربع أو الخمس التي أطلقت نحو منتصف النهار أثارت اهتماماً ما لبث أن تلاشى. تأتي الرياح حارة، عاصفة، ولا تحمل صوت بوق، بل صوت التنائي ذاك الذي يشدو ليلاً بالكرب الكوكبي. والهواء، الأشد سخونة وثقلاً تحت السحب، يعوق ترتيب الفكر. والتعب والظما -مرة أخرى الظما- والإحساس المتزايد من جديد بالخطر، تفرض على الأفكار سرعة مقتضبة، لا صلة لها بالإدراك الذي يدير ويوجه. وفي ركبته وخز خارق يمنعه من اتخاذ وضع مريح. لم لا يقصفونهم من دراوشة؟ هل تردد المغاربة في المعسكر قبل بدأ الهجوم؟ الآن يقتحمون الساتر، وبنادقهم على أكتافهم. هم مغاربة ولا ريب، رغم أن من العسير تبينهم. أيتحدثون؟ لا تأمنوهم، سيخونونكم. ألا ترون هنا، وسط السهل، هاتين الشاحنتين يحوطهما الموتى؟ قد يكون هؤلاء مغاربة من الموالين لنا، متمركزين ليوقفوا تقدم المتمردين؛ لكنهم، في تلك الحالة، لماذا أطلقوا من قبل تلك القذائف المريبة؟

يدور أى احتمال بخلده فيما خلا أن يكونوا هاجموا الحصن . ما زال لديه إيمان بالقوة، "بحرمة" المنطقة، بحامية الحصن . ومع ذلك، انطباع مبهم ومهلوس يحدو به إلى قبول احتمال أن السيل يتقدم أمامه بقوة تدمير هائلة وأنه مر بدرأوشة كما مر من قبل بأنوال . آه ! لكن هذه الفكرة تغوص به تحت ضغط غير مادي فى ضوء المغيب الكابى . إنه الرعب، تحية الرفاق بين تلك الجثث المشدودة إلى وتد على نحو صرعى أو إلى السياج المرشوق فى صدورهما أو بطونها والمثبت فى الأرض . هجر الحصن كذلك . ودراوشة لها نفس المظهر الميت والمظلم كأنوال . يعى ذلك فى ساعة التشاؤم المحيرة هذه، ساعة عتمة العقل والخواطر الحدسية والصائبة . وراء دراوشة تكتسى السحب حمرة . والشمس تغيب إلى اليسار قليلاً : ليس هذا الشفق، بل حريق . إلى اليمين، على مسافة أبعد بكثير عن الحصن، خط الضوء كمدينة صغيرة مضيئة . نشبت النار فى الشجر والعشب الجاف .

رعود طويلة ومعتمة تأتى من البعيد الغامض . أهى بطاريات يستيتين؟ أم بدأت العاصفة؟ فالسمااء تهدد بكل صنوف غضبها، من الأسود الفاحم للأفق الذى محته ثم مدته أنامل قدرة حتى المظلة التى ترفعها فوق رأسه سحب مسرعة ومتقيحة كدخان قاطرة . والسهل؟ تشتتت نفس الظلال الممتدة، الداكنة الزرقة أو السوداء، التى لم تكن ترى جيداً تحت الصخب . يحس بيانثي بالشلل . أصوات حشد بعيد تجعله يكتم أنفاسه ويصيح السمع . لا يتبينها، ينبطح ويضغط أذنه إلى الأرض . خيل تركض . صخب مظفر يهز الأرض وينتقل إلى الأعصاب المشدودة . فوق الهواء الوادع،

الساكن تقريباً، الذى يوغل فى الصمت ويفتح حول الجثث مشكاوات من زجاج قدر، يأتى ذلك الحشد بعنف باسل ويسبقة نسيم من الزبد والفولاذ. فولاذ رشيق، مظفر. ذلك اللغظ البعيد يصدره المظفرون، الأقوياء. لا مغاربة ولا إسبان. كائنات عليا، ملائكة، شياطين، جمعهم بدروع وسيوف من نار.

يستشعر راحة كبير، يجرب الخروج ومواصلة طريقه. ثلاثون كليومتراً أخرى حتى يستيتين. بومعه أن يقطع هذه المسافة، لو حث خطاه ليلاً. لكن الوقت لم يزل مبكراً. والضوء لم يخفت بعد وتكثر ظلال مريبة. والظلمة آتية من بعيد، حثيثة، تمحوطه، تحاصره رويداً، تحين لحظة تتوقف فيها، لا تعاود التقدم: جن الليل. يفرق السهل فى غموض مزدوج، وحين ينهض ويهم بالتقدم تتقهقر الظلمة. يأتى الحشد، يقترب نسيم ساخن يهز خصائل ميت ثم خصائل بيانثي. يرتجف، يشعر بحدة ذلك الثقل العضلى الروماتيزمى فى كتفه.

بعد أن يجاوز سفحاً، يعن الحشد فجأة. فرسان محدبون فوق القرابيس، سنابك فولاذية تطرّق وتصدر شرراً من الحجر. بيانثي المنبطح أرضاً لا يتمكن من معرفة من هم، أو ما الأمر. فى المقدمة يرفع أحدهم ذراعه فيتوقفون لاهثين ثم يتابعون سيرهم ببطء. لا أحد فى السهل. لا ريب فى أنهم كانوا ينتظرون شن هجوم واكتساح جيش أمامهم. طلقات من هنا وهناك تصدر كالسياط. تسقط كتلة على الأرض فى شدة ويجمع جواد طليق فى الظلمة. يتابع الحشد طريقه ركضاً وحين يلتفت بيانثي يكون اختفى ليعود الصمت إلى السهل. يدنو زحفاً من الظل الذى يرقد بلا حركة على الأرض مغمغماً. إنه أحد أفراد فصيلة "أ"، يتحدث:

— الجوادا من أنت؟ اذهب وابحث عن الجواد.

. فقد الجواد فى الظلمة . الرأس ، القاسى والمتين والمندى بالعرق ، يلتفت إلى بيانثى :

– أما زال هنالك ناجون من 42؟ أنتم كالعطاءات ، يشطرونكم ثلاثة أجزاء ولا تزالون تحركون أذنابكم . سقط أكثر من ثلاثمائة خلف هذه الأكمة .

بيانثى يعلم الآن أنهم انسحبوا من دراوشة وأن الفصيلة تهيم على وجهها ، بلا هدف ، وتفعل ما بوسعها فعله . نجح حوالى ستين رجلاً ، لهم أكثر من ثلاثين ساعة على أسرجتهم . تسقط الخيل ميتة يغطيها الزبد . لا يريد المقدم الانسحاب ، ولكنه ، وإن شاء ، لن يبدل من الأمر شيئاً .

– ههنا لا شيء يُفهم ! أنا أعتقد أن الثورة قامت فى إسبانيا وأن الملك والدوقات والأساقفة ذهبوا إلى الجحيم . وهذا لا يعنينى فى شيء ، فهذا سينتهى عند الفجر . كم من الوقت يحيا مسيحى بعيار فى بطنه ؟ فى المستشفى ، محتمل ، لكن هنا : ست ساعات .

يتحسس بطنه ويفرك إبهامه بأصابعه الأخرى :

– لا يخرج دم حتى !

يزحف حتى بعض العشب البرى ويتوسده برأسه . بيانثى ينظر إليه فى صمت :

– إذا نجوت ابحث عن المسؤول عن هذا واقتله . الحياة ها أنت ترى كم تساوى . فقط تستحق العناية فى وجود قليل من العدل فوق كل هذا الروث . فإن هم لم يقيموا العدل أقيموا أنتم . خذ هذه الرصاصة النظيفة .

كنت احتفظ بها لاشج بها رأسي لكنني على ما يرام هنا. احتفظ بها أنت وأنصت لي. ابحث عن المسؤول عن هذا واقتله، فإذا كان ثمة رب في السماء فيساعدك في التصويب.

بيانثي يأخذها ويحتفظ بها. لا يتمكن من ترتيب أفكاره. تملكته فكرة الثورة. سيكون دوق قرينته قد ذهب بدوره إلى الجحيم؟ يضحك. يسأله الآخر:

لم تضحك؟ الأمر ليس مبعث ضحك. أم أنك معتوه؟ يذهب مغمغماً فيناديه الآخر:

— أنا بنيتو: من توريس دل غواديانا.

بيانثي يهز منكبيه:

— ثم ماذا؟

— إذا خرجت حياً بوسعك أن تكتب هذا إلى الشعب. أم أننا سنموت دون أن يعلم بذلك أحد؟

يتقلص فوق ركبتيه ويصدر شخيراً ممتداً. بيانثي لا يدرى بم يجيبه:

— لو أن ثمة ماء هنا لأحضرت لك على الأقل زمزية.

— لكي تجده لابد من أن تسير ساعتين، وآخرين للعودة. أي علاج هذا فضلاً عن أن ذلك الماء مسمم. لقد حذرت ثلاثة من 42 من ذلك. لكن الظماً تمكن منهم، وهكذا لبثوا هناك، وخطومهم في البركة. ماتوا بعد أن رروا عطشهم جيداً. هذا حق.

ثم يضيف في غضب محموم وأنفعال لحظي لمثل غير موهوب:

— سوف أموت. أتسمعن؟ لكنهم إذا كانوا يظنون أن لا أحد سيتذكرنا فثمة مفاجأة تنتظرهم. أقسم لك. أجمت من أنوال؟ من هناك فيما وراء الجبال كل الأرض مزروعة برجال هشمت رؤوسهم وبقرت بطونهم. كل منهم لديه أسرته وأصدقائه وهذا الدم سي جلب مزيداً من

الدم؛ تذكر ما يقوله لك محارب قديم. إذا ذهبت إلى هناك، من هنا إلى دراوشة يمكنك أن تحصي الموتى بالعشرات؛ ومن دراوشة إلى الورااء بالمئات. أنا وأنت سرعان ما سنكون اثنين آخرين مثلهم، لا تحلم؛ لكن هذا لن ينتهى هنا ولا في يستيتين ولا في ليلة. هذا ما يوده من أعرفهم. آه، اللعنة، كم يخطئون! أنا في الثالثة والعشرين من عمري، أمن العدل أن أموت ككلب في الثالثة والعشرين من عمري، بعد أن هجرني كل أولئك الأندال؟ مقدم فصيلتي، لكي ينقذ سمعة الضباط الذين ينزعون شاراتهم ويفرون ركضاً، يهيم على وجهه ومعه الفصيلة ليل نهار، يصطاد المغاربة بحد السيف ويقطر دماً. والخيل أصابها السعار، تعض وترفس، لكن الظلال تعض أيضاً وتقضمك في رقبتك وبطنك. جميعهم ينزف من ركبتهم لأن سرج الحصان تعض أيضاً، وتسقط من السماء طيور تخط وجهك من جانب إلى الآخر بمناقيرها. وتصيبك اللعنة، يا جندي ثرينيولا. لا يوجد ماء لأن الشاحنات هوجمت في الطريق. والبنزين رديء ومع ذلك يشربونه في المستودع. أشعل النار فيه وسترى. وهناك، ثلاثة أوعاد يطلقون الصواريخ من قبيل التسلية؛ لكن لا تذهب إليهم لأن القائد سيحرر لك مخالفة. ماذا تفعل هناك؟ اتجه نحو اليمين وإلا فستحضر العجوز ومعها كماشة ساخنة!

صمت يتنفس في تعب، صمت حذر. والليل، الحالك، يتصبب عرقاً تحت نسالة السماء القذرة وله رائحة نفاية. بيانثي تسكن حركته تحت الأصوات. الظلال تعض، حقاً. يرى الآخر يمشي على أربع، يزمجر ويسقط لينهض فيما بعد ويسير بلا هدف، كحيوان بائس. يعثر في عدة أجساد ويعاود الصياح، فلا يكاد يفهم له شيء. بعيداً، تهتز الظلال، وبيانثي يتقهقر على عقبه، فيما بعد، يركض بكل قواه، يفر صوب دراوشة، يحس بعدوى حمى الرجل الذي يحتضر، لكنها حمى نشطة ودينامية تولد فيه

تقريباً قوة الانتشاء بالخمير. يطاء شيئاً رخواً ومتخشباً فيهبز قدمه فى الهواء دون أن يتوقف عن الجرى. إلى الخلف، يسمع صرخة وضربات فأس تمزق شيئاً رخواً وصلباً: ساقى الجريح لكى يحملوا الطماقين والحذاء إلى مكان آمن. رأى ذلك من قبل يحدث لضابط ميت، لدى هبوطه من أنوال.

الافق ناحية أنوال مضاء بخط ذهب يشع فى الليل كخط من أنابيب الإنارة الكهربائية. يبطئ بيانثي الخطى مختنقاً من التعب. برق رهيف يضئنه تماماً ويدخله شعور بأنه بات كفيفاً. ذلك الضوء الشبحى كشف له أن كل شئ، فى ذلك القلق المبهم للظلال، لم يزل على حاله كما فى النهار. الرعد واه وبعيد، لكنه يعزز الوحدة ويكشف عن عظم وحشة تلك البطاح التى يصل إليها. الخوف أمسى ميتافيزيقياً، فيتلاشى معه الجوع والعطش وألم الجروح البدنى، يسخن الدماغ ويملؤه بأنوار خطر مبهمة، بدوي لا يفهم. برق جديد وطلقات متفرقة. تمر طلقتان عالياً، فى صفير حاد.

بيانثي يخشى البروق، يعتقد أنه انكشف فيترجع مسرعاً، يغير اتجاهه، يصطدم برهوة صغيرة فيرتقى أسفلها، يخبئ البندقية تحت بطنه. ظاهر يديه، خده، قدماه العاريتان -بفردة حذاء واحدة- تلمس الأرض. فى سكونه، يحس بيانثي بنفاد صبر وحشي. شفتاه تلمسان حجراً ونفسه يرتد منه فيشوى جلده. يسمع رعداً جديداً، تسقط قطرات، ويزمجر السهل بالهمس. تسمع من جديد طلقات قريبة فى دقات متتالية. إنهم المغاربة، لكن أحداً لا يتصدى لهم. الطلقات لا تسمع وهى تمر، والليل

يحصدها في أحشائه القطنية. قطرة أصدرت رنيناً معدنياً فوق علبة من الصفيح، هناك إلى جواره.

صمت الصحراء يعقبه، مع الماء، هسيس غابة. القطرات الأولى تسقط كالأعيرة النارية فوق بيانثي الذي يتقلص، يود أن ينحشر في الأرض. لكن شيئاً جوهرياً وفي نفس الوقت أثيراً وطليقاً يرتفع فوقه ويشير انتباه أعين الليل الألف. على رقبتة ثقل قدم عارى من اللحم ويتردد صوت في قبة الجمجمة : الموت، الموت، الانتقال إلى ذلك الخمود البارد للموتى، الانضمام بعد ذلك إلى قافلة الذكريات التي لا يتذكرها أحد والتي تهيم وحيدة في صفوف من سحب ممسوخة. ثم الحشد الذي يقوم من جديد، شديد السرعة، في الظلمة، بمقاومة آلية، دافع مسعور، ليقيس غور الليل ووحشته. برق متذبذب يضيئ الجياد ذات الرقاب المبتورة، الظلال الجامدة للفرسان الملتحمين في ركض موحد.

دفعات نارية أخرى. يسقط بعضها، والفراغات التي تخلفها تشحن من جديد وركض الخيل يسحب الجرحى ويقضى عليهم وسط الغبار. وجوه يابسة، شاحبة، بظلال جماجم قاسية تحت الشعر الأشعث أو الخوذة أو مؤخرة الرأس الحليق، أكتاف ناتئة وصدور غائرة. ظلال تخطت بالفعل الاعتبار، خلفت وراءها الضوء حتى لا تعود إلى البيت، وتهيم بوازع من الانضباط الذي هو أبقي من الإيمان والعقل والأمل : فالوجوه الدامية وعظام الساق المهشمة والجباه المشجوجة لا تحول دون استجابة السيوف أو البنادق للأيدي أو أن تضغط الركبتان. السرج. والقوانين البيولوجية تفشل إزاء أولئك المتبصرين الذين حين ينامون حلمهم المميت يطيلون حياتهم الكابوسية الرهيبة. الظلال تعوي، تصرخ. صخب جهنمي - دون أن تدوي طلقة واحدة - يبسط فوق الليل شبكة من الأصوات الحادة، المسنونة. الظلال تمزق بين أنيابها هياكل متشعبة باللون الكاكي، بزرقة الجلايب،

ومن حين لآخر، حين تعض خزائن الطلقات، تنفجر طلقة في دوي مكبوت. صرخات مكروبة، حائقة. دفعات من النيران.

في تقدير بيانثي، كل ذلك يجرى على مسافة نصف الكيلو متر. يؤكد ذلك برق، وأثناءه تستجمع الفصيلة قواها ويسمع صدامها، ركضها، تمزيقها. بيانثي، دون أن يدرك ما يفعله، أطلق النار ثلاث مرات على جماعة من الفارين، الثالثة أطلقها في الظلام. بعد ذلك، مرعوباً من نفسه، ينهض ويتجه صوب دراوشة، في تسارع ضال. والآن يستريح خياله، وأعضاؤه تستجيب لحس غريزي فطري، ويجري وهو يشعر بأن الظلال تتدافع وراءه، بأن كل شيء يحفره، بأن السهل يهذر ويرجف تحت الرعود، وبأن المطر، في سقوطه، يمدد الأديم المبتل ويطيل على نحو مكروب الطريق الأمل الذي تخطه الغريزة. لا يتأخر كثيراً في التوقف لكن الحصن أمسى على مقربة منه. أينبغي أن يمشى طويلاً حتى يجتازه ويعبر النهر الجاف تقريباً في هذا الوقت من السنة؟ لكن النهر لن يكون إلا درجة السلم الأولى حتى يصل إلى يستيتين، وبمجهود خارق فقط سيتمكن من بلوغ ذلك الحصن الذي في المؤخرة، دائماً، قبل بزوغ الفجر.

انطفأت حدود الأفق المضیعة. مطر هناك أيضاً، على ما يبدو. لكن الزوبعة، الصاخبة في البدء، تهدأ ويشتد القيظ ويتوقف المطر في نفس اللحظة التي بدأ يخلف فيها الشعور بلمسته الشبقة. كلما اقترب من الحصن تكاثرت الظلال الممتدة في شكل إنساني - وتفرقت هنا وهناك. يشب ضبع ويعوي ويختفي في همس واه. بعد منتصف الليل، بمحاذاة الحصن، تحتشد الظلمة وتؤلف موكباً من الظلال. اثنا عشر أو خمسة عشر جندياً، حفاة، عزلاً، بضمادات سخيصة في رؤوسهم، في الركبة، عراة الصدور أو شبه عراة تسترهم خرق من قميص، يجرون مدفعين أعلى منحدر، نحو الحصن. انبطح بيانثي من جديد، كاتماً أنفاسه، وعيناه

ناشبتان في موكب المغاربة الذين يحوطون المدفعين في صخب وبنادقهم على أكتافهم. يصرخ أحدهم: "هيا، هيا". وحين يرى أنهم متوقفون يقذفهم بحجرين أو ثلاثة يسمع لها دوي غائر على الظهور. يسقط أحد الجنود على الأرض. مغربي آخر يطلق النار على أقدامهم متجنباً إصابتهم، وحين يلحظ أن من سقط لا ينهض يهشم رأسه بمؤخرة البندقية. بقية الجنود تبذل مجهوداً خارقاً وترتقى القطعتان المنحدر في صخب شديد. لبث القتل إلى الورا في موضعه، ورأسه ملتبس على نحو لا يصدق. يحس بيانثي أن البساطة المأسوية لكل هذا لم تعد تثيره، وأنها مثل لعبة أطفال تمزق فيها وتعذب حشرات لا يبالي الكون بها. ومن الطبيعي أن يحدث لأن بيانثي الذي كان في وسعه أن يفتح النار على المغاربة لم يجرؤ على ذلك. قوة كونية تسن قانون الأقوى، وهذا وحده، ولا أحد غيره، بيده القانون والمنطق. لا يجرؤ حتى على التفكير ذهنياً في سباب آلي، غبي، ويكبت أيضاً—تحت تأثير الليل الخرافي—لعنة.

حين يعتقد أنه في مأمن يواصل السير ويمر على مرمى حجر من الساتر. ارتقى منحدرًا إلى أن بلغ هضبة ينبسط فوقها الحصن. والآن، يدور دورة واسعة حوله كي يتجنب احتمال وجود حرس في الجبهة الرئيسية. هنالك سلسلة من الموتى أشبه بجماعة ممتدة من جنود مجموعة الالتحام المنبطحين. بعد أن تمكن من مجاوزة الساتر، يبحث عن منخفض في الأرض يقع على الطريق ناحية أيسر نقطة وأحصنها أيضاً لعبور النهر. يتعاضم الإحساس بالفشل حين يضطر إلى الاحتماء من حراس الحصن

والفرار مما كان يوماً ملجأه وحاميته. مستغلاً انحدار الأرض، يغز خطاه ثم يعاود الركض أحياناً. إلى الخلف، بعيدة، بروق واهية لا تكاد تضيء السحب. هاهو في طريق يستيتين، في طريقه إلى المعسكر الذي قد يبلغه في نفس هذه الليلة. يستشعر راحة حميمة، ويصطدم التفاؤل وينفجر ضد الظلال في صخب شحنات من طلقات البنادق. زاحفاً، يبلغ صخوراً تحيد كثيراً عن الطريق. ما زالت شحنات النيران تمزق أشلاء الهواء الوادع، بفواصل جهنمية غائرة. بيانثي لا يرى، لا يسمع، يجهل أين هو لكنه يحدث قرب حاجز من الصخور. فيتفحصه. يكتشف كوة إعجازية ويتأهب لكي يتمدد داخلها كدودة. الظلال تتجسد، يكتم صرخة. شيء ما يتحرك ويهم بالتقدم نحوه، بالفرار تحت حفيف ملابس توراتية. يرفع بيانثي البندقية فوق كتفه ويغرس السونكي بغضب في الفريسة. زمجرة خنزير وعبارتان. تثن الظلال في العمق وتنطق بعض كلمة :

— أتريد مالى، أيها القذر؟

يتعرف بيانثي الصوت. إنه صاحب حانة عجوز من دراوشة. ارتدى ملابس مغربية كي يتسنى له الفرار، لكنه، متعقباً، لاذ بهذا الملجأ ومعه مدخراته التي يحتفظ بها في كيس من القماش فوق صدره. يصمت بيانثي مباغتاً.

— أقتل أخاك، ياقابيل، يا ابن البغي؟

ترسم الظلمة الآن ظلاً مبهماً، قاسياً. كيس النقود تحت إبطه. بذراعه الأخرى المطوية والمتقلصة يخفى شيئاً كذلك. يرسم شيئاً فوق ضلوعه. يبدو أنه منشغل بالحفاظ على ماله أشد من حياته. لم يزل بيانثي صامتاً فيخرج الشيخ من مكمنه، زاحفاً إلى الوراء، ثم يقف فوق وتد ويتراجع:

— لقد رأيت رقم 42 وسأبلغ رؤساءك؛ سأبلغهم.

تستمر دفعات النار في اتجاهات متقابلة، تمزق الظلال هنا وهناك .
تسمع جلبة الحشد من جديد؛ وفي إشراقة البروق البعيدة يظهر حوالى
اثنى عشر فارساً يتقدمهم نفس المقدم . انخفض عدد الفصيصة إلى العشر،
لكنها ما زالت تسير مرعدة، راکضة، منقضة بغتة على حزمة من الظلال
فتقعق السيوف والأربطة فيما تتضاعف شحنات النيران . بعد كل اشتباك
يقل العدد واحداً أو اثنين، ويسقط الخيل أو يجمع كالمجنون فتشج رأسه
ضد مرتفع أو ضد هيكل شاحنة مهجورة . والمطر يعود وينفخ الليلة وحشة
جديدة .

يفر العجوز منحنيًا، بخطو قصير، يفر من الموت الذى أمسك به من
ضلوعه، من الظلال ومن همس الحصن حيث مازال المدفعان يتحركان فى
وعورة . جواد يركض ورأسه إلى أحد جانبيه ويثب وثبة رهيبة حين يرى
العجوز صاحب الحانة ثم يركض فى اتجاه آخر . يحس بيانثي بشئ أشبه
بحصار من السلك الشائك تتسلل أسنانه إليه فى صمت . مازال يرى
العجوز تحت أقدام الدورية، ممزقاً، وخرق جلابه فى الهواء . الطلقات
الكثيفة فى الأعلى هى مثل سرب من الكراكى تطلق صراخها معاً ثم
تذهب . والسهل، فى ظلمته الغائرة والممتدة، يسمح للمطر بالنفاذ إليه،
فيمص بيانثي الحجر المبتل ويمسح أنفه فى الطين . صوت الحشد الآن ليس
إلا صوت زوج من أفراد الاستطلاع يقطع طريق النهر هرولة . ينهض بيانثي
ويحفزه إحساس الآخرين بالفرار ويركض هو أيضاً . لو أن هذين الفارسين
ابتعدا، سيبقى وحيداً فى السهل المحكم الظلال والسحب والموتى .

ركض طويلاً أثناء الليل حتى إنه تمكن من تخطي يستيتين. حين رأى الحصن استشعر فرحة الحيوان المطارد الذي بلغ باب عرينه. طوال الطريق يجرى، يسقط، ينهض، تلهبه سياط مروض سيرك غريب يمتطي السحاب ويطرق سوطه هنا وهناك على مستوى الأرض. تكثر دوريات المغاربة. ومن البوكيتي حتى يستيتين الأرض مغطاة بالفعل بأجساد ممزقة. ملمس طرى تحت القدم، فحيح نمس. ولا جثة في وضع الرقاد، بل مباغتة في حركة تقدم، أثناء القتال أو الاحتجاج.

تأخر في إدراك أن هذا الحصن أيضاً تحت سيطرة المغاربة. كانت ساعة الفجر حين شاهد إلى جانب البساتر المدمر أسوار السلك مجدلة ومقتلعة بين الأشلاء والأعضاء البشرية: سلام الداخل، سلام رقاد مستحق، بلا احتياطات، تحت الصخور العالية التي تنهض كأبراج مراقبة رمادية تكاد تلامس القرية، صوب الجبال. هنا، الكارثة أكثر تبايناً، ليس لها رتبة أنوال أو دراوشة الفجة والبدائية. هنا، كان ثمة قرية، كانت ثمة حياة مدنية يشى بها، وإن يكن علي نحو واهٍ، النشاط المتحضر في "سان خوان دى لاس ميناس". ثمة أيضاً غبار أحمر، غبار حديد، على الأرض والوجوه والملابس: بفضلته اكتست بعض جثث العمال الإسبان نضارة. حين أبصر بيانثي كل ذلك، أحس بضرب من البهجة السادية. "سان خوان دى لاس ميناس"، القطار بنخاعه الشوكى مرفوعاً هناك، تخرقه العصي: قطار لعبة يمكن طيه وحمله إلى المنزل، لكنه سرعان ما يظهر —دون أن يعلم كيف— عند مجاوزة أكمة أو يتلاشى بين الشجر ثم يعاود

الظهور. إلى اليسار قليلاً، يزداد الغبار الأحمر، الضارب إلى السواد بفعل الماء. أرصفة شحن في المدينة، عمال، حمالون، عمال مناجم بلا أجر تقريباً؛ قطاران مشحونان بالمعادن يومياً إلى الميناء؛ كل شيء بفضلنا نحن. أين إذن تلك القطارات المشحونة، تلك العربات وتلك الخلية من "الرجال العراة". كل صباح يحفزون النفس باندفاع معين بالبدء ونقطة الانطلاق، بعكس المساءات الكثيبة والمتعبة؟

يبلغ الأمر ببيانثي حد الشعور بنحو من الرضا الشرير والشماتة. جلس على حجر. تتصدر المنظر قمة "سان خوان دى لاس ميناس". لا بد أنه سان خوان باوتيسا (يوحنا المعمدان). ها هو الزاهد صاحب الملايين، متصوف الصناعة يدعو إلى الفضيلة، والقطاعة والصوم، يعمد السكان الأصليين بغبار المعدن الأحمر. تعميد السخرة، الرق. دعاة العمل الإجبارى والأجر الظالم. ولا وجود لأيام العمل المتفق عليها أو للحد الأدنى للأجر. موكب الملثمين، يغطيهم الغبار الأحمر والحجارة المضمخة بأحشاء الجبل الدامية، يدب دبيباً من المنجم إلى القطار، ومن القطار إلى المنجم، فى صمت، فى انتظار الغروب والريالات الستة.

حضارة الغرب، قطارات المناجم، سوسيولوجية البر المسيحي ووراءها، الجيش، الحياة الفتية والقوية وثلاث كلمات تتردد على الشفاه: وطن، بطولة، تضحية. وراء قمة المنجم، صخور بيضاء قائمة، مجتمعة، متراكبة: عظمة الجبل العارية. وإلى الخلف، بلاط أبيض من الحجر الجيرى حيث رسم المطر وعوامل التعرية المستمرة أعمدة خانات مربعة من أعلى إلى أسفل، جدول أسعار البورصة. وعند السفح... لاذ بعضهم بالسفح ينتظر الموت. فى ذلك القطاع، الكتلة الجيرية الضخمة منطقة ضارية وبدائية.

الضوء يصرخ ويدفع. بيانثي ينهض ويستأنف السير، يحس بحنجرتة
تحترق وببطنه غائراً بين إلبتيه، وكتفه اليمنى مشلولة، وقشرة كبيرة فى
ظهره تحولت إلى مذبة تحت الشمس. يومان وليلتان سائراً، بلا زاد سوى
حسوة الجعة التى أعطاه إياها الضابط، أفقدته تماماً الوعى بالخطر، الإحساس
بما حوله، رعب الموتى. يحس، فى أعماقه، بأنه تحرر من العبودية. الآن،
لديه حرية بربرية ولا ترحم، أقسى من أى انضباط، حرية شئ غير عضوى،
حجر أو شجرة، هائلة وغير نافعة. تفكيره ينتهى إلى خواء كمن يضرب
رأسه فى تابوت.

وحين ينتبه تكون يستيتين قد تلاشت ليواجه السهل الذى تصل
انعكاساته حتى نخاعه بموجات معدنية. والموتى؟ هنالك الآن هدنة.
يتراءى السهل موحشاً. بعض البغال يكشف عن أسنان صفراء وطويلة حين
ترفع خطومها، وتتسع عيونها على نحو مفرط إزاء زرقة لم تعد قادرة على
أن تعكسها. تتكون بغتة أشباح طويلة فوق الجير من بقع الشجيرات
الضاربة إلى الحمرة والصفرة، وتحببها الشمس وتشعل فيها فتيل النار.
هنالك قبائل إلى اليسار فى المرتفعات الجبلية. أية طائفة ستكتشف موقعها.
ماذا تفعل الطائرات؟ يثب، يختبئ فى خوف حذر. سمع صوت عيار
نارى.

لم يزل السهل مقفراً. يركض جواد قريب ثم يتوقف. يقف خلفه.
دون أن يجروء على تغيير وضعه، يسحب البندقية ويخرج السونكى
ودون أن يلتفت تقريباً يحدج ببصره وفمه شبه مفتوح. إلى الخلف،
ينهض جندي عن الأرض ويضغط بإحدى يديه ذراعه المصابة. بعد

ذلك، يستل سكيناً من حزامه ويتراجع منحنيّاً، متسللاً بجسده نحو الجواد. يذهب سعياً وراء البندقية المتدلية من السرج. عيار آخر يخطئ هدفه. يصل الجندي - ذو وجه كله مهشم أسفل عينين صغيرتين محتقنتين - يصل إلى القربوس فيما يثب آخر من بين العشب. ينظر حوله أولاً، خشية أن تجتذب الطلقات المتمردين ثم يتقدم في حزم. يخرج الفارس للقاءه يحمل المديّة وفي الصدام شيء ما ينكسر في طقطقة معدنية فيترنح الرجل ذو الخطم الكبير ويسقط في صمت. يثن وينظر في يأس إلى الحصان الذي فقدّه في التواء، ويجري المنتصر ويقبض على فريسته. يتراجع الحصان بأحد جانبيه ويدور ويتصدى لتهديد وركلة من الآخر بضربة رأس قوية إلى الخلف.

طلقات على أحياء متباعدة، مكثفة، تضرم النار في "بعد" قريب. يخرج بيانثي من مكمنه ويركض فيما يقوم الآخر - معتقداً أنه خصمه - بإطلاق "مشط" من الطلقات سدى. يسمع بيانثي صوت الأعيّة ويرى الأرض وشظايا الحجر تتقاذف عشر خطوات إلى الأمام. السهل الآن أبيض، أجرد، أملس. ومن جديد، موتى جدد؛ وجماعة بعيدة من الجنود المختلين يطاردهم ويصطادهم بطعنات المدى حوالى خمسين فارساً مغربياً. يتقدم السهل في كافة الاتجاهات. غبار ليس بالبعيد ينم عن وجود فرسان آخرين. ليس هناك أقل نتوء في الأرض يمكن الاحتماء به؛ وتسقط الشمس بلا أية ظلال أخرى فيما عدا بعض الجثث، وظل شخص مصاب يحاول بساقيه المشلولتين - ربما كسر عموده الفقري - رفع رأسه وصدره بلا جدوى معتمداً ذراعيه.

هنالك ظل أكبر، وربما أكثر مواتاة. جواد مبقور، رأسه محنى بشكل رهيب ومنحشر تحت الرقبة فى وضع حصان الشطرنج. يزحف بيانثى على أربع ويسقط بجانب ذلك الحيوان. كان حصان جر جميلاً. من الذى يحمل هاته الدواب نتائج قلة خبرة القادة وطيشهم؟ وما هو "الواجب الحضارى" للبغال والخيل؟ يفكر بيانثى فيما بعد: بيد أننا-كالبغال-علينا واجبات حضارية فقط، لا حقوق، وواجبنا الحضارى هو الموت. الدولة تصرح لنا بالموت لحماية الحق الحضارى لحفنة من المخلوقات التى هى التاريخ، الثقافة، ازدهار البلد، لأن البلد يبدأ وينتهى بهم.

لا يجد بيانثى حلاً لهذه الأفكار لكنه يطرحها على نحو قائم وتظل على حالها فى اللاوعي الذى ينتابه الآن من جديد إحساس باقتراب الخطر. ناحية اليمين، تتقدم الدوريات المغربية، تقترب مطاردة فلول جنود عزل يصرخون ويسقطون، أشد انكشافاً، طفولية، تحت الكتل الكبيرة من الجياد المتوجة بطيران الجلابيب والبرانييس.

بيانثى، زاحفاً لصق الجواد، يدور حوله، يكمن على الجانب الآخر، بين أرجل الجواد. يشعر للمرة الأولى بالغثيان من الموت فى كبة الأمعاء التى تطل من بين الرجلين الخلفيتين، فى عيني الحصان اللتين ثقرتهما الغربان، فى الخطم الذى نهشته الضباع. من جانب المتن، كان الحيوان سليماً؛ أما من ناحية بطنه فثمة تمزقات كبيرة واحترق جلده وشعره. فى هذا القطاع أيضاً الخطر وشيك ومتفاقم. يستيقظ السهل ومعه تبدأ حركة المغاربة تحت الشمس كقمل على قميص. يرى بيانثى أنه انكشف. هناك أيضاً، تحت سنابك الخيل أو بطعنات المدى، يصطادون الجنود الفارين المذعورين والهائمين على وجوههم. أربعة من المشاة نفدت ذخيرتهم يتجمعون وينتظرون بالسونكى جماعة من الفرسان منطلقة نحوهم، وحين يرى

الفرسان أن ثمة مواجهة يتوقفون ويسحبون بنادقهم دون أن يترجلوا. طلقات سريعة. يسقط الجنود، يزحفون، فيعود الفرسان إليهم ويدهسونهم قاذفين ببنادقهم في الهواء. ثم يتقدمون مختالين بجيادهم التي تشب وتتقهقر وتجمع. في الناحية الأخرى تسمع صيحات عربية. بيانثي، مرعوباً، يسمع كلمات متفرقة: "مليح... شجاع... سرنيو لا"، وضحك جماعي. يكررون كثيراً كلمتي "راس أعروى" و"مونت أعروى". يقتربون. يلتصق بيانثي بالحصان، يكتم أنفاسه. بغتة، يلتف فارسان ويقفان أمام الحصان الميت. يطلقان النار في الهواء ويتحركان، يثبان فوق الحصان الساكن. صوت سنايك، صهيل.

بيانثي يشعر بلمس لزج، بارد، في يديه، في قدميه. إنه داخل بطن الحصان، وتؤدي فتحة بين ضلوع الحيوان عمل المرصد المتنفس. تفوح رائحة محل جزارة أو مقلب قمامة. كلما تقدمت الشمس تستحيل رائحة نفايات كثيفة وعفنة. لكن القبيظ ليس شديداً ولمس الجثة بارد على الأخرى. عن قرب، للمأساة قساوات تلوح ساذجة تقريباً من شدة فظاعتها وعيشتها. لا يرى إلا في اتجاه واحد لكنه يكفيه لأن السمع يعوض النقص ولأن السهل يبدو في بعض الأحيان كأنما يدور كقرص ليقدم له كل الجبهات. حل السونكى في احترام مباغت، احترام ابن تقريباً، لثلا يصيب الجواد، وصوت الأعيرة النارية يسمع بعيداً من خلال حوائط من نور، حوائط نوم مؤجل وظلمة رطبة.

يشعر بنبضه في ضلوع الحصان. أتنقل حياته إلى الأحشاء الميتة وتحببها من جديد؟ يحس كذلك بأن نفسه تتساوى بما يحيط به وأن ثمة نوعاً واحداً من النفس يحيا على ذات الدوافع العمياء التي تخضع لقانون واحد. يغشاها حنان مبهم، الرغبة في فعل الخير وفي أن يجد كل شيء عذبا وصالحا.

حرقان فى العين ودموع على خديه . يبكى منذ برهة . الرغبة فى البكاء أقوى من تعبته وعطشه ، من جوعه ومن كل آلام الجروح الثلاثة . وفى نفس الوقت ، هذان الخيطان الصغيران المضيئان يصدران من مؤخرة الرأس ويمران من تحت صدغيه ليتصلا فيما بين حاجبيه ويصيباه برعشة ليتجنب ذلك الاتصال . يخشاه كما يخشى الموت .

رويداً ، فيما ترتفع الشمس وتنتقل حرارة جسد بيانثي إلى الأحشاء الميتة ، يتلاشى الملمس البارد وتتصاعد رائحة العفونة ، وبحس بيانثي أنه يغوص فى وعى جديد بنفسه ، بالألم ، بالحياة . وهذا الوعى واقع جسدى . ليس صحيحاً ما يريد أن يثبتته لنا الشعراء والإكليروس . إنها رغبة فى عدم فهم العظمة البسيطة لهذا الواقع الذى يساويننا بشئ وادع ومعجز مثل الحجارة والشجر . وبيانثي غير القادر على مثل هذه التأملات ، يخمن مع ذلك مبرر ألا يثير ملمس الحصان الميت تقززه . يشعر لحظياً بأنه متصالح مع المادة . كانت الانطباعات الأخلاقية بالغة الشدة وحية حتى إن تلك الطريقة العاطفية فى التأمل ، التى تمثل لدى غالبية البشر ظاهراً خادعاً للفهم والموهبة ، تلاشت وبقيت فقط الغريزة ، التى تزداد حدة فى كل لحظة وتقوى كل يوم . والغريزة السليمة التى نخستها المأساة تحرك فيه شعوراً لا حدود له بالحنان نحو هذا الفرس المنهك المبقر والذى هو الآن عرينه .

يقترّب مغاربة راكبين وسائرين . أحدهم يصبح فينظر جمعهم فى نفس الاتجاه . يكبت بيانثي نفسه . أنهم قريبون جداً منه ، أقل من خمس عشرة خطوة . مازالت تسمع وسط اللهجة المغربية كلمات أعروى ، راس

أعروى. أحدهم يرفع البندقية إلى كتفه، وآخر ينحنها عنه بصفعة ويحذره من شيء. ثم يقدم ذلك الجندي ذو الشعر الأبيض راقصاً على نحو أخرق ومغنياً أغنية بلا معنى، يلبس حزامه فوق جسده العارى وسراويله الداخلية ممزقة.

— كم عددكم؟ مائة والام! لو أن الرائد رآكم هنا ومعكم المدافع يراقبه المغاربة باهتمام وبسمت صارم ومتأمل. أحدهم يرفع كفيه إلى فمه، ويخيم عليهم جميعاً احترام خرافى. يضحك المجنون وضحكته تجمد الهواء حوله. يصرخ فى الجثث:

— كسالى! لو جاء الحكمدار يحمل "القايش" فى يده سنرى كيف تنهضون! يشرع فى السير فى حزم ويأسف على شيء بإيماءات من رأسه. ثم يتوجه إلى المغاربة:

— تركت سترتى هناك، لأننى إذا دخلت المدينة بها سيحملوننى للقضاء على القمل ثم يتركون السترة مجمدة ومبلولة. شهادة محارب قديم مقابل خمسة سنتيمات! والسراويل التى تركتها على عليقة ذهبت وحدها من أنوال حتى أزغغان. ثم إنك ترتدى السترة بعد أن غسلوها جيداً، ووضعوا الملابس فى ماء يغلى، وحلقوا رأسك "زيرو"، وقبل أن تصطف، القمل مرة أخرى.

يعاود الضحك برنين خشبى قوى وجاف. ثم يبدأ فى السير مغمغماً:

— مغاربة أنذال!

لكنه يتراجع إلى نقطة البدء مسرعاً، ويشرع فى الرقص فى جدية شديدة، بإصرار حيوانى، ويتقدم على هذا النحو فى صمت. يواصل المغاربة طريقهم ويحيدون قليلاً كيلاً يعثروا بجثة الحصان. هم يحترمون المجانين، يرون فيهم نافذة مفتوحة على الغيب.

يود بيانثي الخروج، لكن ضوء السهل مثل ضربة جلاد ستحصد رأسه

ما إن يطل على الخارج . مرة أخرى ، الخيطان المضيئان يتقدمان نحو الجمجمة ، يترددان ثم يعاودان التقدم ويلتقيان فوق جبينه . مع ذلك ، ما انفكت تسمع أعيرة فى الظلمة الوثيرة والعذبة .

حين يستيقظ ، تنتاب الجواد رعدات رهيفة . فى الخارج التماع ذهبى -صدغاه ينبضان وشفثاه ملتهبتان- . يرتعد الجواد ثانية . يخرج بيانثي رأسه فى حذر . صمت غائر ومحتفٍ . لابد أنها السابعة أو الثامنة . الطبيعة ، الفتية رغم كل شئ ، لم تزل تستجيب لضروراته ، وعلى الرغم من أن بيانثي يشعر بثقل فى رأسه وبصدغيه مكلومين وبقدميه تترنحان ، هو بلا شك نام . يهم بالنهوض ليستطلع القطاع المقابل من السهل فتشله المفاجأة . بعينين خارج محجريهما يرفع البندقية من الماسورة ويهم بتوجيه ضربة بمؤخرة البندقية إلى رأس شيخ عربى يحمل حزمة كبيرة حداوى الخيل ثم ينهض فجأة مشدوهاً ويده قطعة من سكين . ينظر بيانثي إليه ، يود بعينه النفاد إلى تلك الشيخوخة ذات اللحية الجليدية المهيبة والوقور . يجيبه الشيخ بابتسامة :

- آه ، أيها الفتى ، اهدأ . جئت لأنزع حداوى الخيل لأبيعها فى السوق . أفكر فى أننى سأحصل منها على أربعين سنتيماً ، ما ينقصنى لأشترى أسناناً جديدة "للقادوم" . فى شيخوختى لا أحتمل العمل بالفأس ، بل القادوم ، إذ لا أضطر إلى ثنى كليتي .

يود بيانثي التحدث بلا جدوى ، يضيف الشيخ :

- ماذا تقول ؟

بيانثى يكرر والعجوز يبتسم ويصمت . يشاهد الجندى وهو يستشرف
السهل فى قلق فيهدئى من روعه :
- لا تخش شيئاً . هم جميعاً فى أعروى . هنا ستجد فقط بعض العجائز
مثلي أو الصبية .

الجندى يصمت ويتردد . يردف الشيخ :
- دعنى أنزع هذه الحدوة الأخيرة ، وإن وثقت بى تعال معى وسأقدم
لك خبز الشعير وماء . من أين أنت ؟
يذكر الجندى قريته فيضيف الشيخ :
- ما اسمك ؟

بيانثى يتردد ، يتطلع إلى السماء ، يرفع يداً إلى جبهته ، ينشب نظره
فى الأرض ، يتركها تهيم .
- لا أتذكر .

يشرع الشيخ فى خلع حدوة الحصان بلا اكتراث فيمزق الحافر بقطعة
السكين . يرى بيانثى مسماراً يخرج منه ، مسماراً طويلاً يخلعونه من
أحشائه هو . يعاوده الشعور باحترام الابن والعرفان نحو ذلك المسخ المنتفخ .
والمترهل . فى جبهته ، عند نزع شئ ما منها ، يتقلص الجلد . دم وأبخرة
حصان . يهم الشيخ بتكرار نفس العملية فى إحدى أرجل الحصان مازال بها
نصف حدوة ومسمار . تمزق السكين الحافر والساق . بيانثى يحتج :
- متوحش !

- لكنه ميت .

- دع يا سيدى الحيوان فى سلام !
يوصل الشيخ عمله دون أن يلتفت إليه . ينقض بيانثى عليه ويمسك
بلحيته فيضطره إلى التراجع شاهراً المديّة فى وجهه . ثمة عدم اتساق فى
الكلمات والحركات كان الشيخ قد انتبه إليها .

— يا رجل، ماذا تفعل؟

وبيانثي ينظر إلى جهة أخرى نظرة معتمة ويلعن؛ يترك الشيخ، وهذا يدخل آخر حدوة في قطعة من السلك، فوق ثلاثين أو أربعين حدوة أخرى، ويتنفس الصعداء مستطعاً السهل في يأس بارد ومذعن لمن انتهى كالعادة من التقاط ما عف الآخرون عنه لكونه بلا قيمة. يتابع حديثه:

— ألا تتذكر اسمك؟

بيانثي يفكر مرة أخرى؛ غير أنه يضل في متاهة، ليست متاهة أفكار، بل إichاءات مادية، حية، متاهة ضوء وأصوات وصخب. طلاقات، لحم أصفر، بنفسجي، حلم مضطرب وبعيد في إسبانيا، ثم الذروة الأزلية: الغد. يود النفاذ إلى متاهة يفر منه أول سبلها. ويعلم أن اسمه مكتوب في نهايتها. يهز منكبيه:

— اللعنة، لا أتذكرا

يسلم أمره للشيخ، وهذا يشكر له هذه الثقة في صمت. "أأنت جريح؟". يوافق بيانثي والشيخ يعده بالعلاج. "إنه قريب من هنا". لكن بيانثي لم يعد قادراً على السير ويريد الشيخ أن يحمل عنه البندقية. إحساس مباغت بالخطر ينتاب بيانثي:

— أنت إسباني؛ ومع ذلك لا عجب في أن تحاول قتلي. يا إله الكون! لم يعد يدهشني أي شيء!

لكنه، قبل أن يناوله البندقية يفرغ خزينتها من الطلاقات. يتقدمان. يسير الشيخ بين الموتى بشيء من الألفة. أحياناً ينحى جثة وينظر تحتها:

— ليس غريباً أن تجد ذراع إغلاق بندقية أو رباطاً أو حتى علبة ذخيرة، ثم تبيعها فيما بعد بثمن جيد.

— ماذا يحدث هنا، أيها الشيخ؟ أتعلم ما هذا؟ يومان وليلتان وأنا أفر وأعثر بموتى فى كل مكان. وهذا ما أقوله، حدث هنا شئ وشخص ما هو المسؤول.

ياخذ الشيخ شهيقاً ويحك ذراعه:

— لا ذنب لأحد وهنا لم يحدث شئ. — ثم يضيف وعيناه تائهتان فى الأفق: — هذه حال البشرية دائماً... أتدرى لى؟ أنا رجل عجوز جداً. فى عام 1860 وصلت إلى الجانب الآخر من أرض المغاربة، إلى تطوان. عجوز جداً لكن، لهذا السبب... — يتردد كأنما يقتنع بعبث كلماته ثم يقول: — أنتم، الشباب، أنتم وحدكم الذين لم تلوثوا بعد، ضميركم حي وتعتقدون فى العدل، فى الخير؛ والله أمركم أن تقولوا كلمة الحق وأن تدخلوها — إذا تطلب الأمر — فى رؤوس الشيوخ. الحقيقة حقيقتكم لا حقيقتهم. ليس فى رأس العجائز الذين يحكمون هناك وهنا، وفى كل العالم، سوى الخيلاء والخوف. ولا فكرة إنسانية واحدة ولا أساس طاهر. والمصالح المبتوثة حولهم هى كقضبان السجن. وأنتم الشباب كان فى وسعكم تجنب هذا بالدفاع فى حينه عن الأفكار التى بوسعكم أنتم وحدكم أن تستشعروها بصدق والتى هى حقيقة هذا العالم وإن لم يشأ أحد أن يراها. لكنكم فضلت أن تخضعوا كل شئ لهذا الشر وهذه الحقارة؛ والسماء التى لا تغفر بهذه السهولة كما يقولون تعاقبكم وسوف تعاقبكم أكثر.

يرتعد الشيخ، يحمر غضباً. ثم يندم. يفكر بيانثي: أىكون مجنوناً، رغم أنه فى الواقع يعلم أنه على حق. لكن لابد أن يكون الرجل مخبولاً قليلاً كى يلقى هذه الخطبة هنا وفى هذه اللحظة! يقول الشيخ بعد صمت:

- لا شيء. هذا، كل هذا، لا يعني شيئاً. كان دائماً هكذا وسيظل هكذا. لا أدري هل أنا إسباني أم لا، لكنني مع المغاربة. هذا فعله الشباب هنا لأن الشيوخ يؤدون التحية العسكرية للحكمدرات الإسبان. أنتم، في المقابل، الشباب الإسباني، تخضعون، تجودون بخير ما فيكم في أمور بائدة وباطلة وشريرة.

يتابعان سيرهما. صوت الشيخ يضرب رأس بيانثي في رتابة، مترعة بالأصدا. يردف الشيخ بعد صمت:

- إسبانيا جميلة، أليس كذلك؟ لم أرها منذ خمسين عاماً. من قبل، كنت أرتقي الجبال وأرى قمم سييرا نيبادا بعيدة وسط السحب، عندما تكون السماء صحواً؛ لكن نظري الآن لا يرشدني والجبال عالية. إسبانيا جميلة، أليس كذلك؟

يصر الشيخ فيجيبه بيانثي في نهاية الأمر:

- بلى، جميلة.

يتذكر في لذة شمسها الذهبية والريف الأخضر وصباح أيام الأحد في قريته، مزيناً بمناديل الفتيات الملونة وضحكتهن الصريحة. ينسى أن كل هذا الذي يحوطه، الهواء الفاسد، الموتى، القائد الذي هشم أصابعه بمؤخرة المسدس، الحشا المعتم لليلة الظلم والرعب هذه، هي أيضاً إسبانيا. في الظل، تحسس أصابعه المصابة. تورمت اثنتان منها حتى إنه لا يستطيع ثنيهما. يساوره شك، أفكار متناقضة تتصارع لحظة في رأسه الآخرق المتعب. بلا مبرر يتوقف ويكرر بحماس غريب:

- أتدري فيم أفكر؟ على الرغم من كل شيء، لا توجد أرض كإسبانيا. عدة دقائق هدنة من خبط الموت المكتوم فوق الخيال. يقول الشيخ: "خمسون عاماً انقضت. تجب رؤيتها الآن". يتحدث عن إسبانيا كمن يتحدث عن طفلة لم يعاود رؤيتها منذ كانت صغيرة جداً والتي لا بد أنها

- الآن جميلة وكبيرة. بيانثي يشرح له:
- مدن كبيرة بقطارات تحت الأرض، وجيدة الإنارة.
- وأنصار الأمير كارلوس؟
- اندثروا. يبدو أن ذلك انتهى. يوجد الآن أشياع الزعيم ماورا أو الكونت رومانونيس الذين يثيرون صخباً عالياً في البرلمان. والملك.
- الملك؟
- نعم، الملك!
- آه، الملك!
- عبثاً أراد كل منهما أن يفسر شيئاً بتكرار هذه الكلمة في نبرات صوت مختلفة، لا يعرفان ما عساهما يقولان بالتحديد. يؤكد بيانثي مقتنعاً:
- لا بد من إحضاره هنا ليرى كل هذا — فترة صمت — ثم يردف:
- أتعلم؟ لم يعد هنالك ملوك في العالم تقريباً.
- بعضهم قتلوا، وهو ما لا أستصوبه. وبعض آخر تنحى.
- صمت ينتظمه وقع الأقدام في الظل. يقول الشيخ:
- لا ينبغي قتل أحد.
- كلا؛ حتى وإن يكن ملكاً.
- هبطاً ثم صعوداً؛ وفي النهاية، حين يهبطان منخفضاً في الأرض يظهر مدخل خص مرشوق كإسفين بين سفحين شديدي الانحدار. شق مفتوح في أحد الجوانب وبجانبه تراب حفر. الشيخ يفسر:
- دفنت أكثر من ثلاثين وهذه الليلة أوصل المهمة.
- يتترك حزمة الحداوى على الأرض. والقادوم يريده لكي يواصل دفن الجثث. وفيما ينتظر بيانثي تبريراً إنسانياً، يطلق الشيخ تعبيراً علمياً:
- تفوح منها رائحة عفونة.
- داخل الحص، إلى جانب بطانية جندي، ثمة قدر ماء كبير. بيانثي

يمسك به في شره صرعى ويحمله إلى شفتيه. دون أن يدع الماء. الشيخ، المنزعج، ينتزع منه القدر. "قد يضربك، لقد شربت على الأقل لترين". لكن بيانثي ينتزعه من بين يديه ويسقطه بدفعة. يستمر في الشرب حتى ينفد الماء. ينضح جلده، وتبتل ملابسه عرقاً. ثم يُنهض الشيخ دونما اعتذار. يحس بطاقة جديدة:

— ما هذا؟

إلى جانب السرير ثمة جمجمة عاجية اللون. يجيبه الشيخ:

— ذكرى شخص عزيز.

— رجل أم امرأة؟

— امرأة، امرأتي.

— أمات؟

يهز الشيخ منكبيه. وجهه الساكن، الوداع، يكتسى عدوبة غريبة، جديدة.

— ألا تراها. أجل، ماتت. كانت من تطوان وقتلها أهلها لأنها فرت معي. ولأنهم كانوا يتعقبونني، جئت إلى هنا. هذه هي جمجمتها. فيما يتحدث، يخرج الشيخ علبة من الصفيح بها خل وأعشاب. يغسل جروح بيانثي ويضمدها قدر استطاعته.

— حسن، والخبز؟

يناوله الشيخ رغيفاً أسود من الشعير، طرياً، ندياً، مرماً. ينبهه إلى أن إصابة ظهره ليست غائرة ويقدم له سكناً وعريناً. يلمح بأن النحو الذي سارت عليه حياته لا بأس به وأن المغاربة خيرون وطيبو المعشر. ينفي بيانثي ذلك مذعوراً:

— لو خيروا لقتلوك وقتلونى.

يفكر الشيخ ويوافقه. عند الباب يسديه النصيح:

— لا تدخل أعروى و حاول أن تحيد قدر استطاعتك إلى يسار الطريق .
إن لم تكن أعروى سقطت فستسقط فى النهاية . استمر أنت ، تابع السير .
ليلاً و حاول الوصول إلى مليلة . لو أن هذه الأشياء التى تراها لم تقض عليك
فأنت رجل صحيح العقل . لقد كنت على مقربة من أنياب الذئب . أنا
أيضاً كنت على مقربة منها فى مثل سنك وضعت لأن القوة القليلة المتبقية
لى قضت عليها تلك المرأة . لكن الآن ... افعل مثلى . لا تفكر البتة فى هذا
وإلا فمآلك الجنون أو العته . أتدري ما هى النتيجة الوحيدة التى استخلصها
من هذه الكارثة ؟ انظر إليها .

يريه حداوى الخيل وكومة مسامير يخرجها من تحت جلابه . "ربما
أربعون سنتيماً ، وربما ، لو خالفنى الحظ ، خمسة وأربعون" .
— بالطبع ، أصبحت مخبولاً — وبعد صمت طويل — لكن لم تحتفظ
بجمجمة زوجتك ؟

— مهما أشرح لك لن تفهم ، فما زالت شاباً غريراً .
— كما قلت ، أنت مخبول . وفى إسبانيا قد يحبسونك لهذا الخبل .
— بفضلها ما زلت أحيا سعيداً ، وهو ما لن تحققه أنت .
— مهما يكن أسفك على موتها ...
الشيخ يرفض ما يقوله :
— كلا . أنا لم آسف على موتها . كانت قد أعطتنى أفضل ما فيها ، وكنا
فى بالغ السعادة . ما فائدة مواصلة الحياة ؟ فى النهاية ، هى أو أنا كنا سنكل
فى النهاية ، أو نتقزز . هكذا أفضل .
صمت . بيانثى يقطب جبينه :
— أقتلتها ؟

يطلق الشيخ بصره على الظل اللانهائى . يخاطب نفسه :
— على أية حال ، الحياة صراع ، كل شئ صراع ، الحب معركة . أحدهما

يموت دائماً كي يحيا الآخر.

ينظر إلى بيانثي . يتحدث إلى جثة ، كأنما يواصل حديثه إلى نفسه .

يضيف :

— لو لم تمت لقتلتني هي بشكل أبطأ ، باحتضار يدوم أربعين عاماً .
كنت أحبها على نحو مفرط . لكن هكذا يختلف الأمر . كنت وفياً لها وفاء
مطلقاً : وهي ، من عمق ثقبتي الجمجمة هذين مازالت تمنحني السعادة . كل
شيء في العالم صراع : ما لا يهم هو هذه الكوارث بدمائها وقتلها
ومدفعيتها . هذا لا يساوي شيئاً .

يضحك ويتردد ثم يردف :

— كل شيء في الدنيا صراع . في المقابل ، توصلت إلى اتفاق منح كلينا
السعادة . وهذا هو الاتفاق الوحيد في الحياة الذي يمكن عقده مع الآخرين .
لا تنس : مع الرجال ، مع النساء ، مع المجتمعات . قهرهم ، تدميرهم ، سحقهم
حين تتوفر إرادة كافية فيما بعد للإخلاص إليهم طوال العمر . ومن يفتقر
إلى تلك الإرادة ليس لديه حق . ها ، ها ، ها ! لكنك لا تفهمني . لن تفهمني
إلا حين ترى في عينيك آخر شعاع ضوء وفي فمك آخر قطرة دم . ها ، ها !
على أية حال ، إذا لجوت ، تذكر أحياناً هذا الشيخ .

يلمح بيانثي شيئاً جديداً يرسم ضباباً بعيداً وراء احتمال النجاة
والعودة إلى إسبانيا : المقابر القريبة ، والشق المفتوح ، والرائحة الفاسدة
تحدث الآن إلى عقله قبل قلبه . يحس بشيء غير محدد . لا يعرف ما هو .
لكن ، مهما يكن فإنه يخلف في نفسه انطباعاً مضطرباً ومرأ ، أشد إيلاماً
من العيار الناري الذي يحمله في كتفه .

حين يجتاز منعطف التل، في مواجهة السهل الرمادى - رمادى بلون الرصاص المتزعزع ببقع باللون الأبيض أو الأصفر المنتفخ، لون الجثث العارية-، تخرج الوحشة للقاءه وتحوطه وتمد المنظور في بعد جديد، ينضح بالشراك و الأسرار والمخاطر والملائكة والشياطين. والخوف هو نفس خوف الطفولة القديم الذى يضى على الأشياء تعبيراً إنسانياً وعلى الأشخاص مرتبة خرقاء كأنهم أشياء. يشعر بدوار، بعرق بارد؛ ليس هذا خوفاً بل زيادة فى ذلك الماء الذى ينفخ معدته ويصدر صوتاً عند السير كأنما يحمله فى قربة. يتقيأ، يواصل السير ويعاود التقيؤ. تقيأ أكثر من نصفه، وفى الحال يحس براحة، يحس برغد لم يعرفه منذ زمن طويل. الآن، تأتبه الأشياء فى انطباعها المألوف: لذا، يتبع عدم اكترائه الحذر السابق رعب موحش وبارد. يود أن يحسب حساباته. سار حوالى 70 كيلومتراً و مازال أمامه أكثر من 50، ليصل إلى حيث نقل الموت معبره الذى لا يمكن اجتيازه. يسير ليلاً والبندقية على كتفه السليمة، هادئاً إثر كلمات الشيخ الهارب. فى الجو برودة نافذة ورطبة. يقترب من البحر. والليل الحالك السواد تعمه أنوار قلقة تزيد غوراً. ويخيم سلام مهدئ، له نبض أزلى. يفكر بيانثي فى أن كل نجم عالم كعالمنا، أو مجموعة عوالم لا بدء لها أو انتهاء. وأن حياة أى مخلوق تساوى أقل من بخار قطرة من البحر تبخرت تحت الشمس. ومع ذلك، يعتبر نفسه مركز الكون ومحوره ويعتقد أن النجوم موجودة فحسب لكي يتسنى له تحديد اتجاهه ومعرفة كم الساعة الآن. وإذا كان القمر مختلفاً فمرد ذلك إلى أنه هكذا بوسعه أن يحتمي على نحو أفضل بالظلمة. لكن، ما هذا الوعي العبثى بنفسه؟ بيانثي يحرك رأسه آسفاً: "ثرثار أنا". يجهل التناغم المشؤوم الذى يتصدر كل شئ، والذى يفقده الإحساس بنفسه فى لحظات الخطر لتكتب له النجاة؛ وأنه فى

لحظات الأمان والسلام، بعد أن سد ظمأه ونام جيداً، في وسعه أن يطرح بعض الأفكار التي إن لم تكن مبعث راحة فهي على الأقل تحمله بعيداً عن اليأس.

إنها الحرب. هذه هي الحرب. الراية الصغيرة في صاري المدرسة، "المارش الملكي"، التاريخ، الدفاع الوطني، خطاب عضو البرلمان، أوبريت النصر. كل ذلك، محوطاً بالأوسمة، يتسبب في هذا. فإذا كان ذلك هو الوطن، فإن هذه هي الحرب: رجل يفرو وسط جثث ممزقة، مثل بها، القدمان مهشمتان من الحجارة والرأس من الأعيرة النارية.

ينفجر ضحكاً. من شدة الضحك يضطر إلى الجلوس على حجر ليواصل ضحكته. بغتة، يصمت. مرت عدة ظلال مسرعة، لا تكاد تلمس الأرض. كانت ثلاثة ونهشت بكل واحدة من الجثث الثلاث التي ترى إلى اليمين. لو لم يكن يعرف أنها ضباع لاعتقد أنها أرواح أولئك الجنود. يواصل السير، برعب الخائف. على مسافة خمسين خطوة، تطلق الضباع المتوقفة في الظلمة أصوات احتضار أحمر، معتدلة، حادة، أشد إنسانية من أصوات البشر.

يسير بيائشي مستطلعاً بعينيه أحشاء الظلمات التي تحوطه على مسافة ثلاثة أمتار في نطاق ثقيل. تخفت أصوات الضباع رويداً. وفي النهاية، تسكت. عادت من جديد إلى وليمتها.

بعد أن سار طوال الليل، بلا أحداث فيما خلا صراعه مع الظلال الكثيفة المحيطة به، يصل وادي أعروي. يعلم أن أول بروز هو في النهاية تل أعروي، القليل الارتفاع والمنبسط السفوح. فوقه: المحصن. إلى يمينه النهر؛ وإلى اليسار، محطة السكة الحديدية، الصغيرة، البيضاء، بمشربياتها، نصف محصن ونصف مسجد. وفي الوسط، سور السلك الشائك والأكياس الرملية. ميدان الفجر يبدأ في التخلي عن حذره. قبرة تثب بين البغال والصناديق الفارغة والموتى في أحد قطاعات المدافع الرشاشة. يُباغت بيانثي بوحشية. لم ير طائراً منذ خروجه من R. ينتابه شعور لا يستكهنه بالشفقة على هذا الطائر الذي بلون الأرض والذي يحلق على مسافات قصيرة ويغرد. يفكر: هذه الأرض كغيرها في بقية البلدان، كأرض إسبانيا. لا تزرع طلقات وتحصد موتى فحسب. ثمة قبرات كما في إسبانيا وربما وجدت مزارع وشجراً. الفجر يمد المنظور، وبيانثي يشعر بأنه داخل فناء مترامٍ من الزجاج الآخذ في الاتساع. تفوح رائحة شمع محترق، شحم، وبين حين وآخر رائحة بالوعة نافذة. يصرخ الضوء حوله، يستدعي الخطر والموت. ويقدم صوته بأصداً مكرورة من بعد مضرب، قد يكون بحراً أو سحياً أو خضار بلد فانتازي. ظله ممتد ويمر مداعباً أحشاء جواد ممزقة. الصباح في أعروي لا يبالي، كأي صباح، بجنون البشر أو رعبهم. قذائف مدفعية غير بعيدة تذكره بحصار R. "مرة أخرى؟" أعروي، أعروي! مزيد من طلقات المدفعية وانفجارات

قذائف ناعمة . ذعر من البدء من جديد، من رؤية السماء ممزقة، من غليان الأرض في براكين صغيرة . الفرار، الفرار . النجاة بفعل نزوة خرقاء من نزوات العناية التي يلوذ بها في ريبة . "أى مصير مجهول ينتظرني : إذا نجوت فلن أنجو أنا بل ذلك الحيوان البائس، المتعب، القذر، بنفسه الخامدة" . أشد ما في المرء أصالة ظل هناك، وجهه إلى السماء، ميتاً ومتحلاً أيضاً . أين؟ لا أحد يعلمه . قد يكون معلقاً في النظرة الخالية من التعبير - أو ذات التعبير الرهيب - لتلك الجثث .

يشعر بيانثي بأنه مطارد، منكشف، يشعر برغبة في الركض في أى اتجاه . أربعة أيام و أربع ليال وصورة الموت دائماً أمامه، متجددة في ألف شكل مغاير . بيانثي لا يفكر، لا يعقل؛ يدري فقط أن عليه الفرار وأن قدميه تنزقان ورثتيه تحتجان ويسعل على نحو رهيب ما إن يشرع في الجرى . بعد انخفاض في مستوى الأرض يسبق أفقاً هزلياً وردى اللون - الفجر -، يسمع وقع خطا متسارعة وأصواتاً . بيانثي يريد التلاشي، الاحتماء . الوادى جد منكشف، ولا وقت لأى شئ . اضطراب شديد يشل قدميه . مثلما يحدث في الكوابيس المرعبة . فجأة، شخص ما يهز ذراعه :
- ماذا تفعل أيها المعتوه؟

إنه ريبيرو، واحد من جنود سريته، الذى حين يسمع الدوي القريب يلقي نظرة حوله ويطلق ساقيه للريح . يتبعه بيانثي . ريبيرو يفسر زاعقاً :
- إنها قواتنا، لكن ينبغى الفرار منها لأنها تفتح النار على الجميع . إنها مثل الجياد الجريحة ترى أوهاماً وينبغى أن نبتعد عنها ونتركها .

ينبطحان أرضاً. رغم أن الأرض تبدو منبسطة تصنع بروزاً طفيفاً وعلى بعد عشرين متراً تخفيهما تماماً. يحتفظ ريبيرو برباطة جأشه خلف القناع العظمى الشاحب، المستدير تقريباً، ذى الشعر الأشقر القليل. وتلوح البندقية بين مخالبه كهرواة رجل بدائي.

— كيف حدث ذلك؟ ألم تكن فى R؟

يتعجب لأنه تمكن من النجاة وبيانشي يؤكد:

— فى R كنت ا لكن هذه ليست ساعة الحكايات.

فى صوته نبرة غطرسة. يقول ريبيرو بحقد غامض:

— تتحدث كمن أدى امتحاناً لدرجة حكمدار واشترى الاشرطة

بالفعل. لكنك واهم ا جميعنا هنا أدى الامتحان لرتبة ميت.

— إيه؟ أنا لم أفكر فى الترقى؛ لكن إذا نجونا من هذا... سيكون الامر

سهلاً

—متقدمون لامتحان درجة جثة وناجحون.

يضحكان وكل منهما تنتابه رعدة حيال سماع ضحك الآخر. ريبيرو

يضيف:

— أنا كنت فى أنوال. لم أذهب إلى R. فانا من أفراد أركان الحرب،

بواق. ذهب آخر إلى R ومكثت فى أنوال مع بقية الفرقة. حتى الآن لم

يصبني سوى عيار فى بطني، عيار سطحى لم يصب اللحم كثيراً. الأمعاء

سليمة، وأتبرز بلا مشاكل. وأنت؟

— اللعنة، ما أثقلك ا ليس أوان الحكايات ا

بيانشي يبصر جانب انحدار الأرض. يهيم الجنود على وجوههم

بهمهمات مترددة. ريبيرو يفسر:

— وضعنا هنا سيء. هنالك دوريات مغربية راكبة وهؤلاء يجدون فى

إثرهم. أسمع "المدفعية"؟ لا بد أنهم ينقرون الأرض على مسافة خمسين

خطوة من هنا، أمام المنحدر.

ينهضان مقرصين ويركضان وركبتهما في صدريهما. بيانثي يتبع ريبيرو. والضوء الشديد الآن يطاردهما: وظل جسديهما يخيفهما أحياناً. طفل مغربي يظهر فجأة. ست سنوات أو سبع، أسمر، ذاهل، يرتدى جلاباً يسقط فوق قدميه الحافيتين. بيانثي يتوقف حين يسمع صراخه، لكن ريبيرو يتقدم وحذاء الميدان الثقيل ذو المسامير يغوض في بطن الصغير الذي يخر ميتاً. بوحى غريزي، ينفصل بعضهما عن بعض بتكتيك حرب العصابات في انتظار المزيد. يرتقيان منحدرًا هيناً. ينبطحان مرة ثانية ويزحف ريبيرو ويرفع رأسه في حذر ثم يتقهقر مسرعاً.

تفوح رائحة روث متحلل. ينتهى المنحدر بجرف غير متوقع، وأسفله، على بعد مترين، عدد من الجثث تعريها عجوزان بمهارة متعجلة فيما يدخلن مغربي متقدم في السن نارجيلة "كيف". إلى جانبه بندقيتان مصطفتان. يلاحظ ريبيرو أن ذراعى الإطلاق إلى الخارج. ليس بهما طلقات. ينتظر بيانثي أمراً من ريبيرو، وهذا يشير إليه بإيماءة أن يتأهب. يطغى على وجهيهما تقلص حيوانى، وحشي. خنابتا الأنف تتشتمان الدم الذي مازال يجري في عروق المغربى. يثب ريبيرو ويسقط فوقه، يحاول المغربى النهوض ويخفق بجلابه الأزرق في ارتعاد شديد. تصرخ العجوزان وبيانثي يطلق النار على إحداهما فتخر إلى جانب البندقيتين. ريبيرو يسحق شذقى المغربى بقدمه لينتزع السونكى من صدره، لكن حين يهم بيانثي بالتصويب ناحية العجوز الأخرى تنقض فوق ريبيرو بمدية من مدى ميخالا وبعد أن تصيبه تفر صائحة. يصطادها بيانثي بعيارين، مازالت تتحرك: يسرع ريبيرو إليها وظهره مخضب. يغرس البندقية بالسونكى فى المرأة الجريحة ويسحب واحدة من البندقيتين المهجورتين ويستجمع قواه ويهوى على العجوز بضربة رهيبة بمؤخرة البندقية لكنها تملص منها. تنشط البندقية

شطرين على الأرض من مقدمتها. يعود ريبيرو محدباً فوق أحد جانبيه.
يقفز بيانثي إلى أسفل ويطلق عياراً ثالثاً. ثلاثة أعيرة من أجل هذه العجوز
البائسة! يشحب لون ريبيرو. وبيانثي يسأله:

— أهى إصابة غائرة؟

يلتفت ريبيرو إلى ظهره قائلاً:

— انظر، أعتقد ذلك.

يكتم أنفاسه ومن الجرح ينسال زبد أحمر كثير.

— هذه هى النهاية. أطلق رصاصة على رأسى واذهب ناحية هناك،

أبعد ما يكون عن الطريق، دون أن تغيب عنك أعروى أو طريق زلوان.
هناك، ستنجو، يا رجل، إذا تمكنت من الفرار من المغاربة أو من الإسبان.
أطلق عياراً على رأسى. لكن قبل ذلك، اقضِ على هذا النذل وإلا سوف
يصل إلى البندقية.

يعود بيانثي إلى الرجل بوثبة. يصطدم بتعبير الرعب فى وجه المغربى،
الذى ينظر إليه بعينين زائغتين ويتقيأ وخذه إلى الأرض، فوق يده. بيانثي
ينتزع مديته ويعاود غرسها فى حنجرتة مقاطعاً عبارة مرتعشة للمغربى
أكملتها شفتاه بلا صوت:

— أنا صديق...

ريبيرو لا يكاد يتكلم لكن صوته يتردد، دون وهن، قوياً وجافاً:

— أطلق عياراً على رأسى يا بيانثي!

— سوف تعالج يا رجل. حالات أخرى عولجت!

— هيا يا رجل! إذا كنت تقدرنى، أطلق على رصاصة. إنها النهاية، ولا
أرغب فى مزيد من الآلام. إن سالكوك عنى، ها أنت ترى ما حدث. كنت
دائماً رزينا، ولا أقول إن الآخرين مخنثون، رغم أنى حملت أحدهم على
كتفى كانت التوت قدمه وظل يبكى فى الحفرة. كان معه مشطاً ذخيرة

ومسدس في يده. ولكن، فيم يهتم؟ أجهزوا عليه أيضاً ولا جدوى لشيء. ليغفر الله له لو أنه يغفر للمخنثين.

أخذ صوته في الخفوت وفقد ريبيرو وعيه. بيانثي يخاله مات ويخرج من جديد ليواجه السهل، مستكملاً ذخيرته بطلقات سلاح زميله. لكن صوت ريبيرو يسمع من جديد وبيانثي يتوقف، يعود إلى جانبه، يشده إليه شيء لا يستكهنه ويشير ضيقه. ينهض الجريح ويزأر:

— أئن تقتلني؟ أيؤلك قتلى؟ احملني معك إذن. لا داعي لأن تحملني على كتفك، وإنما عليك أن تسير خطواتي وتدعني أستند إليك.

ليس في وسعه النهوض، لا جدوى. الضوء ثقيل كذهب منصهر فوق الضلوع. والجرح حارق. يركض خيل في بعد مبهم، وتسمع طلقات، شحنات كثيفة. ريبيرو يجلس ويزحف يأخذ البندقية:

— هيا، اذهب! لا تتوقف عن العدو حتى أشجار التين الشوكي تلك؛ بالقرب منها في وسعك الاختباء حتى هبوط الليل. أضمن لك الوصول.

يخرج بيانثي ويزحف زميله، يستبين في نهاية الأمر ظله الملتصق بالأرض. لم تسمع له شكوى. يسمعه بيانثي وهو يطلق النار على فترات منتظمة، سريعة. بعض الطلقات تمر عالية وأخرى تنقر الأرض على مقربة منه. يرتاب من أنه ربما يطلق النار عليه؛ غير أنه حين يرجع البصر يرى ظهره ويرى أنه يفتح النار على جماعة من الفرسان. وأعيرة هؤلاء المصوبة نحو ريبيرو تمر بعيدة. يداخله شعور مباغت بالعرفان ويقول وهو يومئ كالسكاري: "كلهم يطلبون نفس الطلب. عيار في الرأس! كيف يطلبون ذلك من رجل!"

يحمل فى جيب سترته عياراً نظيفاً، براقاً، مصقولاً ومذهباً كقطعة حلي. عيار فى الرأس سيطلقه هو على نفسه. وإذا كانوا سلموه ذلك العيار ليطلقه على "المسؤول عن هذا"، فإن بيانثي مسؤول مثل ريبيرو وأتاثو وبيكيراس. جميعهم مسؤول، لأن أى رجل يساوى أى رجل آخر، وإذا قال أحدهم "نعم" بوسع الآخر أن يقول "لا". ثم ماذا؟ الواقع أن جميعهم قال "نعم" دون أن يعوا ما يقولون، والآن، هاهم يطلبون عياراً فى الرأس، عياراً لم يجدهم فى حينه كى يتفوهوا بكلمات متعقبة. وقع ركض الخيل يسمع قريباً منه، فينحرف عن مسار الطلقات. وهكذا، رغم أنه لا يراها ترتشق فى الأرض، ولا يعرف من أين تصدر، أو من أين يصل إليه طنينها، يسمع قرقرة على فترات متباعدة ويعتقد أنه يرى كيف تقترب الفصائل المغربية، الرشيقة، وكيف يلهث الخيل. تؤلم ظهره يدان تقبضان على حزامه، مرة أخرى الخطاف المرشوق الذى يخترق قفاه، فيخفق قلبه فى حمية وحشية، فى انقباض عميق، على وشك الخروج من حلقه ممزقاً وسط دفعات من شئ له مذاق البوتاسا. يجرى الآن بلا هدف، ولو أن غريزته تدفعه إلى الحيد عن السهل بلا وعى منه بنفسه، فيتقافز ويغز الخطا مدفوعاً بنبض خفى لم يتخيل وجوده. لم يعد ريبيرو يطلق النار. لا بد أن الفرسان قطعوا أوصاله بتلك النشوى السادية التى تتألق دائماً فى عيونهم والتى هم ير بيانثي مثلها من قبل إلا فى عيون الإسبانيات الماثلات أمام صورة المسيح على الصليب.

يرى نفسه فى الظل الممتد، المنبسط. الجرى جبن. ريبيرو كان شجاعاً. وما الشجاعة؟ الخوف من الجرى؛ لكنها، أولاً، الخوف منه كفعل سخيف. هذه الكلمات الثلاث: خوف، جرى، سخف، تتصل الآن مثل هدير قطار مغاير ورتيب. يجرى، يجرى؛ يصل إلى حافة، ودون أن يرى ما فى قاعها

يقفز ويسقط ويجر خزينة الطلقات التي يحملها على ظهره على المنحدر. أسفل، ظل موات، الغربان متخمة -غربان دائماً -وخنزير يفر مزمجرأ وفي فمه عضد بشرى.

المسلمون واليهود لا يأكلون لحم الخنزير؛ لكنهم يغذون تلك الخنازير الآن بلحم بشرى ليبيعوها فيما بعد لموردي الجيش أو للكتائب مباشرة. يبدو أن ثمة قبائل قريبة وبياني يود الخروج من الوهدة والصعود من هناك والفرار. بعد أن شاهد الخنزير، يشعر بحاجته إلى هواء نقي وإلى ضوء الصباح. الموت هنا في القاع، وجبة للخنازير، مصير لا يسعه إلا الخيال المعذب لواحد من أولئك المسوسين الذين يخلص القس أجسادهم من الشياطين. الوهدة تحتفى به كسجن. يظلم فكره وروحه؛ يختنق المرء في ذلك الشق، ويرسخ نطاق المستحيلات هناك في الخارج، عند المنحدرات الرمادية الوعرة، فيؤلمه الآن مثل ضمادة فولاذية شدت إلى القلب. وينخسه خوف من أن يسقط جزء من السفح ويسحقه، أو من أن يجتمع المنحدران فيدفناه حياً. تنتابه مخاوف غريبة؛ وحين يجرب البحث عن منفذ ويرى فوقه أن الوهدة تضيق وأن المنحدرين قائمين رأسياً، يصرخ ويرتد مذعوراً. في نهاية الأمر، حين يستطلع السهل زاحفاً، يرى جنوداً عزلاً يعدون نحو أعروى تشدهم إليها بقعة محطة القطارات البيضاء البعيدة والظلال الشرسة للحنانات بين المحطة والمحصن. حول التل هنالك ما يشبه السوق: محال مغربية، خصاص ارتجالية إلى جانب المحطة، كتل ضخمة ذاتية الحركة -خنيل، مدافع- بمعزل عن قذائف أعروى. أولئك الفارون ذاهبون إلى

حتفهم؛ لكن آخر منظر لأعروى، الحصينة والصامدة حتى الآن، سيكون خير عزاء لهم. يريدون الموت وهم ينظرون إلى المحصن الإسباني متوهمين أنهم يقدمون شبابهم غير المجدي فداءً لشيء أو لأحد. يفرون، يسقط بعضهم فوق بعض، يتعثرون ويتراجعون ويواصلون الفرار في جنون. إلى جانب شريط القطار، هناك، على طريق السيارات الموازي له تقريباً، يتكرم الموتى. تتصاعد من بينهم، في تداخل المسافات، الرائحة الفاسدة وموسيقى دفوف ومزامير كثيفة وبطيئة.

بيانثي يعود على أربع إلى الوهدة رافعاً ركبته المصابة عن الأرض ويعرج ككلب، ثم يترك جسده يسقط من المنحدر. لهذه الوهدة الآن ألفة الملاذ. يختبئ ما وسعه في حفرة خلفتها أمطار الشتاء. الأرض جافة ويغطيها غبار رقيق. يحس بالتعب. عبثاً يحاول جمع شتات فكره. يلمح شيئاً كبارقة في ظلمة رأسه، والموت آتٍ دون أن تضيئ النار كل تلك الرؤى المبهمة التي يحدسها.

يتحسس وجهه المنتفخ، خده لم يزل متورماً واللثة تنزف من رجع مؤخرة البندقية، وجبهته متربة؛ وملمس كالفلين، بارد، بين أسنانه التي لا تنطبق لأن شيئاً يحول دون حركة الفكين. الشق الصغير والرأس يسمح له بالاختباء جالساً. والوهدة، وسط السهل الذي يطلق على امتداده أصداً قتال متقطعة، هي الخافة التي يبصر منها الانسجام الذي تخبئه في أحشائها الأرض التي يمور ظهرها بأهواء البشر. يفكر بيانثي على نحو مبهم. نحيا فوق سلام الموتى. والأديم ليس سوى تراب من ماتوا، الزهاد وحدهم وعوا ذلك جيداً. نحيا فوق الذكرى والتراث، ونمدد سلسلة بالغة البساطة من الآلام والموتى دون أن نلتفت إلى مغزاها الصامت، إلى تلك الحكمة التي تقدمها الأرض والتي هي كل حكمة العالم. الإنسان الضعيف يتحول إزاء هذه التأملات إلى مهوس بالنفى؛ أما القوى فيضحك ملء رثتيه ويتبنى

مثلاً أعلى نبيلاً حسب طبيعته، ثم يجرب فرضه متوسلاً تلك الوسيلة المعصومة من الخطأ التي هي الحب . فى إيهام تلك الحدوس، تنتاب بيانتي مشاعر حب نحو الأرض كمشاعر العرفان التي داخلته من قبل نحو الحصان الميت : حب هو تجانس طبيعى، كوني، من الأرض إلى الأرض . لا يكره أحداً، لا المغاربة ولا الإسبان المتسببين فى هذه الكارثة . طوال الليالى السابقة، وتحت إعراض النجوم المتناغم، تعلم أن ذلك التناغم المعرض ضرورى كى نتمكن بلا خطر من مواجهة وتمثل جوهر الأهواء التي تحكم العالم، كى نتمكن من احتوائها دون أن نتوقف عن الشعور بها حولنا ومعاشتها . يجهل كنه حدوسه، لذا ليس بوسعه أن يخرج منها بنتائج عامة . لكنها تحتدم فى ذهنه وتجرب التجسد والوقوف على قدميها .

النوم ؟ مرة أخرى النوم ؟ التفكير فى غير المحدد، الخوض فى التجريدات يعنى استدعاء الحذر، تحت الجوع وألم الجروح، الحذر الأقرب إلى النوم والموت .

— من أنت ؟

شخص ما يسأل ثلاث مرات أو أربع فوق رأسه :

— من أنت ؟ ألم تعد تدرى من أنت ؟

تمر عدة دقائق :

— سأضطرب أنا نفسى أن أقول لك إنك بيانتي، من السرية الثانية،

الكتيبة الثانية، الفرقة 42 .

يود بيانتي أن يفتح عينيه . يمر مذبذب سرعان ما يصير سهماً نارياً فى

عيد قروى :

— نعم، أنا بيانتي، لكننى لم افعل شيئاً . أنا . . . — يحاول الاعتذار .

— لا تبال . الخنازير هي التي تأكل الجثث ؛ لقد رأيتها .

— وأنت ؟ من تكون ؟

– الرب . أنا الرب . ألا ترى ذلك فى جلابى الجديد ، فى البترنس
الأبيض ؟

– الرب إسباني .

– أصبحت مع المغاربة . الرب دائماً مع الأقوى .

– كلا . هذا ليس صحيحاً .

– لا أحد يكلمنى بهذه الوقاحة . أقول لك إننى صرت مع المغاربة .

أترغب فى عقد صفقة ؟

– أية صفقة ؟ التى كان يتحدث عنها الشيخ جامع حداوى الخيل ؟

– بالطبع . إذا لم يكن معك ورق رسمى ، لا يهم ؛ احضرت كل شئ .

– بأية شروط ؟

– أنت ميت حتماً . لكن : إسبانيا ستكون وفيه لك . ستضمك إلى

جوقة الجنود من شهداء أداء الواجب .

– اللعنة !

الرب يحك رأسه فوق العمامة ويزمجر :

– عليك !

يستيقظ بيانثي وفى الحال يعاوده الإحساس بأنه ينزلق فوق صعيد
الحلم الوثير . لا يهم . لم يعد يخشى من أن يصعقه اتصال ذينك التيارين
المغناطيسيين تحت الجبهة . نفحه حبه للأرض حدوساً جديدة ، من بينها
حدس النوم . النوم أو الموت . سواء ؛ وهما فى نهاية الأمر : الاسترداد البشرى
للمادة فى الكيمياء النشطة للأشياء الجامدة .

يغالبه النعاس وهو يسمع وقع أقدام وأصواتاً. أعلى الوهدة، يقترب جنديان. أحدهما حافي القدمين: والآخر يلبس فردة حذاء برقبة أسود ضخمة في إحدى قدميه وفي الأخرى، فردة صغيرة بلون الجلد. ويعرج. في وجهيهما غير الحليقين ارتخاء متردد ومتغاير تحت محجريهما الغائرين وقناعيهما الأصفرين الملطخين بالحمرة. وهما، من رأسيهما إلى أقدامهما، بقعتان كبيرتان من الطين الجاف ذواتي وصلات معدنية بين الأربطة. يتحدثان دون أن ينظر أي منهما إلى الآخر أو ينصت إليه.

— زلوان سقط في أيديهم، والناصور. أنا سأتجه إلى "كابو دي أجوا" ومن هناك سأعبر المحيط إلى جزر الكناري. الجنرال N كان غائباً عن المحصن والسرية الثانية توقفت ناحية مورد الماء. رأيت الرائد يتعثر وسط الحجارة ويسقط على وجهه فوق الأشواك. والجنرال في الداخل يمشط شعره! ساحطم روحك! ساشج رأسك! يابن البغي! أهذه طريقة في الحديث وأرواحنا جميعاً بين نواجذنا؟ أحدهما يتوقف ويجلس:

— اسمع، إلى أين نذهب؟ أليس لديك أية فكرة؟ نسير ونسير... فضلاً عن أن هذه الفردة ضيقة.

من فردة الحذاء السوداء، بلا رباط — حذاء مهرج سيرك —، يخرج شيء متجلط، بين الأسود والأزرق. قدمه. ومن ثقب لا يكاد يرى يستخرج نسالة من القنب دخلت مع الطلقة. يعاود النهوض ووجهه متقلص ألماً ويذهب ويجيء في توتر:

— إذا بردت عظامي فلن أعاود الحركة.

يلاحظ الآخر بتعبير غبي:

— ساقك، لقد فقدتها بالفعل، ستسري فيها الغنغرينا.

— صه، صه! تتشمم الموت.

– أأتشمم؟ من الذى لا يراه فى كل مكان . انظر إلى أعلى .

يرد الآخر بتأمل بطئ:

– أأموت ومعى تصریح بإجازة؟ فى حوزتى جواز مرور من "سلا" .
ليلة فى المركب وثلاثاً فى القطار . انظر إلى السترة التى ابتعتها . بأربعة
جيوب . علبة سجائر ماركة ريفينيا وطابعا بريد ونصف علبة بنزين . هذا ما
كلفتنى .

يبسط السترة بعد أن أخرجها من المخلاة حيث كانت مطوية . اخترقتها
رصاصه وتركت ثقباً فى كل طية . ستة وثلاثون ثقباً . حراب اقتصادى
وإحباط لطموحاته فى النائق . يعاود طيها ويردف:

– عرضوا عليّ أخرى مقابل علبة الصفيح وطابع بريد وقطعتين من نعل
حذاء للرتق، لكن تلك السترة لم يكن بها سوى جيبان .

– أعطنى إياها ! فمعى خيط وإبرة وأنت لن تستخدمها، لأن الغنغرينا
ستصل إلى قلبك وستموت مشلولاً .

والآخر، بعينين زائغتين، يشقها مزقاً ثم ينظر إليها واقفاً . يشرع فى
السير فى حزم إلى أعلى الوهدة تاركاً زميله ورائه . وهذا يناديه بصفير
قصير ونافذ، لكنه لا يلتفت إليه . فى المرة الرابعة، يلتفت، وبعينين أشد
زيغاً يصنع بذراعه إشارة بذيئة، دون أن يتفوه بكلمة، ويتابع سيره يحر
ساقه على نحو أليم .

ينظر بيهانثى إلى الآخر بلا رغبة فى الخروج من مكمنه لأنه يخشى من
أنه فى هذا الشتات الدامي قد لا يتسنى لرجلين أن يدافعا عن نفسيهما
مثلاً يفعل رجل واحد .

الهيجمات الخفية، التى تزلزل الهواء فى دوامات أو تكنس السهل
وتمشطه بأسنان فولاذية عاتية، تنفض على الجماعات بلا رحمة، ومع ذلك،
تحتزم الجندى الهارب أو تزدريه، على بقين من أنه هو نفسه سيفنى فى

الرعب . لكن الجندي يبحث عن مخبأ ويكتشف بيانثي :
- ماذا تفعل هنا؟ أدفنوك هكذا جالساً أم أنك لم تمت بعد؟
يضحك ثم تتقلص عضلاته فجأة، يرفع كلتا يديه إلى بطنه . يسأله
بيانثي :

- أأصابوك في بطنك؟
يوافقه الغريب . يتهالك جالساً ويردف :
- أجل . منذ وقت قصير . لكن الآخر لا يعلم ويعتقد أنه وحده
المصاب . ولكن ، لا أحد يدري . ففي نهاية الأمر ، من المرجح أيضاً أن يموت
بالغنغرينا .

يقول بيانثي محاولاً إرضاءه :
- أو ربما تنجو أنت ويموت هو .
ينفي الآخر ويتحسس جروحه ويضغطها ويتشمم أصابعه :
- أصابوني في مقتل !
ينظر كلاهما إلى الآخر في صمت . يشرح بيانثي أن جروحه ليست
مميّنة لكن الآخر ، بشماته خفية ، يقرر :

- من يدري؟ والغنغرينا؟ امكث أنت هنا ، فهذا ليس مكاناً سيئاً
لكي... لأن الجياد هناك ، أعلى ، تدوس الموتى ! ذلك آخر ما يمكن تخيله !
سرّوالة مخضب كأنما يتبول دماً . يبتعد قليلاً . يحل حزامه ويجلس
القرفصاء . دم الأمعاء ، أحمر وكثيف . ثم ينهض ، بالغ الصفرة ، وسرّواله
عند قدميه ، ويرى بيانثي بطنه العاري . وبيانثي يرى فيه صورة هزلية
للمأساة ، بعضو ذكوره تحت البطن الممزق . لا يود النظر إليه .

حين يسمع صوت ارتطامه يغمض عينيه ويتضاءل في جحره . أعلى ،
في السهل ، تركض جياد وتمر فوقها دفقات طائشة من طلقات المدافع
الرشاشة . حين يفتح عينيه يرى في عيني الجريح حقداً دفيناً ، مفترساً . لو أن

البندقية فى متناول يده لما تردد فى إطلاق النار عليه، على بيانثي غير المصاب بجروح مميتة. بيد أنه لم يعد يستطيع الحركة أو الزحف. تحول إلى أنشودة حول بطنه. فى العالم الفتى والمزهر، كل شئ يظل من أجل بيانثي، من أجل آخرين أمثال بيانثي. وهناك أعلى الوهدة، تشتد العاصفة. إلى اليمين، أعروى تطلق. يبتسم الجريح ويهز رأسه، ولا يعلم أفى يقين أم فى حسرة.

حواقر خيل فوق الحجارة، أعيرة نارية كالسياط. وفجأة، تقتلع الأرض من فوق السفوح وشيء ما ضخيم يتدحرج إلى أسفل وله صوت خرق القماش وأربطة وصخور تسقط. يتأخر بيانثي فى اكتشاف أنه جواد بفارسه، الجواد مبقر والفارس جثة هامة إلى جانب الجندى الجريح. جلد جمجمة الفارس مشحم، وتبرز الجمجمة كل تفاصيلها بإصرار مثير للغثيان، كمومياء دعكت بالزيت. يتبع دوى السقطة صمت عميق. الجريح السابق يصيح فى الفارس:

— يا رجل، إيه، يا رجل!

عينا المحتضر ناشبتان فى السماء. سقط الجواد فوقه، ولا يظهر منه سوى جزء من صدره ورأسه.

— أنا أصبت فى بطنى. وأنت؟ لكن هذه السقطة لن تجد من يجروا على حكيها.

يرى بيانثي أنه يقترب. يريح رأسه فوق الجواد ويتأهب للموت فى وداعة غريبة. ثمة الآن رجلان يحتضران. الجندى ذو البطن الممزقة لا يموت وحيداً فى وحشة الوهدة القادرة. ها قد عثر أخيراً على من يموت معه. فى الصمت، تفيد الحشرة المزدوجة فى مصالحة النوم، فيستقبله بيانثي كموت أكثر عذوبة، بلا حشرة وبلا دم.

حين يستيقظ، يرى بيانثي خنزيرين يقلبان تحت الحصان بخطميهما

الطويلين. بيانثي يرميهما بالحجارة. لا بد أن ثم خيمة قريبة. يلاحظ الظل ويقدر أن الوقت تخطى منتصف المساء. قضى الجنديان نحبهما وتنقص الجندى المصاب فى بطنه إحدى قدميه.

السكون لا يسبر غوره والضوء لا ينفذ إلى الأشياء، وإنما يقف واهناً عند سطحها. السماء بعيدة. وحشة الوهدة تذكر بأرض المقابر المفتوحة، البرية، التيزكية الضاربة إلى الحمرة، البائسة. إلى أعلى، يرقد السهل. فى الصمت تاتى أصوات كنعيق الطيور الجارحة. تتسلق السفح وتطل إلى أعلى. طابور طويل من العجائز يعود إلى الأدوار بالغنائم يحرسهن بعض المغاربة. يعود بيانثي إلى الوهدة، يفتش الجثث. إلى جانب سرج الحصان ثم زمزمية وبدخلها يشدو الماء واعدأ. يشرب فى هياج وسرعان ما يتعرف مذاق البول. يصعد ثانية.

تشحب السماء ناحية الشرق، والسلام هو سلام يترعه الغضب وتعمره عيون مترصدة. حتى أعروى، ليس السهل أبيض أو جيراً أو جافاً كسهل يستيتين. تكثر الشجيرات والأعشاب القصيرة. الرتبة الفجة السابقة آخذة فى التلاشي من الطبيعة كوعد بالخلاص. تحت وطأة الحمى التى تعود مرة أخرى، والإنهاك العضلى والجروح - خاصة جرح الركبة الملتهبة - يشعر فى معدته بجفاف الجوع الإسفنجى. يطلق بيانثي بصره على مستوى السهل ويشق الطريق المتخيل الآمن. سيلف حول المحطة ناحية اليسار ويمكنه فيما بعد أن يحتسى بحاجز شريط القطار ويعدو بلا خوف صوب زلوان والناصور.

لدى الإنسان الحبس، السجن، أرق صورة للحرية هي الريح. وعند بيانتي، الضال في متاهة يؤسه تحت السماء، في السهل المزروع بالجثث، الحرية هي البحر الذي أحس باقترابه في الظلال، قريباً من الناضور، من العبق الطازج والنفاد لشاطئ وأحياناً بهمس غابة أو حفيف أوراق يشفق بها النسيم. الأمواج تطرق خلف المنزل الذي لاذ به البعض إثر شتاتهم المفزع من الناضور. شيخ من المدنيين، بعض رجال الحرس المدني، وعشرون جندياً أو ثلاثون من مختلف الأسلحة.

نوافذ وأبواب بلا خشب تنفح البناية هيئة موحشة. تعرضت للنهب قبل مجئ تلك الحامية الضئيلة العدد لتعتصم به. جاء بيانتي عندما بدأ إشراق الصبح ودار حول البناية ودلف إليها من شرفة منخفضة. في الداخل، ألقى بنفسه في غرفة خلفية تلطخت جدرانها وأرضيتها بالدماء ونقرتها أعيرة البنادق. الوحشة والسكون أشاعا فيه رهبة.

حين سمع وقع خطأ في الطابق العلوى أحس بأن هنالك من يرافقه. حين كان يرتقى الشرفة سمع أغنية إسبانية، ربما كانت أغنية من بلنسية أو شيئاً من قبيلها. كانوا يغنون بنبرة شاردة ولكنه كان الصوت الرهيف الناجم عن السهاد. في الغرفة كان هنالك مدخل بلا باب خشبي يطل على تمام الضوء، أطل منه بيانتي في حذر. حوش صغير. في أحد الأركان، كانت ترقد، أو تتحلل، ثلاثة أجساد جامدة. في الركن المقابل، جندي مقرفص يفتش في روث خيل ويفصل بعناية حبوب الشعير التي لم تهضم.

حين رأى بيانثي، نهض:

— من أين دخلت؟ من أين جئت؟

— من R.

— اللعنة، لا تكذب! هناك لم ينج فار. أمررت بأعروى؟

— أجل.

صمت. يجلس الآخر القرفصاء مرة أخرى ويحك ساقه. ثم ينزع من باطن قدمه شريحة ضخمة من جلده، متيبسة، كخيشوم سمكة. يتركها.

يرفع إلى فمه حفنة من حبوب الشعير التي فصلها ويسأل:

— أمعك ما يؤكل؟ لا؟ فيم قدومك إذن؟ اصعد وقدم نفسك للرقيب.

يقدم إليه زمزمة يأتى بيانثي عليها. يردف الآخر:

— من ذلك السلم. لا اصعد معك لأننى فى نوبة حراسة.

— حراسة؟

— أجل، أحرص تلك الشرفة التى دخلت منها. لكن، لم يتأخرون فى

أعروى فى الانسحاب؟ نحن سنقاوم هنا حتى مرور ذلك الجيش، لكن الطعام نفذ والذخيرة كذلك.

يصعد بيانثي دون أن ينصت إليه. فى الجزء الثانى من الدرج يتوقف

ويلتفت ويقول:

— أنتتظر أن ينسحبوا؟ من أين سينسحبون؟

لكن الجندى حمل بندقيته وذهب وهو يمضغ إلى موقعه عند الشرفة. يواصل الصعود. إلى اليمين، فى غرفة صغيرة يصلها الضوء عبر كوة داخلية، يسمع أنينا. جسد ممدد على جنبه الأيسر، ونصف وجهه السفلى مهشم وملتهب وبه تقرحات كبيرة وكثيفة فوق بقعة من الدم. يغمض عينيه ويتابع سيره. جرحى آخرون، بعض منهم على قدميه، يسير كالسكارى.

— تمام يا أفندم!

يحددون له موقعا للدفاع. يباغت بيانثي تماماً، فلا يعى جيداً ما كان من قبل ولا ما هو كائن الآن ولا مبررات وجوده بين جدران ومسيره فوق بلاط. ليس شعوراً بالأمان، بل هو إحساس مبهم بالحبس. من قبل، كان الريف يمد أمامه، في كل مرة، ألف طريق للفرار والنجاة. أما الآن فجاءت الغرفة والممرات والاصطدام بالأوامر العسكرية لتصور اليأس والوحشة في مربعات وأشكال هندسية، ولتصنف إمكانات النجاة في خانات. قطعت السهل القاحل بادرة مدنية؛ لكن الناضور، كأي مدينة تعرضت للسلب حديثاً، تلون المأساة بأصباغ أشد قتامة. في قلب الطبيعة، ليست للموت هذه الأهمية. في الريف، تحت السماء، الموت مضمّر وبديهي في كل شيء وعلى نحو وادع وعذب. أما المدينة — على طرف النقيض — المليئة برموز الحياة، والتي أنشئت تحديداً من أجل الحياة، فإنها تعزز ما في الموت من إظلام وقدرية. وبيانثي يداخله خوف أشد من ذى قبل وشعور بأنه حبس ذلك الخوف كمن حبس في قفص.

الطلقات في الخارج لا تكاد تسمع. بين حين وآخر، تسقط في صخب قطعة من جبر الحوائط. ينجحون في إدخال الطلقات من النوافذ. سأل شيئاً — لا يتذكره جيداً — ورجل من الحرس المدني يجيبه:

— هذا الذي رأيته إلى جانب السلم مصاب وصل هذه الليلة زحفاً وتمكنا من حمله إلى الداخل. حطم المغاربة فكه بالحجارة ليستخرجوا الذهب من أسنانه. لم يعد له فم، بل عجين من اللحم والعظم. تعرفت إليه

فى زلوان وكان حمكدار بريد . فيما بعد سأتطوع فى العمليات القادمة لأننى أقسمت أن أنتقم من عدد من لصوص الناضور كانوا يصطنعون أنهم أصدقاء لنا ورأيتهم فى الكنيسة يصلبون الجنود كما صلب المسيح، على أحد الجدر . سأعود متطوعاً .

يهز بيانثى منكبيه . ورجل الحرس المدنى يصر :
- ألا تصدقنى ؟ سأعود وإن فقدت كل شئ ، لأن ملف خدمتى جيد وأحظى باحترام رؤسائى ؛ لكننى سأعود متطوعاً مع أية فرقة وسأتخلى عن راتبى ، ثلاثمائة وخمس وسبعون بريئة ، وأتحمل الجوع والقمل .
يدنو بيانثى من النافذة جاثياً على ركبتيه ويرفع بندقيته . رجل الحرس المدنى ينبهه :

- لا خوف الآن بعد صخب ليلة أمس . تلقوا ما يستحقونه وهم الآن يعالجون جرحاهم أو يصلون صلاة الضحى . فى كم معركة شاركت ؟ أنا شاركت فى سبع وأربعين ، بحساب هجوم واحد فقط من ثلاثة أو أربعة كل ليلة . أعتقد أنهم سيمنحوننى وسام صليب آخر بمكافأة مالية ، لكن شيئاً واحداً يشغلنى . شئ واحد يحرمنى النوم .

- وما الذى يحرمك النوم ؟

- كلا ! لا تبادل إطلاق النار ولا صرخات الجرحى تؤرقنى حين يحين موعد راحتى . لكننى أفكر فى كل هذه البلبلة ولا أجد أحداً يوصى بترقيتى ومنحى وساماً . من سىضيف كل هذا إلى سجل خدمتى ؟ من سيدرجه فى الأوامر ؟ وبأى ترتيب ؟

يتحرك قفزاً ، بسترته النظيفة والمشدودة جيداً إلى ظهره . ينهض بيانثى فوق هاوية البؤس والخسة الأخلاقية اللذين يشعر بأنه غارق فيهما ويلعن لأول مرة منذ أن خرج من R . حينما كان وحيداً فى السهل ، فى الوهاد ، منعه من ذلك رعب خرافى . فى الغرفة المجاورة ، يقوم بالحراسة جندى الحرس

المدنى ورقيب بدين، ذو فودين طويلين وعليه آثار هزال الجوع والأرق. وهو يتكلم بلا توقف ومن خلال صوته يبرز وجهه المحتقن. يكرر فى إصرار رتيب عبارة "كما ترى" ويسكن الحرف الأخير:

— وقلت لضابط الإمداد والتموين: "من يذهبون إلى مصنع الدقيق فى حاجة إلى خمس عشرة دسنة من البسكويت"، كما ترى. لكنه كان يطلب إيصالاً موقعاً من الرائد. والرائد، كما ترى، كان قد مات. حينئذ قلت له إننى أرهن مرتبى مقابل البسكويت وعدة كيلو جرامات من السكر وقهوة. كما ترى، الضرورى. والمغاربة يقتربون والضابط يرفض. بعد ذلك، كما ترى، اضطررنا إلى الفرار وكل المؤن أكلها المغاربة.

— من كان ذلك الضابط؟ — سأل رجل الحرس المدنى بمظهر من يريد أن يوقع عليه جزاء.

— لن يفيد. فقد دفع حياته ثمناً لذلك، كما ترى. لكن، هنا، فيما بيننا، أقول لك إن ذلك الانسحاب خالص أكثر من ضابط إمدادات من السجن الحربى. ينسى ما فات ونبدأ من جديد وأنا أعلم، كما ترى؛ أعلم عن يقين، كما ترى، أن أكثر من ضابط من ضباط الإمداد والتموين جاء إلى هنا يغطى مؤخرته بورق صحيفة "برقية من الريف"، والآن يمتلك ثلاثة منازل تدر عليه ذهباً. كما ترى.

الجوع متراكم منذ ثلاثة أيام لكنه جوع تام، مطلق، بلا ظروف مخففة. الخطر محقق. ليلاً تتوالى الهجمات. ومع ذلك تدور حوارات غير مكترثة وتقال آراء جد غريبة عن الواقع القريب حتى إنك لتفكر: أصابهم عته أم أنه كابوس مترع بالهذيان؟

بيانشى لم يعد يردد اتهامه المفضل الذى قد يناسب اللحظة على خير وجه. هذا البيت الزائف، بين مصنع وثكنة وسجن — يتوطد لديه الآن يقين بأنه مسجون مرة أخرى، محاصر — انتهى بأن أشاع الفوضى فى رأسه

البائس. حرس مدنى، رجال مدفعية، مدنيون، مشاة مختلطون: وبقايا انضباط تناثرت شظاياها فى المعسكر، وعليهم أن ينظموا ملحمة جديدة يكون خير شارح لها "ترجمان" فى الأسواق الأندلسية أو مصور أيقونات. انصرم اليوم فى بطة. ثمة ماء، ولاشئ يؤكل. مكث بيانثى بجانب النافذة يترقب أي مغربي ليطلق عليه الرصاص. وعبثاً طلب أن يسمحوا له بالنوم شيئاً. يقومون على خدمة الحراسة ليل نهار. إطلاق النار نادر لأنهم، على الرغم من أن الأعيرة النارية تأتيهم فى مجموعات مكثفة وتصطدم بالجدر وتنفتح حواف النوافذ، لا يظهر المغاربة إلا نادراً. وحين يتلاشى الضوء، تصدر من الآكام القائمة فى المواجهة، على الجانب الآخر من الطريق ومن ناحية شريط القطار، دقات هوجاء لها دوي ناعم حول كل فتحة.

الرقيب "كما ترى" ينظم خدمات الدفاع عن الطابق الأرضي. فى الخارج، عدد من الرشاشات يضىء أنجماً مختلفة فوق الآكام. بعض قذيفة تسقط فوق البناية دون أن تنفجر فى معظم المرات. يفتح بيانثى النار على أية كتلة، لكنه سرعان ما يدرك أن ما معه من ذخيرة لا يتعدى علبة ونصف العلبة -75 طلقة- فيتوقف عن إطلاق النار ويجلس تحت النافذة ويصمت منتبهاً لطريقة الرصاص. كل طلقة من الداخل ترج الجدر وتمر لحظة يبدو فيها المنزل كأنه يصدر صريراً تحت إعصار يضرب فى غضب كل الأبواب الداخلية.

بيانثى يصمت ويغفو. يتذكر مشهد أعروى ليلاً. جنود هاربون باحوا له بأسرار فاضحة عن قاداتهم. كانوا يتعجلون الإفصاح عنها -بين اللعنات-

قبل أن يداهمهم الموت . حملتان انتحاريتان إلى منابع الماء بلا نتيجة؛ وفتاة الحانة التي كانت تقطن خارج الحصن تذهب وتجيء بين الموتى ليلاً وتحمل جرتين أو ثلاثاً يومياً . وبالطبع، لم يكن كافياً لأكثر من ألف رجل . أضاف أحدهم قائلاً: "وذلك كي يتحملوا إلى أن يستسلموا . لأنهم كانوا سيستسلمون" . أراد الجنود شن حملات بالمدى بلا أية غاية سوى إيجاد طريقة لترك ذلك الحوش البائس الذي كانوا يتفحمون فيه أحياء ومع هبوط الليل كانوا يخرجون في اتجاه زلوان في مجموعات صغيرة ثم يسقطون ممزقي الأوصال تحت حوافر الخيل وتحت الظلال الكثيفة . بيانثي لم يشأ التوقف، مر بالحصن من بعيد وجاوزه . ثيران رشاشات أعروى أمست بطيئة أو كأنها متعبة، وكثيراً ما كانت تتعطل الماكينات . أما المغاربة فكانوا يترقبون: يقتصرون على انتظار خروج أكثر الجنود إصراراً أو، في نهاية الأمر، أن يخرجوا جميعاً أيضاً ليصطادوهم بسهولة . كانوا يغنون، يصيحون . وأصوات رجولية كانت تغطي السهل وتسب الجنرال N وتسخر منه لأنه حاصر نفسه في أعروى هرباً من القتال تاركاً وراءه الطريق مزروعاً بجثث الجنود . بيانثي كان يسمع أصوات المغاربة، نقية في الليل، من الآكام التي إلى يسار شريط القطارات، ويضحك أو يؤكد حسب النبرة الأصوات الموجهة للجنرال N . دون أن ينتبه، كان يشعر بالتماهي مع المغاربة فيما يخص الجنرال N . بعيداً عن الحصن، بعض دفعات من رصاص الرشاشات كانت تمر في شكل قوس إلى أسفل . كان يتحدث إلى جندي جريح جلس ليستربح ثم أصيب برصاصة جديدة في صدره فخر صريعاً والكلمة في فمه . فنهض بيانثي وواصل طريقه . مدافع أعروى نفسها هي التي كانت تقتلهم . كان ذلك بالغ المأسوية والبساطة حتى إنه لم يكن ثمة مبرر للقلق أو الركض كما في السابق . لن يصل إلى زلوان ولا يفكر حتى في الناضور حيث يقولون إن المغاربة سلبوا وأحرقوا كل شيء . تابع سيره تظن في أذنيه

آخر كلمات الجريح:

- لماذا؟ من المسؤول؟ أنت، أنا، الآخر؟ أهم هؤلاء الفتيان المنسحقون

على الأرض كالعقارب؟

كان حكمداراً. التفت حينئذ إلى أنه حكمدار. بيانثي أردف:

- أيها الحكمدار، نحن أقوياء ولدينا أسلحة جيدة! لم يهزمونا

أولئك القذرون؟ أنا أعلم لماذا. لأنهم على حق، ولذلك ثقله. لو أننا

جميعاً نكون في صفهم وتذهب إلى مليلة...

- أنت مجنون. أنا لا أسمع أن جند...

بلا صراخ، بلا إيماءات، سقط، لبث هناك ووجهه إلى النجوم، وعينه مفتوحتان. الشحنات تنقر الأرض على مسافة قريبة. شرع بيانثي في السير فراراً من المسار الرهيب للطلقات الآتية بلا شك من المحصن والمصوبة نحو جسده. أمامه، تركض مجموعة متلاصقة قوامها أكثر من عشرين جندياً. انتظر بيانثي كي لا ينضم إليهم وفي الحال عاد صوت الضجيج المألوف في أعروى تحت دوي مئات من حوافر الخيل. وفي أعلى أكمة ثلاثة أو أربعة من العساكر المغاربة الذين كانوا موالين لنا ثم فروا، الجالسين الآن في وضع مريح، راحوا يصطادون الجنود الهاربين فيما انقض قطع من العجائز على الجثث ورحن يخلعن ثيابها بسرعة وحذق، دون أن يكسرن زراً أو يلطخن ملابسهن بالدم إلا في أقل الحدود. ثم كن يقربن كشافاً ضوئياً من فم الجريح أو الميت، وإذا كان يحمل ذهباً في أسنانه كن يبدأن عملهن في خفة بأن يحطمن أسنانه بالحجارة.

تمكن بيانثي من بلوغ الناضور دون أن يدرى كيف. امتطى صهوة جواد اضطر إلى تركه بعد قليل لأنه كان جامحاً: وبالقرب من القرية الصغيرة،

الجديدة والمتناسقة كمنتجع أمريكي، رأى جيشاً تتدلى من الأعمدة أو مرشوقة في الأبواب أو ممددة على الأرض. اضطر إلى الدوران دورة كبيرة وبطيئة حول القرية، وحين بلغ شاطئ البحر شعر بإغراء القفز في الماء والسباحة حتى الشواطئ الإسبانية، تلك الشواطئ البعيدة المفقودة وراء قوس الماء البعيد.

لكنه تسلل إلى مطحن الدقيق. كان بيانثي ينظر إلى البحر بلا عون، بلا غوث مهما يكن ضئيلاً: مركب مصفح، طائرة... ثم ما لبثت أن سرت شائعة: "سيأتي قطار حربي". وشريط القطار؟ ألم يقتلعوا القضبان؟ لأنه إذا كان ثمة قطار سيأتي فلا بد من إصلاح القضبان في نفس الوقت الذي يتقدم فيه القطار؛ وفي هذه الحالة، من سيحضر الحفارين؟ سرعان ما تحسب المزايا والعواقب. بوسع القطار أن يأتي، لأن القضبان لا تزال لم تقتلع حتى بالقرب من الناضور؛ لكن المغاربة لديهم مدافع في مرتفعات الجرجرة، فوق شريط القطار. وهي عشرة كيلومترات تسيطر عليها القمم التي إلى جانب القضبان وحتى مليلة. وعلى الجانب الآخر، البحر. لو أن القطار المصفح وصل إلى هنا ورفع المغاربة القضبان إثر مروره لن يستطيع العودة. لا بد من أخذ كل شيء في الحسبان. والسفن الحربية؟ لا يوجد عمق كافٍ حتى "مار تشيكا" ولا تستطيع الإبحار. لكن، على الرغم من أن المنطق يستبعد إمكان مجيء القطار المصفح، تبقى في الهواء فكرة الإنقاذ الأخاذة ويسمع صرير بعيد قد يكون صرير العربات المصفحة بالواح من الفولاذ والمزودة برشاشات ومدافع لحماية العربات.

الليل يحاصر مطحن الدقيق ويوجه إليها هياجاته. بيانثي لا ينهض. فيم يفيد؟ على أية حال، سيدافع عن هذه الحجرة المظلمة، متيقناً من أنه سيطلق الطلقات الخمس والسبعين المتبقية معه على من يجرؤ على تجاوز عتبتها. إطلاق النار يشتد في الخارج. وحين يتوقف تسمع صراخات،

شتائم من تلك التي تتداول فقط في المغرب والتي تعلمها المغاربة منا. الإعصار ولج المنزل؛ والأبواب - الخفية لأنها لم يبق منها باب واحد - ترتجف في خبط جاف وتدوى وتصطدم فيما بينها وتتدافع. سخونة كثيفة، غائرة ورطبة، كأنما توالى الفرقعات هو الذي أحدثها.

يظهر حكمدار:

- ماذا تفعل هناك؟ أأصابوك؟

ينهض بيانثي في صمت ويفتح النار على كتل تتحرك ناحية الحاجز. الرؤية أفضل الآن. تستبين الظلال التي تذهب وتجيء فوق ذلك الظل الآخر، الأقل عتامة، ظل الأرض. يطلق الرصاص بلا توقف. يذهب الحكمدار قائلاً:

- والقطار؟ أسمع صوت القطار؟

عبر النيران لا يسمع إلا نبض البحر العنيد ضد الصخر. خلفية مسالمة، تعزز صخب الهجوم وتعقد الأفكار حتى تطل بها على هاوية الجنون السحيقة. ألا يوجد المزيد من الطلقات؟ محال المقاومة ليلة أخرى.

نحو الفجر، يفكر بيانثي في أنه لو لم يدخل مطحن الدقيق لكان الآن في مليلة. فراش وثير في المستشفى وماء عذب مثلج والأكل حتى لمس الطعام بالأصابع. لكنهم حين لا يخفون لنجدتنا فإن مليلة أيضاً سقطت تحت سيطرة المغاربة، لذا فالأمر سواء أدخل هنا أم أعزوني أم وصل إلى مليلة. من الحجرة المجاورة يأتي رجل الحرس المدني ووجهه مخضب بالدم. تخفت النيران. يجلس على الأرض، ظهره إلى الحائط، ويومئ بلا اهتمام:

- لم يصابوني في المخ.

لكنه يبصق دماً وينزف أنفه أيضاً. سترته الزاهية تلطخت كلها.

وأسفاه! سترة جديدة. خلع طماقيه وحل رباط سرواله، لأن قلة النوم تسبب تورم القدمين والمفاصل. يكرر:

– لاشئ. لكن ميدالية التضحية في سبيل الوطن لن يحجبها عنى أحد. أكثر من شهر حجزاً في المستشفى سيسجل لى.

يصيبه دوار ويهين صوته. فى رشاقة زائفة ينهض ويذرع الحجرة متجنباً نطاق النافذة. يتمضمض بالماء ويبصقه كله دماً من فمه وأنفه. فى الخارج يستأنف إطلاق النيران فى جلبية تصم الآذان. من الناضور تأتى أفواج من المغاربة فى صخب متفائل وسعيد. يفكر بيانثي: "هذا أسوأ ما فى الأمر، هذا ما يقتعر له البدن. يبدو كأنهم هم السادة".

يعود رجل الحرس المدنى إلى موقعه فى الحجرة المجاورة ويأتى الرقيب "كما ترى" برفقة شيخ من المدنيين.

– تعلم من هذا الفتى الذى جاء من R سيراً على قدميه، كما ترى.

– لكن، ماذا سيحدث هنا، أيها الرقيب؟ ماذا يحدث؟ لقد ذهبوا زوجتى وأولادى فى الناضور: وسلبوا ممتلكاتى. وأنا الآن هنا. ماذا ينتظرنا أيها الرقيب؟

– المدنيون الآخرون الذين قدموا معك يحاربون فى أسفل كالجنود المحنكين، كما ترى. هم أيضاً لديهم أسرهم، هذا قولى.

– لكن ماذا سيحدث؟

– لاشئ يارجل. هو أمر هين جداً. فى غضون ثمان وأربعين ساعة إما أن نكون فى مليلة أو متنا من الجوع أو يكونوا شقوا قلوبنا بطعنة، كما ترى، ليس أمراً معقداً.

يذهب. بيانثي، بإيماءة، يشير إليه بأن يجلس على الأرض ويشحن له البندقية. بما أن هنالك رجلين يمكن إطلاق النار بلا توقف. كم طلقة معه، مائة وخمسون؟ ثلاث علب ذخيرة؟ يبكي العجوز ويشحن البندقية على

نحو أخرق . كلا، يا رجل، خمس طلقات أسفل وواحدة في غرفة الاحتراق : أي ست طلقات . يجيد بيانثي التصويب على الهدف . ومن جديد تؤله كتفه ويؤله خده . في الغرفة المجاورة تسمع صرخة وشيء يرتطم بشدة . يرى بيانثي على الأرض جزءاً من ساق بشرية . البقية يحجبها الحائط . رجل الحرس المدني ؟ يطل العجوز :
- أجل يا سيدي، رجل الحرس المدني . ماذا سيحدث هنا يا فتى ؟ آه، يا إلهي ! أصبحنا كالوحوش .

تخف النيران في الخارج . ومع ذلك يطلق بيانثي النار بسرعة أشد .
- اتجيد إطلاق النار ؟
يوميء العجوز بالإيجاب .
- هيا، أطلق النار، وصوب دائماً على من يرتدون جلابيب زرقاء .
ينهض العجوز . يطل . يثب وثبة ثم يختر على الأرض وقدماه إلى أعلى . يرى بيانثي جبهته المثقوبة ويلعن . للحرب نواميس غريبة تتحقق دوماً، بدقة شاذة . تصفي الجبناء أولاً كأنما هم عوائق أمام بهائها الخاص والوحشي، وتحترم الجسورين والمغامرين .
عشر دقائق من إطلاق النار السريع، والمغاربة يعودون إلى مخابئهم، مخلفين وراءهم بعض القتلى . من البديهي أنهم لا يتعجلون الأمور وأنهم سينتظرون وسيصوبون نحو النوافذ من مواقعهم الحصينة، سينتظرون أن يجبرهم الجوع ونفاد الذخيرة على الاستسلام .
بيانثي يتوقف عن إطلاق النار ويحصي ما معه من طلقات . يعتبر

طلقات العجوز خير عون له . العجوز واقف على قدميه، لم يمت . يتقدم نحوه، يحشو البندقية، يطل بلا اهتمام من النافذة، يطلق النار مرتين، ثلاثاً . ينثال الدم على حاجبيه ويغطي عينيه . يجبره بيانثي على التراجع ويسلبه البندقية . سرب من الطلقات ولج من النافذة وانفجر في طوب الجدار العاري المتهدم . يتهالك العجوز في ركن، زائع البصر، وإحدى عينيه شبه مغلقة . لا تسمع له أية شكوى . بعد ساعات، مات العجوز وشخص ما — هو نفسه؟ — كتب بقلم الرصاص على الحائط، بجواره: "هنا قضى نحبه خوان جارثيا سولير، تاجر نبيذ من لقنت، بعد أن رأى بعينيه كل أفراد أسرته يقتلون بخصّة" . يحك بيانثي بظفره قوس حرف "الصاد" في الكلمة الأخيرة لتصبح "بخسة" ، ويأخذ الطلقات التي كان يحملها في خصرته . في وجود تلك الجثة في وضع الشروع في النهوض والتي تنظر بعين وحيدة مفتوحة، تخيم على الحجرة الآن وحشة لم تكن تلاحظ من قبل . يعود إلى النافذة، لكن عين خوان جارثيا سولير ناشبة في قفاه فلا يستعيد هدوءه . يمدد الجثة على الأرض ويقلبها على وجهها .

لا يحاول المغاربة الهجوم . من حين لآخر، يرد عليهم بشحنات صائبة . وهكذا ينصرم النهار . يمنعهم الجوع من الحديث، من حمل البندقية، من الوقوف . خمسة أيام بلا طعام، منذ أعطاه الشيخ الهارب رغيف الذرة . مع هبوط الليل، تقترب من الجوع قلة النوم . والرقيب، في حيويته الخارقة، لا يتحدث عن الطعام أو النوم . يذهب ويجيء، يتحدث عن وقائع كل لحظة وعن القطار المصفح وعن الجنرال N الذي سينسحب من أعروي

والذي من المؤكد أنه سيسترد الناضور ويتحصن بها. لكن بيانثي لا يلتفت إليه. ينفحه الجوع خموداً معنوياً أشد ويعلم كيف يواجه ما يرى وما يسمع. يحضر الرقيب ويطلب منه عشرين طلقة. بعد أن يعطيها له ينبهه: - لم تعد معي سوى عشرين أخرى.

مستنداً إلى الجدار، بجانب النافذة، ينعس تحت الطلقات المتفرقة، السخرية والتهديد اللذين يأتيان من الخارج. يسمع أيضاً وسط الظلال داخل المنزل أنيناً بطيئاً ممتداً، زائفاً، لشخص فقد وعيه بنفسه. الجندي ذو الفكين المهشمين، ربما.

لكن الجوع، الجوع المتجسد في الظلمة، يعتصر بطنه، يطوي صدغيه كمن يقتل حبلاً حتى غار خداه فلا أحد يعلم هل تخرج لحيته من عظمه أم من جلده: الجوع يحرمه النوم. أليس مخالفاً للوائح أن ينام، الآن بعد أن عاد اتصاله باللوائح؟ لكن بيانثي يسلم نفسه للامبالاة ناعمة ومرتخية، لامبالاة مريحة كتأبوت مبطن ووثير. عيناه المواربتان، إثر اعتياد الظلمة، تنظران في هوس إلى الباب، المتحرك في جموده كباب، لا أحد يمكنه أن يواربه أو يفتحه، بسبب ربله ساق جندي الحرس المدني. ساق بضّة، مكتنزة، بيضاء.

تمر فكرة كالبرق، وعلى الرغم من أن بيانثي يطردها، تخلف وراءها أثراً، بذرة. وبعد قليل، تنبعث من جديد وبيانثي، قبل أن يرفضها، يفكر: "أصير الإنسان أشد همجية من الوحوش، لأن الوحوش لا تاكل بنات جنسها". ثم يتأمل: "غير أننا لو أمعنا الفكر، لوجدنا أن الأساس هو البقاء". يجرب رفض هذا الهوس رفضاً قاطعاً، لكنه حين يسقط فيه مرة أخرى لا يملك سوى التفكير: "أسينتبهون إليه؟ بوسعي أن أقلب الميت على ظهره فلا أحد سيذهب ليرى إذا كانت سمانتا الساق سليميتين". في نهاية الأمر، يتسلل إليه والمدينة في يمينه. كلما اقترب حفزته نشوى الأكل: لكنه،

على أعتاب الفعل، على مسافة قدمين من الجثة، يحبس أنفاسه. لا أحد في الحجرة المجاورة، النافذة مهجورة: لا بد أنهم جميعاً هبطوا إلى الطابق الأرضي. يتقدم ثانية. صوب الجانب الآخر من الجثة، شخص يزحف أياً لكنه سرعان ما يفر في اتجاه السلم. بيانثي يتراجع، يحبس أنفاسه، يبلغ النافذة، يتهالك على الأرض ووجهه إلى الحائط. طلقات في أسفل، لم يزل شخص يئن أنيناً زائفاً كالأطفال حين يغالبهم النعاس. يسمع وقع ركض في أسفل ويستأنف تراشق النيران. يهم بيانثي بالنهوض لكن جسده يثقل عليه بشدة فينام وخده إلى الأرضية الباردة. هوس اللوائح يترع نومه بخطوات منتظمة وبصراخ الأوامر. صوت خمسين ضابطاً ورئيساً معاً يوجه إليه الأوامر. وبواقان أو ثلاثة يقلدون صياح الديك. يقول بيانثي:

— ثم ماذا؟ ما ينبغي أن نفعله؟

— ألا ترى أنك خلفت وراءك أكثر من عشرة آلاف قتيل؟

— بلى ياسيدي، وماذا ينبغي أن نفعل؟

— أما زلت تسأل ماذا ينبغي أن نفعل؟ الخطوة المعتادة، اللعنة! لو أنك

سرت بالخطوة المعتادة في حينه لكان لنا شأن آخر

مرة أخرى يقلد البواق صياح الديك.

— انتباه! بالخطوة المعتادة!... هوب!

الرؤساء والضباط يصرخون معاً، ويسرون بالخطوة المعتادة في

أماكنهم، كالخورس في أوبريت:

— تحيا إسبانيا!

بيانثي يرى السهل مغطى بالقتلى. عشرة آلاف، والفان آخران في

أعروى. عيون الرؤساء والضباط الخمسين تحدجه، تنتظر أن يردد الهتاف.

وبيانثي، حين ينتبه، يسرع هاتفاً:

— تحيا!

ممدداً على الأرض، يرى في مواجهته انعكاساً له : منهكاً، خائر القوى،
بائساً، محتقن الوجه . خزائن الطلقات والبندقية تعززان رسمه الهزلي،
الذي لم تتبق فيه أية بادرة شفقة : غاب التناغم عن هذا الألم وهذا البؤس،
وتفاقم بعدهما عن أي احتمال أو أي زعم إنساني حتى إن الشفقة لن
تبلغهما . يرى إلى نفسه في مباغته وازدراء، خارج وعيه الجسدي بحياته .
يتأخر برهة في تذكر أنه مستلق، ممدد ووجهه إلى الحائط .

أما اليقظة فتمنحه شعوراً بالسقوط في بئر معتمة، مترعة بالهمس،
بالظلمات الرطبة . في الحلم، كان يرى صورته تحت ضوء غير واقعي غير أنه
أحياناً كان بالغ السطوع كضوء الشمس . والآن، وهو يستيقظ، يغوص في
ظلال الفجر ويشعر كأنما يسقط في كابوس حقيقي . شخص يهزه :

— ماذا تفعل يا ثيرنيولا؟ لقد جاءوا حتى الباب وشاء ثلاثة منهم
الدخول من النافذة . يبدو أن الجنرال N قد سلم في أعروي كل الفرقة، بلا
سلاح، وقضى عليهم . جاء أكثر من عشرة آلاف مغربي من هناك . كم
طلقة بقيت معك؟

— خمس عشرة!

— حين تنفذ اهبط إلى صحن المنزل!

يأتي الفجر، ككل فجر، مُعْرِضاً وساكناً في شحوبه الصوفي . فيما
بعد، تسقط الشمس على المنزل وتعكس ظلالاً ممتدة . تبحر نوارس في
الزرقعة وتقوم بصيدها الصباحي على مستوى الماء، حمائم رسمها تلميذ
رسماً ساذجاً .

يفكر بيانثي في كلمات الرقيب . فيم الهبوط إلى صحن الدار؟ هل

يفكرون في الخروج والهجوم بالسونكي؟ ما عادوا يتحملون وزن البندقية ولا سيقانهم عادت تحملهم. أعلى جبل الجرجرة، تسمع قذائف المدفعية، ناحية مليلة. أيقصفون القرية؟ شيء يتهدم في الطابق السفلي. بيانثي، واقفاً في النافذة، يفتح النار على المغاربة الذين يحاولون الاقتراب سدى. من النوافذ الأخرى، تطلق ستة أو ثمانية أعيرة أخرى، وعلى الرغم من أنها لا تصيب الهدف توقف تقدمهم. وبعد أن يطلق بيانثي آخر رصاصة يهبظ إلى صحن المنزل. في أحد الأركان هنالك دلو ماء ينظر إليه بيانثي بلا اكتراث مع أنه لم يجرب الماء منذ يومين.

جميعهم هناك تقريباً. الغائبون يحرسون النوافذ أو يتحللون فوق البلاط. يطلق المغاربة قذائف مدافع والطلقات وشيكة النفاد - بقيت ست أو سبع -؛ ومنهم من لم يأكل شيئاً منذ عشرة أيام. روث الخيل فُحص بعناية للتأكد من خلوه من حبات الشعير. ومع ذلك، هنالك من يريد مواصلة الدفاع عن النفس بالسونكي أو بالنواجذ. آخرون - ومنهم بيانثي - يرون انتظار الليل ثم الخروج تحت جناح الظلام صوب مليلة. لكن قذائف المدفعية تطن في مرورها وتنتجه نحو البحر. لو أنهم أجادوا التصويب بقذيفتين أو ثلاث لما نجا فار. واحتمال النجاة الوحيد الاستسلام وتوقع أن يكون الملل أصابهم بعد مذابح أعروى. يحتفظ كل منهم في أعماقه بشيء من الطاقة لكنه حين يرى وجوه الآخرين يهز منكبيه: "هذا أنكى من الموت"، ثم ينظرون بحسد إلى الجثث في الفناء.

- ينبغي دفنهم.

يذهب ثلاثة. الجثث كثيرة. علينا أن نشق أخدوداً ضخماً وليس لدينا ما نستخدمه. على معجن مقلوب كتب أحدهم بمسمار: "أنا من السرية الثانية واسمي رامير...". ولم يكمله. يقول أحدهم مشيراً إلى أقرب جثة: - هذا جاء هنا حياً.

وكمّن يغالبه النعاس يقول آخر بصوت بعيد :

— كنت أعرفه . إنه راميرو إيثيسا جونثالث .

يجثو على ركبتيه وبنفس المسمار ينتهي من كتابة الاسم ثم يذهب .
عجالة تأكيد البقاء هذه ، بكتابة الاسم في أي مكان ، هي أشد التهورات
بؤساً وإجماعاً في الإنسان الذي ألفى نفسه بغتة أمام الموت .

فتحت الأبواب ونزعت مهمات الجنود . كيف حدث ذلك ؟ حين كانوا
يتشاورون في الطابق الأرضي رفعت الراية البيضاء : مزقة من قميص ميت .
يرتفع صوت : لا تحطموا البنادق ، لاتخفوا ذراع الإطلاق . قلق لحظي فيما
يكومون البنادق بجانب الباب . بعد ذلك ، بأمر من عدد من الفرسان
المغاربة ، يصطفون في جانب . بحساب من دخلوا في الأيام الأخيرة هم
خمس عشرة أو عشرون .

بيانشي آخر من يصطف . يلتقط المغاربة البنادق ويعدونها دون أن
يلتفتوا إلى الأسرى . فيما بعد ، مجموعة تحمل شارة الشرطة المغربية
تدخل الفناء ، والجنود ، بعد أن أصبحوا بلا أحزمة ، في ذلك العري
المنكمش والمجعد من الزي ، يخرجون من فتحة شارع يحيط بالمبنى
—أساس سور توقف العمل في بنائه— ، بعد أن خضعوا للاستجواب :

— مريض ؟

— لا .

— مصاب ؟

— نعم .

— يمكنك السير؟

ثم يمر الأسير ويقف عند الباب الآخر مراقباً. بعضهم يكذب، بعد أن يتردد قليلاً، يتمتم مرعوباً بأنه مصاب ومريض ظاناً أن ذلك سيعود عليه بنفع. من يقر بعدم قدرته على السير يقتاد إلى الفناء. وحين يجتمع هناك ثلاثة أو أربعة يسمع دوي شحنة طلقات. يرى بيانثي أنهم يعدمونهم رمياً بالرصاص وينبه قدر استطاعته أقربهم إليه. يذهب آخران إلى الفناء، ومن جديد تسمع دفقة سلاح. بيانثي يجيب قائلاً إنه جائع فقط وإنه ليس مصاباً أو مريضاً. بقع سترته تفضحه؛ لكنه يفسر ذلك بأنها من أثر نقل الجرحى والقتلى. يعبر الشارع. سيكشفوني، سيأتون ليتأكدوا هل أنا جريح، وساموت كالآخرين. كلما اقترب منه واحد من الوطنيين تعززت مخاوفه.

جالساً في الشمس في صف قصير من عشرة أمتار أو اثني عشر، يرى الآكام في المواجهة، و"القصة" المشيدة للقوات الوطنية ويستخدمها الآن المتمردون مقراً للقيادة. جزء من الناضور يرى إلى الخلف، وراء مطحن الدقيق، ويمتد مفلطحاً تحت الشمس في سكون ظاهر لا تعكره الخرق التي، من مكان إلى آخر، لا تغطي بعض الجثث. سكون طاغ كسكون ضواحي مدينة صناعية في يوم عطلة.

وقضبان شريط القطار تبدو كأنما رفعتها فرقة حربية لتقوم بإصلاحها أو بتحويل مسار الخط.

بلا سلاح، بلا معدات، يشعر بيانثي بأنه خالٍ من المسؤولية، بأمان شاذ وجديد. فالمسؤوليات السابقة لم تكن تحمل في طياتها الوعي بأداء الواجب بل بنظام جمعي إجباري. اللحظة القادمة لا يعلمها لكنه يخمنها مجدداً ذكرى الأسرى الذين كانوا يصعدون إلى دراوشة ويجرون مدفعين. من يراقبنا؟ إنه ذلك الشيخ الذي يحمل بندقية مشحمة ولامعة ويغني أغنية

حزينة بين أسنانه وهو جالس القرفصاء، ثم ذلك الفتى ذو الخطم الناتئ الذي يجرب إحكام حامل البندقية والذي حين يراقب الأسرى يفعل ذلك بنظرة مظفرة ومزدرية متسائلاً بإيماءة تحدّ ماذا سيحدث لو أن أحداً اجتراً بدوره على النظر إليه.

وأخيراً، يقول محرّكاً ذراعه حركة بذائعة:

— جثتم من هناك، من أنوال؟ حسن، ستعودون إلى هناك، بل إلى أبعد من هناك، إلى قبيلة ريفية.
يقول من بجانبه:

— سيرسلوننا نحو الداخل.

يحس بيانثي تحت جمجمته بتجويف كثيف من الهواء الساخن يعكر نظرتة وأحياناً يصيبه بالدوار. ينهض مذعوراً، خوفاً من أن يفقد وعيه، وحين يرى العجوز يصوب بندقيته نحوه يعاود الجلوس. في الحال، تأتي جماعة من فرسان بجلابيب وبرانيس زرقاء. يتحدّثون بالعربية، دون أن يهتموا بالأسرى، ويرحلون بقفزة، ركضاً، صوب الناضور. يقف الحراس وينهضون الأسرى. يقودونهم إلى القسبة. يفكر بيانثي في عدم اكتراث: كي يعدمونا رمياً بالرصاص.

هناك، قبل إيداعهم الزنازين التي كانت الإدارة الإسبانية أعدتها للوطنيين المتمردين، يوزعون عليهم خبز الشعير. في هذه اللحظة وحدها يعون أنهم تحت رحمة المغاربة، أنهم عاشوا ويعيشون حياة بائسة وذليلة بشكل خائق، يطهرون ذنوب غيرهم، لأن أعوام كل القليلة لا تسع شراً

آثماً إلى هذا الحد . لا يتحدث الحنود فيما بينهم، ليس لديهم ما يقولونه أو يفكرون فيه . ينظر بعضهم إلى البناية المهجورة بعد أن دافع عنها ببسالة ورواها بدمه .

ما زال بيانثي يشعر في رقبته بالأثر الحاد لنظرة الجثة . أحدهم، أكثرهم ذهولاً، يغني، وذلك الهدوء يضايق الحارس الذي يقذفه بحجر كما يقذف كلباً يصصر على النباح . بيانثي أكل الخبز في بطنه ثم لبث ساعات ونظرته معلقة بقدميه المتيبستين والمتشققتين، لا يفكر في شيء . قرب الأصيل، يوقظ من بجواره الذي يرقد وعيناه مفتوحتان، ويقول له بصوت خفيض:

- اسمع، أتدري هل ستكون الليلة مقمرة؟

- ستكون هناك صفعات!

- في أي يوم نحن؟ الاثنين، الثلاثاء أم ماذا؟

- لا اثنين ولا ثلاثاء ولا نحن في أي يوم من الشهر . هذه الأيام لا وجود لها في أية رزنامة، وإذا ظهر القمر فلن يكون كما كان . ألا ترى أن كل شيء مستغلق؟

يقول أحدهم بوجه خال من التعبير على نحو رهيب:

- أنت من كتيبة 42؟ أكثر من عشرين من 42 سقطوا هناك وراءنا؛ كانوا يركضون فيرشقهم المغاربة بالسيوف . قتلوا ملازماً كذلك .

- دعنا نرقد، اللعنة!

- وملازماً كذلك؟

- كانوا قادمين من أعروى ويريدون التحدث إلى الجنرال N وتقدم-

تقرير مكتوب . أتدري ما أقول؟ حتى المغاربة يسدون خدمة للجنرالات .

بيانثي يتثائب:

- تقديم تقرير ضد جنرال! يكفي أن تقول ذلك! وها أنت ترى إذا كان

بوسعهم الآن تقديم التقرير!

-أيها الحمقى! أفي وسعنا أن ننام؟
- قالوا إن علينا أن ننقل إلى هنا شريط القطار والرواقد. مهما يكن
الأمر ستتعبن هنا يا رجل!
يدخل مغربي شديد الحزم، وبصوت رخيم ورجولي يأمر:
- هيا، هيا، إلى الصف!
يضيفي التعب والجروح عليهم نحرًا من الثاقل فيوسعونهم لكماً وضرباً
بمؤخرة البندقية. الذي كان ينعس وعيناه مفتوحتان لم يزل في موضعه،
يغط في نومه. يركله المغربي بقدمه ويهزه: ودون أن يصحو تماماً يغمغم
الجندي: "أنذالاً".
بعد خروج الأسرى في طابور تسمع خبطة ناعمة. لبث الجندي
الناعس في نفس موضعه هامداً وقد تهشمت ثلاثة ضلوع وعظمة الترقوة.

النجاة.

الحرب.

أداء الخدمة العسكرية.

سلام الموتى.

بيانشي استعد للفرار. بيقين أنه لو عاد إلى أنوال سيلقى حتفه، وجد الدوافع الحاسمة لمحاولة الفرار صوب مليلة. عشرة كيلو مترات: الجبل إلى جانب؛ وعلى الآخر، البحر. الجبل محتشد بالتمرديين: أبراج حراسة مصوبة نحو الطريق بقنابل يدوية ورشاشات ومدافع. لن يصل إلى مليلة، لكنه يفضل الموت وحيداً، وجهه إلى البحر، وهدير الماء في مسامعه. يخشى جير سهول أعروى، دراوشة، يستيتين؛ يخشى السقوط فيها، البقاء محنطاً تحت الشمس قبل أن يموت. يقترب المغيب. مازالوا يعملون، سيهبط الليل عليهم ومع الظلال الأولى يمكنه أن يتسلل يسار حاجز الطريق، على جانب البحر، ويركض. على مسافة ثلاثين خطوة، سيختلط زيه المغبر بالظلال، وحين تتراكم هذه حوله سيسهل الفرار.

قد يصل إلى مليلة. كل شيء يتلخص في ألا يرسلوه مع الفرقة التي تجلب الرواقد وأجزاء من شريط القطار؛ في أن يبقى هناك مع من يبقى عند حاجز الطريق، يفك ويخلع الحديد. يعمل حوالى خمسين رجلاً في مجموعتين، والمغاربة يغنون جلوساً، ببنادقهم مستعدة وأعينهم ساكنة متمهلة وفطنة معاً، متحرية. يقول جندي:

— أغداً نرحل مرة أخرى إلى أنوال؟ أبلغ بنا الأمر هذا الحد؟

يراقب بيانشي الظلال، الممتدة الآن ساعة المغيب. الآن، الضوء يكتسي عذوبة، يتخذ درجة الياقوت الأصفر، لون الشفق. على مسافة أربعين خطوة أمست الظلال مبهمة. يمشك وهلة أخرى منحنيًا، ينظر ورأسه إلى

أسفل إلى الحارس فيما يصطنع أنه يعمل . عدة دقائق أخرى . لو أنه انتظر لحظة واحدة سيكون الفرار مستحيلاً ، لأن جنود الفرقة الأخرى ينتهون من أعمالهم وسيكون هذا آخر مشوار . لكن ما زال هناك ضوء : سيكون الضوء مرة أخرى هو من يطلق صوت الإنذار ، سيتقيا شرراً على ظهره الهزيل النحيف .

ينهض ؛ يلقي آخر نظرة . وهو يهم بالقفز ، يسمع إلى يساره صوت . الحارس يبلغ الآخرين فينهضون جميعاً ؛ يسقط بيانثي على الجانب الآخر ، يزحف على الرمال الساخنة ، يجرى . يلتقي بجندي آخر يصعد مسرعاً . يقول بيانثي :

— أيها الأحق ، إلى أين ؟

— كنت أريد الفرار لكنني خائف .

— مم ؟

— لا أعرف . أنا عائد إلى هناك .

— أنت مخبول ؟

— مخبول من يعاود البدء مرة ثانية بإرادته . هناك — يشير إلى مليلة — أعاني من الجوع والبرد ، أحتمل الضرب بالعصا ولا أحوز سنتيماً واحداً وأحيا كما لو كنت في سجن . وكل هذا له ؟ لكي يحدث ما رأيناه الآن . الجرح الوحيد الذي أحمله أصابني به ضابط ، وأنا أرى أن المغاربة يتعاونون فيما بينهم وليس هنالك كل تلك النجوم ولا كل تلك الأعراق . كلهم رجال وأنا رجل آخر مثلهم .

يجري بيانثي بكل قواه ؛ وسرعان ما يسمع طلقات خلفه ؛ ولكنها

طلقات بالغة الخطأ والارتجالية حتى إنه لا يحس بمسار الأعيرة . بالوعة صرف سفوح الجرجرة . يمكنه أن يختبئ فيها ساعة الخطر؛ الآن تشتد كثافة الظلال ولا تكاد تحتجز شيئاً من ضوء السماء . لكن الحاجز ينحدر إلى أسفل، والبالوعات يتضائل بروزها عن الأرض، وفي لحظة بعينها تختفى إلى اليسار قليلاً من برج المراقبة ويمتد شريط القطار فوق الريف المنبسط . أعمدة تلغراف مقطوعة، نقطة حراسة مهدمة ويصدر عنها ضجيج حفل - دفوف ونايات-، كأنها قادمة من تحت الأرض .

من الناضور لن يدركه أحد الآن، مهما يركض . الظلال باتت بالغة الكثافة، فعلى مسافة خمس عشرة خطوة لا تستبين الأشياء . يركض أسفل كتلة جبل الجرجرة غير المنتظمة التي يعن أن محاور دوارنها أحياناً فوق رأسه، ويهدده بالانسحاق تحته، والتي تشق السماء بغثة كسحابة عاصفة . غياب البعيد ينفع الهواء خفوتاً طازجاً ورطباً، بمنأى عن السهول الجيرية الخائفة .

ساعة من الهرولة تنهك قواه فلا يمكنه متابعة السير . يتوقف بجانب كوخ على الطريق يبرز ظله الحاد . طلقة بندقية تحك أذنيه . ينبطح أرضاً ويهم بالتراجع زحفاً، نحو البحر الذي انفصل عن شريط القطار بحوالى أكثر من كيلو مترين . يطارده رصاص الحراس . مغاربة؟ أم طليعة دفاع مليلة؟ على أية حال، عليه الفرار، مواصلة طريقة، تجنب تكرار كارثة مطحن الدقيق . الأعيرة تنطلق من الكوخ الذى يراه بيانثي الآن أكثر وضوحاً محصناً بأكياس الرمل . طنين قنابل يعقب طلقات مدفع .

يقترب من مليلة؛ هاهى أكشاك السكك الحديدية المحصنة كأبراج المراقبة . لا بد أن قواتنا تحميها؛ لكن من العبث محاولة الدخول . مازال يلف حولها من بعيد . سلسلة أخرى من طلقات المدافع ويرتفع عمود من الغبار والدخان فوق الكشك . أسقطوا كل الساتر من أحد الجوانب . بيانثي

يركض. أعيرة نارية خلفه، ناحية البحر البعيد الآن. مازال يركض بعيداً عن الطريق الذى يظهر تارة ثم يختفى إلى اليسار. والأرض تحت قدميه تعلو وتهبط وتتذبذب كالبحر تحت الريح.

ساعة أخرى ويصل إلى ضواحي مليلة. يرى ظلال مضمار الخيل وخيام ميدان محتمة. خطوط من الأسلاك والخنادق، وشحنة رشاش تمر عالية. يجرب الالتفاف حول حي "الريال" لكن التحصينات تتضاعف وأقل صوت يستدعى طلقات الرشاشات. تتكاثف الظلمة صوب طريق السيارات. المدينة غارقة فى الظلام لعرقلة مهمة نيران المدفعية.

بيانثي منبطح، ووجهه فى بركة ماء، قد يكون ماء الرشاشات، يحبس أنفاسه. ثم يصرخ. من بعيد، يسمع صوت نحت الأرض، غير مكترث ومتعب: "حكم دار النوبة". ثم عشر دقائق بطيئة، رهيبة. صوت آخر يتحدث من الظلمة:

— إلى اليسار هنالك ثغرة فى السلك الشائك. ادخل من هناك.

يتناقلون أمراً لا يكاد يفهم إلا من الجرس المكرور لنفس الكلمات. بيانثي يزحف إلى اليسار، متجنباً ملمساً بارداً ولزجاً لسيقان عارية ومزق وبعد قليل يثب فوق كيس رمل ويسقط داخل الخندق. يسأل أحدهم:

— أنت مصاب؟

يجيب بيانثي أن نعم. لكنه سيدخل المستشفى. ليست الإصابة خطيرة: هو فقط جائع ومتعب.

يهز الرقيب منكبيه. ينظر إليه فى فضول.

- ساعطي "التمام" . انتظر.
 حينئذ يقترب منه بعض الجنود:
 - أجمت من R؟
 - أقتل الجنرال S نفسه بعبارة؟
 - في أعروى، هل استسلموا؟
 أسئلة حمقاء، بلا معنى، لها نبرة الثكنات تلك التي تجرد الأحداث من واقعها وتحولها إلى تفاصيل معتادة في الخدمة:
 - جاءت إلى هنا قوات من سبتة وتطوان. لكن هؤلاء الآن لا يدخلون في خفريات الحراسة. لكي تؤدي الحراسة بشكل مريح لا بد أن تأتي على الأقل ثلاثون كتيبة أخرى. في الليل لا ينقصنا بعض القصف؛ أما في حالتك، لو فهمت، فستدخل المستشفى وكل شيء على مايرام.
 يعود الرقيب:
 - هيا، ثرنبولاً، قدم نفسك.
 يتجه بيانثي إلى الخيمة التي تلاصق جداراً. مثلث القماش مفتوح. يلزمه شعور مبهم بالرضا. شعور لا يستكهنه. لأول مرة يقترب هادئاً من ضابط. تربط بينهم الآن -جنوداً وضباطاً- أسرار كثيرة. يسقط مرة أخرى في النظام بوعى ناضج وفطن فيما يتصل بالطاعة العسكرية.
 -أتأذن لي؟
 ضابط يرتدي قميصاً جالس يقرأ على ضوء كشاف جيب.
 - "تمام" ياسيدى الملازم!
 -إيه؟
 - "تمام" يا سيدى الملازم!
 ينهض في شدة غضبه:
 -أي ملازم وأى لعنة! لا تنظر إليّ بهذا الوجه الغبى وإلا ساهق

روحك! ألا تعرفني! ألا تعرف النقيب أرناو؟
بيانشي يرى على كم السترة، على السرير، شارة النقيب، يهمهم:
- نعم يا سيدى. أنا من ثرنيو لا.
- لا يهم، النقيب أرناو معروف فى كل مكان. أقسم لك أننى سأترك
لك ذكرى طيبة لو وقعت فى متناول يدى. ماذا تنتظر؟ اغرب عن وجهى!

يخرج بيانشي ويسمعه يدمدم:
- ما أحققهم! ألا يستطيع المرء أن يخلع سترته أبداً؟

لكن مستشفى الفونسو الثانى عشر ليس قريباً كما خمن. عليه أن
يتحسس طريقه، يبحث عن الطريق الذى لا يتذكره جيداً. بغتة،
يستحضر ذكرى لها علاقة بالنقيب. رأى هذا الرجل فى سيارة، واستبقى
جيداً تعبيره الفظ والمرتاب. وأخيراً يتذكر أنه كان من بين من يرافقون
الرائد الذى هشم أصابعه بمؤخرة المسدس، بالقرب من دراوشة. لقد
تمكنوا من الوصول والنجاة. يفكر بيانشي فى ذلك بسمت حاقد وحائق.
يسير الآن بين منازل ماهرة ومسالمة. هذا هو حى الريال وشارع
المواخير المحترمة. من يدرنها، بدل أن يدخلن تبغاً بنصف ريال، لديهن
سلة تطريز وصداق. والجنود يحضرون إلى هنا فقط حين يحتكمون على
نقود كثيرة، لأن الحى بعيد عن وسط البلدة ويجب أن يستقلوا سيارة
أجرة. لكن طليعة القوات الآن متمركزة فى حى الريال والفرصة مواتية.
إلى جانب باب، تتحرك ظلال مضطربة:

-هيا يا فتاة، فنحن ثلاثة فقط .
 -أولئك المدنيون، أبناء من أنجبتهم، سبقونا . لكن لو فتحوا لنا لن
 يبقى منهم أحد .
 -مدنيون، حسن ! أمس كنت أقوم بالمراقبة، وأى صخب أيها الفتيان !
 طردنا كل المدنيين من ثلاثة مقاهٍ . "هيا، فلنمسك بهم أحياء" . كانوا
 يقفزون من النوافذ .
 ويردف وهو يهز رأسه يمناً ويسرى :
 -آه، الكاذبة !
 يضحك الآخرون . يطل رأس من الشرفة :
 -أيها السادة، كفاكم ! قلت لكم إن البنات راقدات .
 يمر بيانثي . يستوقفه صوت .
 -ما هذا؟ ألم تعلموك إلقاء التحية ؟
 -رأسي مكشوف . لا أحمل "طاقة" .
 -ماذا تقول؟ صه ! انتباه !
 بيانثي يطيع . قدماء لا تحتملانه ورأسه ثقيل وثمة طنين في أذنيه
 يسبب له الدوار .
 -وهل لأنك تسير بلا شيء على رأسك لا تؤدي التحية ؟
 بهم بالرد . الحيرة تمنعه من ذلك في تلك اللحظة، فيما يأمره أحدهم :
 -لليمين، للأمام، بالخطوة السريعة . . . عا !
 يطلق بيانثي ساقيه للريح بخطوة "جمباز" . يأمره الآخر "لليمين در"
 حين يتعد قليلاً، ثم "ليسار در" ، وهكذا يمر أمام المجموعة مرة بعد مرة،
 سائراً حوالى اثنتى عشرة خطوة فى كل اتجاه . حين يسمع لهائه وتردده
 يخلون سبيله . يقول أحدهم :
 -هذا البائس يعرج !

فيضحك خمستهم.

أخيراً يصل بيانثي إلى المستشفى. يدخل فناء واسعاً ومكتشوفاً. في الطريق المقابل، من سلم أحد العنابر، تقترب منه راهبة.

—ماذا تريد؟ عم تبحث؟

—كنت في طريقى إلى هنا. اليس هذا المستشفى؟

—بلى. ماذا تريد؟

—أنا جريح.

—آه، فهمت! اليس في كتيبتك حقيبة طبية؟

—بلى، من قبل، لكن أطلقى الآن كلباً سلوكياً ليلحق بالحقيبة

والكتيبة!

—ماذا تقول؟ من أين جئت؟

—من أنوال.

—يا إلهى! تفضل. هل أصابتك خطيرة؟ لا داعى لمضايقة الطبيب

المنوب، اليس كذلك؟

ينتقل بيانثي إلى حجرة صغيرة باردة وشبه خالية من الاثاث تذكره

—دون أن يدري السبب— بحجرة البلدية فى قريته حيث أجروا عليه

الكشف الطبى للمجندين. الحق أن بها ميزاناً بمقياس أطوال وخريطة.

المرض الشاب والبدن يقيسه بالنظر.

—أين؟

بيانثي يريه بده اليسرى المتورمة. ينتقلان إلى غرفة أخرى يوجد بها

عدد من صنابير الماء وأوان طبية وشاش أبيض وزجاج فى كل مكان. يعري صدره. فى انعكاس الزجاج يرى نفسه هيكلاً عظيماً: ترسم ضلوعه ظلالاً متوازية، وعظمتا الترقوة مثل مقبضي حقيبة كبيرين. الممرض يداوى ويسأل. لكن يبدو أن ردود بيانثى لا ترضيه، ردود مبهمـة ومقتضبة: "الجوع، نعم يا سيدى، دائماً... بالطبع، فى أنوال... أعروى أعتقد أنهم استسلموا، لم أدخلها، مررت بها من بعيد ولم أمكث لأرى... مثل الذباب، أجل يا سيدى... هذا ما كنت أفكر فيه، فى أننى لن أموت متأثراً بمثل هذه الإصابات".

يقول له الممرض إن الحظ حالفه، لأن رصاصة الكتف نقرته فى اللحم ودون أن تكون غائرة، وكذلك العيار الذى أصاب ركبته، لكنه لكى يشفى ينبغى أن يمكث على الأقل خمسة عشر يوماً خارج الخدمة. بعد أن ضمـد جروحه، يحقنه بسائل أسود فى بطنه ويقيس نبضه مرة أخرى. ترى على وجهه دهشة بالغة. كان التطهير شديداً، ويحس بيانثى أنهم وضعوا تحت الضماد جذوة مشتعلة. يخرج من العيادة برفقة الراهبة التى تومئ إليه وتتقدمه إلى المطبخ. تقدم له قدحاً كبيراً من الفهوة بالحليب ثم تصحبه إلى الفناء وتتركه هناك:

—والنوم؟ أين أنام؟

—أمعك التصريح بالإعفاء من الخدمة؟

—كلا يا سيدتى!

تحدث الراهبة بصرامة مهذبة ومقنعة:

—إذن، لا يمكنك البقاء هنا. يجب أن تذهب إلى فرقتك.

—الحق... لم أنم منذ عشرة أيام ولم أقرب الزاد تقريباً. أنا مصاب!

استحلفك يا اختاه! لا بد أن هناك أسرة شاغرة.

—أجل، أجل. لكن، كيف بوسعنا أن نحتجزك بلا تصريح من فرقتك؟

مستحيل، مستحيل. الأمر ليس بيدي. لقد فعلوا أكثر من الواجب
بمداواتك؛ فليسوا مجبرين على معالجة كل من يأتي، فتلك مهمة إسعاف
الفرقة، لكننا هنا لسنا متزمتين بصدد الأوامر. من حسن الحظ أنه ليس ذلك
المرض الذي عاد إلى إسبانيا الشهر الماضي؛ فذلك كان يحفظ اللائحة ن
ظهر قلب ولم يخط قط خطوة لا تكون صحيحة. كان مبالغاً، في رأيي.
وكان شخصاً ممتازاً، بلا شك. ولن أكون أنا من ينتقده، محال.
يذهب بيانثي، حزيناً، دون أن يستمع لها. بعد ثلاث خطوات
يتوقف:

—وشكراً لك على كل شيء.

يجيبه الصوت الأنفي العذب:

—الشكر لله.

في الشارع، يتردد. هذا الأمر أصابه بحيرة أشد مما أصابته الأحداث
السابقة. أمامه، هنالك واد، أرض ممتدة وفي النهاية: حانتان، تعيشان بلا
شك على المستشفى. ربما ذهب إلى هناك غير أنه لا يملك سنتيماً. يداخله
شعور بأن الجميع أهملوه والأنكى شعوره بأنه أهمل نفسه. لا يجد مبررات
أو دوافع للاحتجاج.

يأتي من البحر نسيم عذب وبارد ينخر عظامه. القمل يسبب الضيق
والجروح مازالت تحرقه. مع ذلك، كانت القهوة بالحليب لذيدة وثقيلة
بمذاق قشدة طازجة رائع. يجلس في طريق صغيرة. يخرج الحارس من برج
الحراسة ويجول:

—ماذا تفعل هنا؟ أنتتظر أحداً؟

—كلا - يجيبه بيانثي رافعاً منكبيه ثم يردف حتى لا ينقطع

الحديث: - الجو بارد، أليس كذلك؟

—ادخل موقع الحراسة إن شئت.

بيانشي ينهض ويقبل العرض في صمت، بعرفان دفين. فكل هذا يعن له بالغ الحيرة، برودة متسول، أشخاص يتمسكون باللائحة، هدوء، تزمّت من لم يطل على الحقيقة الكبرى التي رأى - قبل قليل - أنهم يخفونها بين الري والعروض العسكرية، بين الكلمات الذكية الرائحة: وطنية، انضباط، شجاعة. يرتدى الحارس ملابس رائعة، كمن يعمل في المكاتب. عند الباب، تجبره قذيفة مدفع على الالتفات. أصوات مبحوحة تصدر من الداخل.

- ست عشرة.

- خمس عشرة.

- كلا، ست عشرة. وهذه سقطت بالقرب منا.

ممددين على الأرض، في أوضاع عنيفة، يرقد اثنا عشر أو خمسة عشر جندياً بملابس الميدان. الانطباع الأول يذكر بالجثث التي ظلت ليل نهار تحدد معالم الطريق إلى المدينة. لا ينامون على السرير الطويل ذي الألواح الخشبية لأنه مرتع للبق. يجلس بيانشي على الأرض. يقدم له حكمدار نبیذاً وسيجارة و"يسحبه من لسانه": لكن بيانشي لا يحكي سوى ما حدث له مع الراهبة. يقول له الحكمدار معتقداً أنه تلقى الإصابة في حي الريال:

- اذهب إلى الثكنة. النقيب الطيب كان بوسعه أن يعطيك تصريحاً لدخول المستشفى: بيد أنه ربما كان غائباً. حتى الثكنة هنالك مسيرة ساعة أو أكثر. أولاً، تخترق كل مليلة تم تخرج من البوليجونو وتصعد منحدرًا في الريف حتى كهريريش التاس.

— حين أصل ستكون الثانية فجراً ... إذا وصلت .

يلقى بنظرة على أقرب العنابر .

— لو أن فى وسعى العثور على مرتبة ...

— لأنك لا ترغب فى ذلك . الآن لا توجد حراسة . تتسلل إلى أى من

هذه العنابر، وترقد وفى الفجر تذهب . لن ينتبه إليك أحد .

يخرج مع الحكمدار الذى يرشده إلى الأبواب الخلفية للعنابر، على ارتفاع درجتى سلم بجانب المرحاض . "تدخل خلسة وترقد فى أول سرير شاغر" . يحزم أمره ويصعد مرتجفاً من نفاد صبره . السرير . مرتبة من الصوف فوق ألواح معدنية . النوم وعدم الخروج من هناك أبداً . الوسائد : بيضاء ووثيرة، لكى يتوسدها رأسه . ومشجب للملابس، لأن المرء هنا ينام عارياً، وليس كما فى الميدان . النوم ومواصلة النوم دائماً . فوق المرتبة الصوفية والوسادة الوثيرة .

يحزم أمره ويدخل . الصلاة — المستطيلة — غارقة فى خفوت عذب . وعلى ضوء مصباح زيتى يلعب أربعة رجال الورق مرتدين مآزر المستشفى الطويلة . يلعنون بصوت خفيض، ويخبطون بمقبض اليد على اللوح الخشبي الذى يستند إلى أفخاذهم . تركوا الأسرة واجتمعوا تحت هذا الضوء، الوحيد المسموح به . الخادم، عجوز مدنى ومعاون للممرضين والراهبات، ينعس بجانب الباب، مستلقياً على أول سرير .

حين يدخل بيانثي، يخفون الورق فى قلق . وفى الحال يتمالكون أنفسهم ويسبون الدخيل . يستيقظ الممرض العجوز وينهض :

— لا تورطونى، اللعنة . أسمح لكم باللعب ثم تسعون إلى خرابى لأقل

سبب . ألم ينته هذا؟

يلتفت أحدهم إلى الفراش . ثم جندى يحتضر، نظره معلق فى السقف فى إصرار بارد وترتجف شفته لأقل حشرة . صليب صغير فوق بطنه .

المصباح مضى والآخرين بالطبع يستغلون الضوء في لعب الورق . نفس الشخص الذى طمان المرض يواصل حديثه مشيراً إلى بيانثي :

— ليس عليك أن تنهض بعد حمل الجثة، ولكن يؤسفنى أن أبلغك بأن لديك حالة "دخول" .

لحظة رهيبة حقاً تمر على بيانثي . يسأل المرض العجوز شبه نائم "أهو أنت؟" . وبيانثي لا يدرى بم يجيبه . يزمجر العجوز :

— إن لم يأت معك المرض التوبتجى فلا فائدة .

— هيا أيها العجوز، أعد السرير للفتى، فهو يحمل قملاً من الخط الأيمن وبراغيث من الخط الأيسر—ثم يردف— : الرهان متساو، ليست هذه طريقة لعب . لنرا حسن، انتهى الرهان !

بيانثي يهمهم :

— لا حاجة لإحضار ملاءات . لا بأس بها هكذا .

هذه النبذة المهدبة تكشفه . يضحك أربعتهم فى مقابل حشرجة المحتضر . يباغت العجوز ويطلب الشهادة المرضية . ينتبه الأربعة فى دهشة . فيشحب وجه بيانثي ، فيقذعه العجوز سباً مقتنعاً بأنه يريد التسلل إلى الداخل . بيانثي يأخذ بتلابيبه ثائراً :

— أتصمت أم أسحقك؟

يضحك الأربعة ويشجعون بيانثي :

— اسحقه، اسحقه !

يأمرهم أحدهم بالصمت :

— صه . يبدو لى أن ذلك انتهى .

توقفت الحشرجة . يزمجر العجوز :

— من حسن الحظ أنه لن يعاود إيقاظى مرة أخرى .

يذهب بحثاً عن سرير نقال . يكتسى جسد المحتضر صفرة ويتضاءل

ظله . يدفع الرجل العجوز بيانثي إلى الخلف وفجأة يجد نفسه على الأرض .
عند خروجه ، يصطنع حكمدار الخدمة ، الذي راقب ما حدث ، عدم
الالتفات ويتجنبه . يخرج جندي خدمة أيضا من مرحاض نفس العنبر
ويقول لبيانثي :

— يحاول الحكمدار التسلل إلى أحد تلك الأسرة ، وأرسلك إلى هناك
لتستطلع الأمر .

من جديد في الشارع ، يفكر : " بالطبع ، كان يجب أن أذهب إلى
الفرقة " . وهذا يشجعه ، فيغز الخطأ . الجو بارد فعلاً . رغم أن ذلك يبدو
غريباً ، تحميه خزائن الطلقات والأربطة من البرد لأنها تشده إلى ملابسه .
المدينة هاجعة ؛ لكن يلاحظ في الحال أنه ليس نوماً مجدداً للنشاط وإنما هو
كابوس هائج ، من الذعر . ثمة عائلات تسير نحو المرفأ تحمل متاعها القليل ،
وأخرى انتقلت إلى المدينة القديمة التي تنهض كقلعة محصنة بجانب
البحر . يرى الخوف المدني في المسارعة المحمومة للنسوة اللاتي يذهبن ويعدن
عبر بوابات منازل الجوار ، وفي درامية بكاء بعضهن وصراخهن عندما تدوى
قذيفة مدفع أو الرشاشات البعيدة التي يذكر صوتها بلقلاق طائر الحجل .
يتوقف بيانثي لحظة عند عتبة منزل فتحوطه عدة نسوة . عبثاً يحاول
الرحيل .

— من سرنيو لا ؟ إنه من سرنيو لا ، المسكين .

يسألنه ألف سؤال سخيف فيصيبه بالحيرة .

— أصبح أحیح أنهم استأصلوا للجنرال S أعضاء التناسلية ؟ — ودون أن

ينتظرون إجابة: ما أشد حقدهم! وانت ماذا صنعوا معك، أيها المسكين؟
يتدخل عجوز من بلنسية يدخل غليونته بعيداً عن الجماعة:
- هيا، اتركن الفتى.

تبكي امرأتان وسط صيحات شفقة:
- تكفى رؤيته، المسكين، أمسى كالومياء! أولادنا المساكين، من زج
بكم فى هذه المذابح؟ أأصبت بأى عيار؟
- ثلاثة.

تبهج بيانتي هذه الشفقة الباكية واللزجة وإن تلقاها بمتعة آثمة، كفعل
مرذول، وتولد فيه شعوراً بنفاد الصبر غير المفسر.
- خمسة أعيرة، خمسة، يحملها ابن أحشائي.
ينصت العجوز البلنسى فى لذة إلى شحنات الرشاشات.

- إيه، كم تغنى يا سرنيو لا. هل تعتقد أن أربعين كتيبة ستكفى
لاسترداد كل هذا؟ كلا لا بد أن يحضر إلى هنا أكثر من سبعين ألف رجل
مباشرة. والآن فى مائة عشر كتائب سترحل جميعاً إلى مدينة مليلة
القديمة؛ لكننى هنا تملكث ثلاثة محال أخرى كمخزن. أنصت إلى شذو
الرشاشات.

بيانتي يحكى الهزائم المتوالية فى أنوال ودراوشة وأعروى. تبكى
النسوة ويقاطعنه بصيحات. يعلق العجوز على كل حالة:
- لم يبق أحد حياً، أليس كذلك؟ بديهي. لا أقول تمانين ألفاً لا بد
من مائة ألف جندى كبداية.

فيما بعد، يلمح بيانتي برغبته فى أن يتركوا له مرتبة يرقد عليها. تنظر
إليه النسوة نظرة متفحصة، ويرى بيانتي أنهن يفكرن فى قذارته، فى
القمل. يوضح:

- لا رغبة لى فى مواصلة السبر حتى كبيريريش. مرتبة قديمة فى أى

ركن- يكذب متيقناً من أنهم لا يصدقونه-: لا أحمل قملاً.
أصبح مهوساً بفكرة المرتبة، والصفوف الوثير، ليسترىح بعض ساعة.
كان يحلم بالمستشفى لقضاء هذه الليلة ولا يستسلم للإحباط الكامل.
لكن طلبه يقابل بغرابة ويعتذرون. ليس لديهم ما يفيض عن حاجتهم.
تخرج امرأة كوب نبيل. يأخذ البلنسى نفساً عميقاً من غليونيه ويضيف:
- ألم تتأخر؟ سرعان ما ستأتى دورية المراقبة إلى هنا.

فى نصف ساعة يعبر المدينة المرتعبة تحت قصف المدفعية الإسبانية
التي استولى عليها المغاربة. مدفعية فاعلة: يكفى أن تنصت إليها وترى
كيف تدفن القذائف فى الأكوام الخربة، إلى جانب "الدوكر" أو "ألفونسو
الثانى عشر". وكفاءة المدفعية الإسبانية يعيها بيانثي الآن أقل من أى
وقت مضى. يسير بنظرة قائمة وخامدة. حين لا يكون وراء العين طموح
إلى المشهد المثالى الخاص بكل منظر طبيعى، تأتى النظرة خاوية. هكذا
ينظر دائماً المعتوهون. أما المجانين فيرون فقط المتخيل، ولهم نظرة شديدة
التنائى، شديدة التعبير عن اللامادى. وبيانثي ينظر بكلتا الطريقتين.
العتة والجنون يتصافحان فوق واقع ميت.

يتوقف فى الأرض الفضاء حيث يبدأ منحدر القناصة، رياضيي الحرب،
بعنابرهم وأهدافهم الحسابية. من هنا، لا بد من الخروج مرة أخرى إلى الريف
وارتقاء منحدر صخرى طوله أكثر من ثلاثة كيلومترات للوصول إلى
الثكنات المشيدة بين جرف وعرة على البحر والمنحدرات الأولى لجبل
الجرجرة. فى الأرض الفضاء، إلى اليسار، هنالك عين ماء كبيرة وأثرية بها
خزف عربى مصنوع بقوالب المانية. يقترب بيانثي ويشرب من ماء مليلة

الماسخ. تطل مسوح عبراني على الصنبور المجاور. بيانتي يسأله:

— هل تعتقد أن بوسعى الصعود إلى كابريريش؟
فيرد هذا دهشاً ومتحفظاً:

— أنا لا أعتقد شيئاً؛ لكن ليس من الحكمة الصعود من هناك، يوجد
ثلاثة منحدرات على كل جانب. — يتحدث بإسبانية وعرة. —
"مغربي-قطع-رأس-إسباني-شجاع-يشتكى-بعد ذلك-قائد
سلاح-سرنيلو".

يذهب في شئ من الارتياب. يبدأ بيانتي الصعود ثم يتراجع
ويقترّب من أكشاك البوليجونو. يرقد بين اثنين منهما وينام ووجهه إلى
النجوم. يطل الهلال من فوق قمم الجبال المطلة على البحر المحتشد في
أحايين أخرى بالشمس وطيور البحر. تهب نسمة "ليبانتي"، ريح
الشرق، وتجلب شذى الجزائر ورمال الصحراء.

من البوليجونو يسمع همس بحارة وكحول وبغاء، أرغن يدوي يختنق
مكتوماً في فناء وسط ضجيج حظيرة. تسمع عبارات متفرقة من مناقشة
على باب حانة "الذوق الحسن". جوقة الفلامنكو الكولونيالية تحصل
أرباحها خلف ستائر مخدع. "كم يساوي سيد نقيب في حملة؟" تتلاشى
العبارة في ضحكات، وصوت الأرغن اليدوي يدوب في الظلال. سكنت
نغماته لكن ألعاباً ملونة، نارية، تحمل محلها. يفر ثلاثة بحارة من أفراد
دورية المراقبة ويصرخون محذرين الآخرين:

— هيا... هيا... هيا!

حين يستيقظ بيانتي ثمة شبرة تمزقها ريح الشرق وتجرفها. جسده
يؤله، مفاصله لا تستجيب له، وتخشب عضلات صدره وبطنه. يتأخر في
محاولة النهوض. وحين تسقط الشمس عليه، يتحرك وينهض ويستأنف بلا
رغبة صعوده نحو الشكنات.

الطريق - المألوفة الآن - تجدد فيه انطباعات قديمة . صخور عارية ، جرداء ؛ عدد من الخصاص إلى جانب طريق السيارات ، ثم الطبيعة الميتة - الرمادية الضاربة إلى الرصاصي - التي تنهض فوقها النجمة الوردية لأول طاحونة آلية تدور أجنحتها الخشبية ببطء وتصر مفصلاتها . ترفع الماء إلى الشكنات ؛ لكن ، حين تتحطم أنابيب التوصيل وتقتلع أجزاؤها ، لا يصل الماء . في مكان أعلى ، طاحونة أخرى ترقد فوق قاعدة معدنية ثلاثية . يمتزج صرير الطاحونتين ويترع اللحظة بدرامية هزلية . يثير هذا الصرير توتر بيانثي مثل صرير سكين بطيئة تخذش زجاجاً .

للشكنات هيئة أقرب إلى هيئة معسكر ، بعنابره الخشبية المصطفة حول أرض مستوية واسعة ومحوطة بجدار له شرفات . يسود صمت يعزز الشعور بغور الوحدة وثقلها . يشعر الحراس بالسأم ويتكئون على أطر الشرفات . يذهب إلى عنبر سريره فيجده خاوياً ، بالواح ومقاعد متراصة بترتيب الغائبين يعيد إلى ذاكرته زملاءه الذين أبعدوا في R . يخرج ويتجه إلى موقع الحراسة . يرسله الرقيب إلى عنبر المشاة وينصحه بأن يسجل اسمه للكشف الطبي . يجلس على سرير ، ونظرتة مثبتة في الأرض ، وينتظر . ثمة أربعون أو خمسون آخرون ، ثياب ممزقة ووجوه صامتة وأعين تنظر دائماً إلى أبعد مما ترى . فيما يرى من إيماءات ويسمع من كلمات هنالك غياب للاتساق . لأن أحداً لا يكاد يتكلم . يركض بواقان - في حوالى السابعة عشرة - أحدهما إثر الآخر وحزاماهما في يديهما ، وحين يضايقان شخصاً يفران ضاحكين من ركلة القدم أو من التهديد . إلى جانب بيانثي ، يمسك رجل كالهيكل

العظمى نصف رغيف على ارتفاع الكتف، ويأكل فى بطة. مع كل حركة ينذر فكاه بتمزيق جلده الحليق حديثاً. ينظر إلى بيانثي فى جمود تمثال.

— والخبز؟ أليس معك خبز؟

— ماء، هذا ما أريد.

فى الإناء، فوق السرير، ثمة قليل من الماء. بيانثي يهش الذباب الذى يغطى حافتها كبطانة من الخمل وتسقط اثنتان فى الماء. يشرب. الآخر يتحدث دون أن يتوقف عن المضغ؛ لكنه يأكل آلياً، بلا جوع، كأنما تبدو له بالغة التائق مسألة الأكل هذه.

— الذباب المسكين يجب أن يشرب أيضاً. فهو لا يؤدى الخدمة العسكرية وغير معتاد الظماً مثلنا. لأنه، هل رأيت رقم الـ ٤٢ على ياقة الذباب؟

— الذباب ليس له ياقة!

— لكنه ظمآن. لأنه ليس بشراً ولأنه من الوحوش لا ينبغي أن يشعر بالظماً؟

— اخترقت زمزميتى طلقة. ولكن الثقبين لم يكونا ظاهرين لأن زغب قماش غطائها كان يحجبهما، ثم تمكنت من استبدالها. وإلى أن يرغبوا فى ملئها لن يلتفتوا.

فيما عدا ثمانية أو عشرة ممن خرجوا من مكتب الرائد، جميعهم تقريباً لهم مظهر مؤس. متشردون، متسولون عليهم آثار الجوع، زيهم العسكرى ممزق، مظهر بائس عامة. أعطوا أحدهم — يبدو أنه جاء عارياً — ملابس جديدة أكبر بكثير من مقاسه فأخذ يجول ويداه فى جيبى سرواله متظاهراً بالضيق وعدم الاكتراث. حين يبدآن الفحص الطبى يخرج بيانثي عدواً. يقول الحكمدار، نوبتجى الأسبوع، صارخاً:

— فليعد من هم تحت الفحص من العيادة فى الحال.

يفسر أحدهم أن ثمة تفتيشاً على السلاح والذخيرة. بيانثي يقول:
— لو شاءوا التفتيش على سلاحى عليهم أن يبحثوا عنه فى R.
— وإذا سجنوك؟
— سوء حظاً
يمارس الطبيب الكشف الطبى بأحكام مضمرة بعد أن حذره العقيد.
يكتب عبارة "إلى المستشفى" لجندى واحد فقط. ويكتب
لبيانثي "خدمة"، فيسأله الجندى بعد أن فقد سيطرته على نفسه:
— فى رأى سيادتك، أنا سليم؟
لكن الطبيب ينادى:
— لنر، التالى.
يصر بيانثي، يرتعش غضباً:
— عليك أن تسمعنى أولاً، أيها الملازم. لا أحتمل الوقوف على قدمى،
أنا مصاب...
— ماذا تقول، أيها الغبى؟ أى كلمات هذه؟
بيانثي، على الحافة، ينساق لغضبه:
— أنا جندى، وسيادتك رائد: لكنني قبل أى شئ رجل وأنت طبيب.
وسيادتك تهمل أداء واجبك إذا...
— هيا، هيا لا تدرى ما تقول! اغرب عن وجهى!
— أقول فقط ما يعن لى. وأنت تهمل أداء واجبك، وتعلم جيداً أننى
لست مؤهلاً للخدمة.
يرفع الطبيب يده، ثم يكبت سورته وقد احمر وجهه من شدة
الغضب. تراجع بيانثي إلى الخلف وقذفه بزجاجة فى رأسه فى زئير:
— لا تلمسنى وإلا شققت روحك. فأنت كالأخرين، كالجميع، كذلك
الجهان...

الرقيب رقميهما: 72340 و 8211 فيما بعد يبحث عن قائمة الأسلحة ويتصفحها ثم يسأل:

— وبندقيتك؟ أين بندقيتك؟

إنها هناك مع الجشتين. فقد بندقيته، ليس أقل من بندقيته. وإن هو أحضر بندقيتين أو مائتين لا يهم ليس لذلك أية علاقة بالواقعة الإجرامية المتمثلة في فقدته لسلحه هو. يسأل القائد:

— أهما على الأقل من بنادق السرية؟

يجيبه الرقيب بالنفى. والقائد، بإيماءة حاسمة، يقول لبيانثى دون أن ينظر إليه:

— حسن، اذهب. سنرى فيما بعد.

وحين يذهب يناديه:

— أنت الذى حملت الرائد؟

— أجل ياسيدى.

— وكيف لم تحضره إلى هنا؟

بيد أنه لا ينتظر حتى يجيبه، فيضيف، كئيباً، بحسّ محذر لطيف، مشيراً إليه بأن يذهب:

— يبدو لى أنك فى مازق.

فى المعسكر نتحدث ونحن نأكل أو نشرب الماء القليل الذى أحضرته عربات الماء. يرددون فى كل مكان: "أدخلنا القول". من بين المفقودين هنالك ذلك الصبى الذى كان يناقش حامل النقالة والذى كان بوسعه الانسحاب على قدميه لولا أنه فضل أن يحمله صديقه على النقالة. يقول بيانثى فى جمع من الجنود وهو يحكى لهم ما حدث لهم:

— اللعنة... لو أطالوا مدة خدمتى سأقتل نفسى برصاصة.

يأتى عريف العيادة ويضمده له ركبته ويحقنه حقنة سوداء فى بطنه.

المتربة بأصاء ءوءاء؁ وهه ىصرءون بأرقاههه فى الطابور. وءىن ىءرءون؁ ىنءرون فى المقءمة عءة ءنوء من بىنهه الءلاءة الهبوسون. والءكناء الءى كائء من قبل ءسع ءمسة آلاف ءنءى أضءء ءاوىة. ضابط الصفف الءى ىءقءم مع الطلىعة ىقول لبلانءى فى نبرة ءمىمة:

— ماذا فعلاء؟ سىءاكمونك؁ وءلك قء ىقضى على أى رءل إلى الأء.

— لایهم؁ أیها الضابط؁ أنا مقضى على بالفعل!- وىضءك ضءكة ءالية من الءعبىر ءءل ضابط الصفف ىسءب نظره عن بلانءى؁ مرعوباً.

مرة أخرى فى المعسكر. عودة إلى الوراق. بيانتى وأنا نجلس أمام صندوق تغليف، نحتسى الزجاجاة الثالثة. من بين ألواح السقف الخشبية المنفرجة وخشب الحوائط، تتسرب أشعة الشمس مركزة وحية. هذا فرن؛ بفضل الجعة لا نحترق. على الظهر والصدر تسقط قطرات عرق تحت السترة.

— وماذا حدث فى المحاكمة؟

— مدوا خدمتى عامين آخرين. مدة خدمتى كانت تنتهى فى ذلك الشتاء، بعد ستة أشهر من الانسحاب من أنوال.

— إذن ...

— ستنتهى الآن، فى شهر فبراير القادم.

— فترة قصيرة.

أتى بإيماءة ضيق، يتلمظ بلسانه:

— لا يهم! ماذا سافعل حين أعود؟ فيم يهم أن أعود أم لا؟ أقول لك إننى

لم أعد أهتم. لا أحد ينتظرنى هناك. وحتى إذا كانوا ينتظروننى فلن يتعرفونى أحد، وحتى لو تعرفونى لن يفهمونى، ولا أنا سأفهمهم.

ثم يترك نظرتة تهيم على السقف.

— لم تعد بى قوة لأداء مهنتى؛ وإذا امتهنت أخرى على أن أبدأ

تعلمها. كان بوسعى أن أصل إلى شرائط رقيب لكن لى رأساً أخرق فضلاً عن سوء الحظ.

أشعر بالإحباط، ولى فى الأشياء رأى مختلف لا يفيد إلا فى إثارة قلقى وهو ما يصعب المسيرة. لا ينبغى التوقف كثيراً للتفكير. أنا رقيب، وسأرقى قريباً إلى ضابط صف: لا ينبغى أخذ انطباعات سلبية من هذا النوع. فضلاً عن أننا سنخرج فى الفجر، فى ساعة مبكرة جداً، لمواجهة الموت، وينبغى أن نحتفظ برباطة الجأش والحماس.

مرة أخرى فشلت التوقعات. وككل الأيام، دقت نوبة الصبحيان فى الخامسة، وعلى هذا فلن تخرج الفرقة اليوم. لكن شيئاً ما يتم الإعداد له. فقد ضوعفت قوات حماية الطريق عن أمس. من المعروف أن الفرقة الثالثة غير مكتملة، وأنهم ابدلوا اليوم الكتيبة المتمركزة فى أبراج المراقبة لكى تنضم إلينا. يتأكد إذن خروجنا وإن لم يدر أحد متى. تم تفتيش على الأسلحة والذخيرة. الصباح الأبيض والبارد فى الساعات الأولى أخذ يشتعل نحو الثامنة، وبعد ذلك بساعتين تسطع الشمس وتنفلد إلى كل مكان. يؤلف الذباب سحباً بين الخيام ويتقلب فى الهواء الساخن والقذر الرائحة. داخل الخيام، يجلب الضوء المصفى فى الذهب سطوعاً خانقاً، سطوع فرن. بل سترة وبلا قميص بوسعنا أن نحتمل، لولا وجود الذباب الذى يأتى ويلتصق بكل مكان. ربما ينبغى أن نتعلم تحريك الجلد كما تفعل البغال لتجنب ذلك الجمباز المرهق باستخدام اليد. سرعان ما ستحين ساعة الخروج إلى الساتر لرؤية مجئ القول واستقبال ضابط الصف الجديد. يقولون إن مجموعتين من المغاربة النظاميين قادمتان أيضاً لتكملة الفرقة. يحضرونهما فى شاحنات. ثمة بين الرقباء فضول بالغ لمعرفة ضابط الصف الجديد. لا يكاد الصباح يحتمل شحنة الدحاس التى تصهرها الشمس. فتعيدها الأرض وقماش الخيام على هيئة أشعة ويتكاثف الهواء فى ذهب سائل. ترقد الجرذان ويحلق الذباب فى طيران بطئ ويحتشد على أبواب المطابخ بين كل ثماني خيام أو عشر. هذا الشهر أنا مسؤول عن طعام

جمهورية الرقباء الصغيرة، وفي مناسبة مقدم ضابط الصف يجب إعداد طعام استثنائي. ساذهب لابتاع شيئاً من السوق الصغيرة التي تقام كل يوم بجانب سور السلك، ناحية النهر. ما يربو على العشرين من المغاربة يقدمون من أدوارهم ببضائع بائسة. هم جميعاً من العجائز. لأن الشباب في حرب معنا -القوات والفرق النظامية- أو مع المتمردين. يحضرون البيض، التين الشوكي، دجاجة، زوجاً من طيور الحجل. ساروا عشرة كيلومترات أو اثني عشر للمجيء إلى هنا. حين يرى بعض الأهالي حكمدار الضرائب قادماً، يجمع بضاعته ويذهب. وقيمة ما يبيعون لا تبلغ خمسة ريالات أو ستة ويفرض عليهم ريال كضريبة. وبذريعة أنهم أباء أو أخوة مغاربة متمردين يسلبهم طباخو الضابط أو الرقباء بضاعتهم أحياناً. بعض النسوة العجائز، في ثياب العهد القديم، وبنقاب العفة وقد تحول إلى شريط قذر بلا نفع، يحضرن من خيامهن البعيدة علب شاي ونعناعاً وبعض الجرار أو القدر، فخار فقراء. خرج عسكريان مغربيان إلى السوق ويتداولان بلغة الشلحة مع عجوز قيمة علبة شاي. التاجر مصر على السعر والعسكريان يساومان. شيئاً فشيئاً ترتفع أصواتهم على همهمة السوق. ومن جديد، يلاحظ الفارق بين المغربي الحر، المتمرّد، وبين "المتحضر". فالأخير أصابته عدوى الثقة بالنفس ومرح الجندي الإسباني. في نقاشهم الحامي في لغتهم تسمع صيحات بالإسبانية -اللعة! إلى الجحيم! ابن البغي!- ثم يواصلون بلغتهم الغامضة. وتلك وسيلة سهلة وأكيدة لممايزتهم بمجرد النظر.

تنتعش السوق. تحت الشمس، يغلب على ثياب الأهالي اللون الأبيض. بعض الجلابيب البنية اللون وزى الجنود الكاكي يضيفان شيئاً من التباين على اللوحة. يظهر عريف الضرائب. وعبثاً يحاول عجوز إقناعه بأنه لم يبع شيئاً. يريه على الأرض خمساً من بيض دجاجة، موضوعة في عش صغير. يصير العريف ماداً يده:

— هيا، فك كيسك أو ارحل !
يفجع المغربي مؤدياً التحية العسكرية بيد نافرة العروق فوق العمامة .
— سيدى العريف، انتظار. لو، باع، أنا، بدفع، مرة، مرة، خمسة،
خمس سنتيمات، خمس .
لكن العريف مصر. والمغربي، يائساً، يمسح السوق بنظرته . بعيداً،
تسطع الشمس على سونكى فرد حراسة . يقول المغربي للعريف إنه كان
يعتقد أنه سيكون رحيماً به :
— أنا - يفكر - أنت - يكون - شخص - لى . تمام يا أفندم !
يعاود أداء التحية العسكرية ويعتدل بعد أن يحمل البيض .

من جانب سور السلك، تاتى طفلة فى حوالى الحادية عشرة أو الثانية
عشرة . عينان طفوليتان ثجلاوان فى وجهه وادع وعذب . ملابس كانت
بيضاء تسقط لتغطى قدميها . وحين تفتن إلى أننا ننظر إليها، تأخذ خرقة
من فوق كتفها وتغطى بها نصف وجهها وتمسك به بأسنانها . لا يفصح
جسدها عن تفاصيل بلوغ . رقيق، لا يوقظ الشهوة بحيث يثير ذلك الحذر
النفور منها لأنه ينم عن اهتمام سابق لأوانه . حين تتقدم نحو السوق
تسقط فجأة وتجلس على قدميها وتمسك الأخرى بكلتا يديها . بكأؤها
صاخب وغير مكترث . اقترب منها فتتنظر إليّ من وراء دموعها بدهشة
 وخوف . من بين أصابعها يخرج دم أحمر بشكل فاضح . تسير حافية
 ووطأت زجاجة مكسورة . الجرح يخترق باطن القدم . من المؤكد أن فرد
الحراسة يحمل معه صندوقه الطبى الفردى . يعيرنى إياه وأعالج قدمها على

أفضل نحو ممكن. دون أن تتفوه بكلمة، وقدمها ملفوفة في الشاش، تذهب وهي تعرج. عند عودتي إلى السوق، رقيب آخر يلكزني بكوعه ويقول وهو يغمز لى بعين:

— خذ حذرك، لأن هذه الطفلة قروح زهرى وسيلان وكل الريبرتوار. بعد زوال المفاجأة الأولى، أدهش أنا نفسي لأننى فوجئت. بديهي. أبواها وأخوتها ذهبوا إلى الحرب. يفح الجوع فى الأدوار وبعض الأطفال والعجائز. ويحاول هؤلاء عبثاً أن يكسبوا قوت يومهم من أجل من تبقى، فيحملون بضاعتهم إلى السوق. وفيهن تصبح البراءة، إن وجدت، مصدراً آخر للخطر. الجنود يستغلون كل شئ. وربما، يوماً ما، يحل السلام ويعود الأب والأخوة إلى الأدوار لزراعة الأرض. لكن الحق قد سيظل فى القلوب وسينتقل من الآباء إلى الأبناء.

أتجه صوب الطريق الرئيسى الذى يشطر المعسكر شطرين متساويين. يوجد هناك مقر القيادة وخص كوريتو، القوتان العظيميان فى المعسكر: العسكرية والمدنية، هذا المقصف فرع لمتجر المؤن الكبير الذى يمتلكه كوريتو فى مليلة. منذ أقل من أربع سنوات كان يسير وراء الجيش ومعه حمار صغير وجرتا ماء. كارثة أنوال ربما كانت كارثة لآخرين ليس لكوريتو الذى يملك اليوم عشر شاحنات ويمد عدة فرق بالمؤن وأقام فى كل معسكر خصباً يحوى كل ما يمكن أن يداعب شهية السادة القواد والضباط: تبغ، مشروبات روحية، معلبات فاخرة، جعة فى زجاجات، صحف. صحف قديمة جداً، بالطبع. وممثل كوريتو هو ابن أحد أخوته له هيئة مغنى تينور

فى الأوبرا، بشعره المجمع. يختلط بالقادة ويزدرى الجنود بشدة حتى إن كثيراً منهم لينتابه حرج فى حضوره ويفضلون عدم الذهاب للشراء من هناك. لم يرد أن يبيع لبيانثى "خمساً" من النبىذ لكى لا يضطر إلى النهوض من مقعده. بيانثى أحاطه علماً:

— من واجبك أن تعطينى نبىذاً دائماً طالما جئت إلى هنا ونقودى فى يدى.

أما كوريتو — الذى يدعونه بنفس اسم عمه، كامتداد له — فقد نظر إليه من أعلى إلى أسفل بمظهر أبناء الذوات حقاً وضغط على الحزوف:

— قدراً

ذهب بيانثى مصعوقاً، وقد اصفر وجهه من الحنق. ومنه عرفت أن ذلك الكوريتو جندي، رغم أنه يرتدى ملابس مدنية ولا يؤدى أى نوع من الخدمة. أتصفح طاولة الصحافة. ضحف قديمة جداً: لكن سيأتى القول فيما بعد ومعه شاحنتان لكوريتو تحملان الأنباء. فى مكان قريب، بيانثى فى صحبة جنود آخرين:

— ماذا تفعل؟

— أمرونا بالهجرة إلى هنا لتفريغ شاحنتى كوريتو.
كنت أجهل هذه العادة، وإزاء دهشتى يضيف بيانثى:

— أى حيلة لنا؟ هذه أوامر القائد.

يشجعه صمتى فيضيف:

— لا أدرى ماذا يجرى هنا مع كوريتو؟ بل أعرف بالفعل. من يعملون لدى القادة وتقطن أسرهم مليلة وكذلك أحد أبناء قرىتى يعمل فى متجر كورو حكوا إلى الحكاية. كل القادة يشترون من متجر كوريتو والسداد بعد الحصاد. جميعهم يقترض حتى إن كوريتو لم يطالبهم بالسداد قط. ثم يقدمون للجنود الحمص بالدود والأرز عجيناً لا يمكن لأحد أن يأكله. لكن

هذا ليس كل شيء. فى متاجر كوريتو يعمل أكثر من خمسة عشر جندياً وخادماً من بين جنود الفرقة، يعملون كالعبيد لقاء الوجبة...، وأى وجبة ابن قريتي يشعر بالحنين إلى طعام الثكنات. فى أحد الأيام، وبعد أن أفرغوا ثلاث شاحنات تبادل عدة كلمات مع زوجة كوريتو، فهددته بإعادته إلى السرية، لا أكثر ولا أقل، كأنها عقيد، ولما كان من السرية الثالثة المتمركزة فى الخطوط الأمامية اضطر إلى الصمت. لأن السرية عندما تعود إلى مليلة ويطرد كوريتو جندياً لآى خطأ ارتكبه تلقى به السرية فى الحبس؛ لكن إذا كانت السرية فى الميدان، إذن، "هيا، كى تتلقى قذائف المدفعية وتمشط الموانع". هذا ما يحدث مع كوريتو، وأشياء أخرى لا أقولها، لأن الخدمة العسكرية هى الخدمة العسكرية.

يقول بيانثى إنهم حملوا الموتى صباحاً وإن أحداً لم ينتبه إلى سرقة أحذيتهم. يضيف ضاحكاً:

— وضعوا ديات أورينيا فوق بقية الجثث. انبعثت منها رائحة فاسدة، وفى هذه الشمس، لك أن تتخيل الغربان تكاد تجن وراءها

سحابة غبار بعيدة تعلن عن مقدم القول. كلا؛ قد تكون الكتيبة التى أبدلت عائدة لتنضم إلى الفرقة لأن هذا ليس طريق مليلة، ولا بد للقول أن يأتى من طريق آخر. مع القول ستأتى شاحنتا ماء، ومنذ نصف الساعة والجنود مصطفون بأوان وزمزميات لملئها ما إن تصل الشاحنتان. يخرج ضابط النوبة:

— ماذا تفعلون هنا؟

لا أحد يجيبه. فالأمر شديد البدهاة. يصرخ الضابط خارجاً عن شعوره:

— لا أريد رؤية أحد حتى أمر توزيع الماء.
وطأة الضيق لنقص الماء تثقل حياة المعسكر وتطغى عليها كشمس أغسطس، كالتعب العضلي أو السام. المستجدون مهوَّسون بالماء ويقضون حياتهم في تخيل من أين بوسعهم ملء الزمزمة، ثم بعد ملئها، أين يخبئونها حتى لا يفطن إليها أحد. أما المخضرمون فقد تخلوا عن الماء. فهم كالجمال، تكفيهم جرعة نبيد في الحانة كل خمسة أيام، حين يدفعون إليهم بالفضلات. وتكفيهم يومياً قهوة الصباح. ويسألون المستجدين أحياناً:

— أمعك ماء؟

— أجل.

— حسن، ضع عليه تراباً.

ويضحكون في متعة كأن ما قالوه مثير للدعابة فعلاً. أثناء المسيرات تكفي مضمضة الفم مرتين، دون شرب الماء لأنه يزيد من شدة الظمأ. وضيق الشهور الأولى يمتع المخضرمين: "تشرب أكثر من إسفنجة"، أو: "ستربى ضفادع في بطنك". وإلى الشعور الدائم بالعطش تتداعى آلام البطن، فالماء "لزج" وماسخ وكريه الرائحة. يقال عمن يرقد على الأرض، يتصبب عرقاً ويداه على بطنه، إنه "في حالة ولادة". يشيع خدر رهيف وشفيف، خدر مقابر. يشكو أحدهم من القبيظ وسط جماعة مختبئة خلف خيمة، دون أن تبعد كثيراً: فيرد آخر:

— أما أنا فلا. فانا حساس للبرد.

يصيح آخر:

— حساس للصيف، تقصد.

— لا يهتم. المسألة هي أنك في إسبانيا لا تنتبه إلى البرد أو الحر، فيما
عدا ساعة الحصاد.

حين يلوح القول، يكون على مقربة شديدة من المعسكر لأن ثمة
منحنى في الطريق لذا يظهر بغتة. يستقل النظاميون -سريتان- ثلاث
شاحنات في المقدمة، وحين يلمحون المعسكر يقيمون صخباً عظيماً.
يجلسون على الجانبين وأرجلهم للخارج، أو يقفون في الداخل ببقع
طرابيشهم القرمزية وخصائل شعرهم الأسود في الهواء. تتوقف الشاحنات
ويزداد صخب الأصوات. أى عطل هذا؟ تلهث المحركات، بعد التوقف.
يتحدث السائق ويلوح بيديه. إنها جثة المغربي التي نبشت قبل أيام
ومددت على الطريق، وقد تحولت الآن إلى عجينة متيس، مسيخ.
في النهاية، يتقدم في ببطء. تنحرف الشاحنة الأولى قليلاً لكنها بلا
شك دهست قدمي المومياء تحت الفراغ الذي تخلفه الإطارات فأخذ
جسدها يرتد إلى أعلى، يرتفع ثم يسقط، ثم -بغتة- يرتفع ويصطدم
بالنظاميين الجالسين على أحد جانبي الشاحنة. لم يتبق من الجمجمة سوى
اللحية، الأثر الإنساني الوحيد. يتعالى الصراخ بنبرة ندية مقصودة، تحاكي
صراخ النساء المذعورات. يتتابع مرور الشاحنات التي لم تعد تنحرف عن
الطريق، والجثة ترتفع وتجلس وتعاود السقوط وترتد في حركات تشبه
المباغلة والاحتجاج. وبيانثى بعد أن تجمدت حساسيته يضحك أيضاً. لكن
بعضهم يحتج:

— ثم نشكو مما يفعله المغاربة بنا ونسميهم وحوشاً.

فيضيف آخر:

— لا تكن واهما. أنكى الوحشية هي أن تموت. فيما بعد، لا يهم أن يضعوك في صندوق زجاجي أو أن يمر القول من فوقك. لماذا يجب أن نتأبنا شفقة على جثة وليس على رجل حي؛ لو أن هذا البائس عاد إلى الحياة ستكون أنت أول من يقتله.

الشفقة غير مواتية دائماً في هذه الأنحاء. وأكثر منطقية منها سلوك النظاميين وهم يتسلون بتلك اللعبة المروعة والبريئة. تدخل الشاحنات مسرعة ترج شحنتها البشرية. يهرول بيانثي لينضم إلى فرقة كوريتو. وأنا أتجه نحو مركز المعسكر لانتظار الصحف. يهبط النظاميون ويفردون سيقانهم وأذرعتهم فيما يصطفون في قطارين طويلين. الرقيب المغربي "بلقاسم"، المتأنق والنظيف، بصورته الجانبية الملتحية كسمسار فرنسي، ينظم قسم النظاميين المغاربة. انتباه! بعد ذلك، بعسكرية مبالغ فيها، يضم كاحليه ويرفع يده إلى طربوشه: "تمام".

يتراجع على عقبه، يدور على كعبه، بسروله الفضفاض مثل تنورة وفتحته التي تصل إلى ركبتيه وتثير بالغ الضحك في الإسبان. "انصراف... هوب!".

ثمة خص ساكن، بمعزل عن الصخب، في داخله عجوز يقلب جذوات الفحم بين حجرين ويضع فوقهما إبريق شاي متسخاً ويعلوه السناج. بعشرين سنتيماً يخرج ذراعاً عليها خرق من فوق عدة صناديق تطمح إلى أن تكون طاولة، ومن ركن معتم، ساخن، قدر، له حرارة حمى أو شمس أو

فحم، يخرج كوباً مذهباً من الشاي الرائق، بورقته من النعناع الطافية عليه وعبق لاذع. الحصيرة المفروشة على الأرض أمام الحائط لا تنى تستقبل من وصلوا حديثاً ويدخلون في ضجة أكثر اعتدالاً. من جلسة، وقوراً ومهيباً، كبطريك، يقدم العجوز بلا عجالة كوباً بعد الآخر. يحيي بعضاً منهم، يمد لهم يده، تتلامس الأصابع دون ضغط وكل يرفع يده إلى قلبه وشفتيه. بعد قليل، يخرج العجوز ناياً من قصبتين ملتصقتين من طرف ومنفصلتين قليلاً من الآخر، كناية آلهة الغابات عند الرومان. يبدأ في العزف. الصوت رهيف وعميق معاً، رقيق ونافذ. لا يصدر الصوت من قصبتى الناي في نفس الوقت، ورهافة الصوت الفائقة تترع الهواء بذبذبات وتجرح النخاع وتداعبه حين لا تتفق النغمتان. وتعتقد في احتمال وجود صوت مميت. تخفت الحوارات.

مازال الناي يكرر نغمة قصيرة وعذبة في إصرار فينهمض البعض ويدلف إلى الغرفة المجاورة تاركاً خفيه بالباب. في تلك الغرفة غير محتمل أن يوجد سوى الله أو امرأة جميلة. فالمغربي إما أن يذهب إلى الصلاة أو الحب. لكنهم بالفعل ذاهبون للصلاة لربهم، نفس إله المتمردين، إله المسيحيين. يبدو أن صوت الناي يوقظ قوى التصوف بعد أن مر هؤلاء الرجال بالشاحنة فوق الجثة المنبوشة.

شاب هرقل لم تأسره الرغبة الجنسية ولا الدينية يدنو من العجوز وينزل من أعلى دفأً ضخماً ويقرب جلده من النار. من حين لآخر يخبط عليه في الوسط، قريباً من إطاره حتى يشتد، ويدق ويتذبذب في تناغم مع صوت الناي. يقذفه في الهواء ليتلقفه مغربي آخر يبدأ في نقره بكلتا يديه. يرقص الشاب في شيء من المهابة، بخطوات قصيرة جانبية، يرفع ويخفض كتفه مع الإيقاع، محركاً رأسه وزر الطربوش فوق عينيه فيما يشجعه الآخرون بأصواتهم. هؤلاء الجنود، الذين يفرقهم عن أبناء سلالتهم ذلك

الشيء البالغ الحياة والدوام في ضميرهم والذي هو الخيانة، تجمعهم أواصر وتيقة بأبناء وطنهم: "سيدى محمد العربى" الذى يصلون له مع الغروب والشاى والرقص. الأول والاخير يمكن أن يمتزجا فى إحساس دينى واحد ويضيفا، فى المقابل، ملمحاً مميزاً: ذلك السممت الغائر، الصارم قليلاً، الكاشف عن خيال مختمر؛ وخلافاً مع مصيرهم الخاص لأسباب تبدأ وتنتهى فيهم هم. هنالك بعض الوجوه التى نفح القلق تعبيرها المتوحش بالفعل قساوة تمتل من الخشب يذكر برؤوس مقابض العكاكيز.

يقترّب جندي إسباني نظامي. أطلق لحية عربية، حليق الرقبة حتى الفكين، يستخدم رصيذاً من عبارات بلغة الشلحة. هو أيضاً يرقص فيعقب أحد المغاربة:

— أصبح ريفياً*.

ويقول "بلقاسم" الذى قدم فى التو:

— أجدادى إسبان من قرطبة.

يرد إسباني:

— أجدادك ا كم عمرك؟

— عشرون عاماً أو ثلاثون.

السن عندهم حسب المظهر؛ والشيخوخة آتية فى غير حاجة إلى تذكر تاريخ الميلاد أو عمل حسابات مغضبة. بلقاسم يدخل للصلاة ويمارحه الإسباني بصدد صلواته. يهز الرقيب منكبيه:

— الأمر سواء. أنت للمسيح وأنا لمحمد. المسيح كان نبياً صالحاً، صالحاً جداً؛ لكن محمداً خير منه — يشير إلى جبهته —، أرجح عقلاً. الله واحد، إلهى وإلهك.

والإسباني — بلا سبب — يضحك فى بالغ الرضى. يمارحه بصدد تحريم

* أى من أهل إقليم الريف بالمغرب.

أكل "الحلوف"، وحين يسمع في الخارج صوت البوق يخرج ركضاً. إلى الوراء، تبقى الموسيقى، أبلغ أثراً بسبب تباين دق الدف الشهوانى.

مع القول جاء بالفعل ضابط الصف الجديد، رجل فى الخمسين من العمر، رمادى الشعر، ضئيل الجسم، حاد الملامح ورشيق كسنجاب. حين يترجل ينظر إلى جميع الجهات.

— تمام، سيدى ضابط الصف، مرحباً.

— مرحباً، أيها الرقيب، من السرية الثالثة؟ يسعدنى ذلك. أى متاهة من الخيام. لكن هنا لابد أن المكان لا بأس به. من المؤكد أنكم من خيرة الناس. ظاهر على وجوهكم. والآخرى؟ أنا لست زميلاً سيئاً، لكن فى الواقع لست صديقاً مثلكم. لي ستة أولاد وزوجة. الرحلة، تقول؟ مؤخرتى أصابها قليل من الرضوض من هذه المقاعد المعيبة. لكنها مسلية. رأيت هنا وهناك آثار قصف، أشياء ممزقة، وعند الخروج من الناضور... يا للفظاعة! حسن، وفى أعروى؟ مررت من هناك ألمس الحديد. أصلبة ومقابر. ثم قبل دخولنا المعسكر، جثة الطريق كشخص فى "مرقص"، ترتفع وتركل الجنود. ليست مسألة تأثر لكنها تشير الغثيان. فانا "صفراوى" المزاج قليلاً، الأطباء يقولون إنه الكبر، لكن لا شئ مؤكد. أحضرت معى "بيكربونات". وجندى المراسلة؟ آه، حسن يافتى! أخفض يدك. الظاهر أنك خبيث قليلاً، لكن فى هذه الأنحاء يفضل أن تكون خبيثاً لا أحقق. من أين جئت؟ من المرية؟ سرى الغضب وأعشى قليلاً. افتح عينيك فالفرصة سانحة. من أى دفعة؟ خ

حذرك، فنظارة الميدان فى هذا الصندوق . والنقيب ؟ قالوا لى إنه لا يتدخل فى شىء، وهذا قد يكون طيباً وسيئاً، حسب الأحوال . لابد من توفير ثمانين وجبة أو مائة شهرياً بين مرضى غائبين ومحتجزين فى المستشفى ومستجدين وملحقين . مائة بالتمام والكمال . فلو حدث أن...

قصف طائرات . رعد شديد يأتى بطيئاً، زاحفاً، متغير الشدة . يحدج ضابط الصف بعينيه الصغيرتين الرماديتين .

— مدفعية ثقيلة؟

— لا ، طائرات .

— آه، عجباً . كانت قريبة . النقيب لىس مزعجاً جداً؟ لا ينبغى أن نأمن الماء الهادئ . انظر يا فتى كيف يرتفع الدخان، مذهل، يبدو حريقاً . أين نظارة الميدان؟ بسرعة يا رجل، لا يبدو عليك أنك من البسيط .

— من المرية يا سيدى ضابط الصف .

— من المرية، ألم تقل لى من قبل البسيط؟

انفجار آخر أقرب من السابق . يصطنع ضابط الصف ضرباً من الدهشة المبتهجة :

— هدية للرائد أنسواجو . اعتقد أنه وحش أسود .

يضحك الجندى فى مداراة . "ياله من ضابط صف خفيف الظل"، يتحدث إلى ممسكاً بذراعى، ويلتف حولى ويوقفنى فى كل لحظة .

— ألبس طاقة والشمس حارقة . فاتنى عمل إيصال من أجل قبعة . كل شىء مر بسرعة . وها أنا هنا . لا أصدق أن تهتموا بى إلى هذا الحد فى وجود آلاف مؤلفة من الجنود . بيد أن الإقامة هنا ليست سيئة . لكن المعسكر هو المعسكر . هل فكرت أين سأقضى الليل يا فتى؟

— لدينا وتد جيد منتزع من سور السلك وهراوة . فيما بعد سأحضر

عارضتين خشبيتين وحبلًا.

— أتريد شنقي؟ اللعنة!

وصلنا إلى الخيمة. تعارف، فضول، دعابات عنيفة في جو من الزمالة الفجة. تقضى حياة المعسكر على العادات المهذبة. يتحدث ضابط الصف عن حاجته إلى الاغتسال فيقول له جندي المراسلة:

— ماء، لا يوجد. فيما بعد سيحضرون برميلاً، لكنه من أجل الطبخ.

يتحسس ضابط الصف وجهه، شعره الرمادى. عيناه محتقنتان. الرمل الناعم وغير المرئى يحك رقبتة جكاً خشناً، ويهيج عينيه. لا يهم! بطاطين الفراش مليئة أيضاً بالرمل! لا جدوى من إزالتها، فبعد نصف الساعة يعود إليها.

— حين تهب ريح الشرق ستجد رملاً من هذا فى سرتك، بين

ضروسك، بين أوراق سجلات السرية.

أثناء الغداء، استمر القصف مع فترات توقف وجيزة، ومع كل انفجار راح يرتجف فى مقعده—صندوق ذخيرة واقف على جانبه—: وينظر إلينا منتظراً منا أى تعليق وحين يرانا لا نتكلم يقول هو:

— كان قريباً جداً من هنا—ثم يكمل طعامه.

بعد الغداء، يتناول "بيكربونات"، ويتجشأ. ثم يجلس مرة أخرى ويشعر فى الكتابة إلى أسرته. قبل ذلك، يعلن فى رضا:

— الطعام طيب! وإذا كان الفراش والخدمات "من نفس الصنف"،

بوسع الشهور أن تمر.

الرقيب لو كاس، بدين، على وجهه أثر الجدرى، يزم شففيه على نحو لا يصدق ويضحك ضحكته المكتومة فى بطنه:

— ألا تعلم، يا سيدى ضابط الصف، أننا سنرسل القول إلى T؟

وضابط الصف—من شدة المفاجأة—يترك القلم ويطرح عدداً من

الأسئلة، اللازم لتأكيد النبأ أو نفيه.

— حسن، لم أكن أنتظر ذلك، بهذه السرعة...

فيما بعد، يقلع عن الكتابة إلى بيته. ولوكاس يبحث عنا كي يحكى لنا هذا الموقف ضاحكاً ضحكته المكتومة التي لا تتعدى أسنانه وتلاحظ من اهتزاز بطنه ومن صوت معين يخرج من حلقه.

النظاميون معهم نقود طازجة ومملأون الحانة. يخرج بيانثي للملاقاتي ويقدم لي سيجارة. من المعتاد أن أفعل أنا ذلك لكنهم إزاء دهشتي— يوضح:

— في الحقيقة، كوريتو ليس شخصاً سيئاً. لقد أعطانا علبة سجائر لقاء تفريغ الشاحتين.

علب السجائر تلك ثمنها خمسة عشر سنتيماً. كلمات بيانثي، عيناه، تنضح عرفاناً. أقول إنه جنون في حين أن بوسعه أن يرقد قليلاً هناك في الظل.

— لماذا؟ بعد ذلك هناك تفتيش على السلاح وعلى الذخيرة، كما أن ضابط الصف يريد منا أن نصطف للتفتيش على ميداليات الهوية ليرى إذا كان كل منا لديه ما يثبت هويته. وأنا فقدتها. عليهم أن يعطوني أخرى إذا شاءوا معرفة من أنا قبل أن يرموني في حفرة.

يعاود الضحك. بعد ذلك بخطوتين ألتقي الرقيب ديلجراس الذي قدم مع الكتيبة التي انضمت إلينا. كان مسؤولاً عن موقع في برج مراقبة ولم نكن التقينا منذ ثلاثة أشهر. يتحدث على نحو متدافع لأنه يريد أن

يحكى كل شئ فى نفس الوقت .

- نجوت بمعجزة . أية فوضى الذى سبقنى سلمنى ساعة "الغيار"
الذخيرة الاحتياطية تنقصها ستة آلاف طلقة . أى هرجا هناك، الجميع
أيديهم فى الوحل : ذلك الموقع مشؤوم . من حسن الحظ أن قائد السلاح قال
لى إنه سيضطلع بالأمر . تفهم ألا ذنب لى وأن جبلاً من الأوراق المختومة
انهال علي .

ثم يحكى أشياء طريفة، وأخيراً، يغمز لى بعينه :

-أيها الوغدا لكم مارست "حق الانتفاع" مع روسيتا

وضحكنا كثيراً . نحن صديقان بحق، نتفق فى الأمور الأساسية، وإذا
كنا نختلف فى الفرعيات فذلك دائماً مبعثه السأم . لديه رأى واضح وناضج
فى الأمور . هو مثقف ويحتمل الخدمة العسكرية كأمر سخيف لكنه
عارض . منذ حوالى ثلاثة أشهر وكتيبتنا تتناوبان - كل ثلاثين يوماً - خدمة
المواقع وأبراج المراقبة فى هذا القطاع، بحيث تستريح كتيبته فى المعسكر
فيما تتمركز كتيبتنا فى الموقع، والعكس . لحظ محبب فى خيمة الحب
منحنا نحن الاثنين شرف التمييز عن الآخرين . فتاة قوية البنية وليست
ذميمة، فى الثلاثين أو الخامسة والثلاثين ولها هيئة ربة منزل . فى غيابى
يصبح ديلجراس حبيبها، وأنا فى غيابه . وهى تقول ببالغ الرضا إننا "أولاد
ناس" .

- والآن؟ كيف سنتدبر الأمر؟

يتسع قلبها لكلينا جيداً . نعاود الضحك ونذهب إلى حانة بلانكا
لنتناول الجمعة و"الخلزون" . هناك، طراً على ذهننا أن نؤدى مشهد غيرة أمام
روسيتا . المسكينة، فى بؤس هذا المعسكر، تستبق موت شبابها وجمالها
لتعيش حياة حقيرة، بلا بهجة، بلا ملاحه، حياة معتمة ووخشية . وشجارنا
بسبب الغيرة - فنحن من "أولاد الناس" - قد يخلف فيها أثراً طيباً . وسرعان

ما ستستعيد لحظة من شبابها البعيد وعبق البكارة والقرنفل . ومن المؤكد أنها لن تعاود الشرب حتى الثمالة لفترة طويلة . لابد أن نتوصل كافة الوسائل حتى لا تفتن روسيتا إلى أننا دهرنا المشهد، وإلا سيكون وقعه عليها شديد القسوة .

في الحانة، نرى حكمدار المؤن، فتى طيب، خطيب الصبية المغربية ورفيقة روسيتا . هذه الصبية من قبيلة بنى ورياغل وتلارمها الصورة المربعة التي توحى بها تلك القبيلة : قبيحة، مسودة دون أن تكون سوداء، صارمة إلى حد الوحشية . ويخلف الحكمدار انطباعاً بأنه يتركها تحبه، لشدة ضجره وكرمه : لكن الحقيقة هي أن كل الأموال التي يرسلونها إليه من منزله ومن ريع ممتلكاته يبذله في هدايا وفي الحلوى والحبر الذي يلفها به . نخفى عنه خطتنا، وفي الحال نعر على ثلاثة زملاء نثق بهم وبوسعهم أن يسدوا لنا يد العون كخورس يصلح ذات بيننا . قبل ذلك، ثمة شراب العرق . ديلجراس ادخر مرتب شهر ويدعونا إلى الشراب . أحد الزملاء يحمل أربطة والبندقية لأنه في نوبة حراسة . يذهبون برفقة ديلجراس وأنا أقوم بجولة قرب الحانة وأتسلم في خص كوريتو بعض الصحف وحين أقدر أنهم جميعاً عند روسيتا، انقض على المكان . حين يروننى، يرفعون الأقداح والأكواب . أرفض النخب دون أن أشكرهم . وفي جدية من يشعر بالغيرة أتوجه إلى روسيتا وأسألها :

— ما هذا؟ ماذا يفعل هذا هنا؟

تضطرب قليلاً :

— ما عساه يفعل يا رجل؟ ديلجراس صديق عزيز، لقد جاء من برج مراقبة ويرغب في شئ من النسلية . لا أعتقد أنا أن ... —تتردد— لأننى، فى الحقيقة، إذا كنت سوف ...

أقاطعها فى استهجان أرعن :

— لا أحد يسخر منى . ولا يجب أن تعتذرى لأنك كما يعرف الجميع ،
لذا لا تنتظر منك سوى حقارات . لكنى أقسم لك أن ما فعلته ...
أتقدم فيتدخل الآخرون :
— ليس معقولا يا أنطونيو ...
— على رسلك يا رجل ...

في أحد الأركان ، ديلجراس ، متحفظاً ومترفعاً ، يفكر في الرد . وأنا
أواصل الكلام مصطنعاً استهجاناً حانقاً . وحين يرونى متردداً يتدخلون
بأصواتهم واحتجاجاتهم وينقذون الموقف . فضلاً عن أن ترددى كممثل
كوميدي لا يسمع الملحن يبدو ثمرة طبيعية لتوترى . تنظر روسيتا إلى كلينا
بعينين أخرجتهما المفاجأة من محجريهما :

— لكن ، أيها الفتيان ، من فضلكما ، أنتما جادان ؟

يتكلم ديلجراس أخيراً :

— دعك منه . إنه لغبي .

— سنرى من منا الغبي .

— ماذا سنرى منك ؟ غبي وجبان . لو لم تكن كذلك لرأينا . هذه المرأة
لى وإذا كان معك مال فهى لا تحتاج إليه مادمت أنا فى المعسكر — ثم يشير
إلى الباب — اغرب عنا

تتدخل روسيتا وقد انتفش شعرها :

— هذا لا . فأنتما تعلمان أننى فيما عدا ثمن الشراب لم أقبل منكما
قط سوى بعض الهدايا ؛ لا أنت ولا هو ...

أدفع روسيتا بذراعى ، بحيث تصطدم فى رفق بالحائط الخشبي . فتقول
وهى تبكى من السعادة :

— لكن ، يا أنطونيو ، ليس معقولا يا بنى !

يحتدم الشجار . يتجنب الزملاء أن يتبادل الكلمات ؛ لكن ديلجراس ،

حتى يضيفى حدة على كلماته التى لم تكتسب بعد العنف اللازم، ير كل صندوقاً فتسقط الزجاجات والأقداح على الأرض. وروسيتا التى تناوب النظر إلى كل منا - لا تدرى أتبكي أم تضحك - تجرب الكلام، لكن ضجيج الأصوات يخنق كلماتها؛ تحاول التدخل لكننا نعاود إسكات كلماتها بسبابنا.

الصبية المغربية ومانويلا تطلان من الباب وتقولان بتدلل:
- "مشاجرة" فى رقم سبعة.
وتردف مانويلا:

- لقد قلت ذلك دائماً: إن روسيتا هذه بنت بغى حقاً وستمنى بسوء العاقبة.

أخيراً، يفرقون بيننا ويخرج كل منا من ناحية. أصل إلى قطاع كتيبتنا وأدخل الخيمة دون أن ألتفت إلى الأشياء. يراجع ضابط الصف السجلات، ويراجع جوالين من الأحذية المصنوعة من القنب. روى له لوكاس، بأسوأ نية، عن فشل رتل الشاحنات أمس وأول أمس. يربط بين الأحداث. اليوم تم إخلاء موتى وجرحى أمس، ولوكاس يعطيه أرقاماً فلكية تقريباً. يتحدث إلي وأنا أرد بنعم على كل شئ، وأطلق زفرات مرة وأخرى لأتخلص من شعور بالضيق لا تفسير له. عشرة شهور فى المعسكر لا أرى سوى عجائز الحانة أو فتيات المعسكر الثلاث. أفكر فى تاجج روسيتا. ويأتينى صوت ضابط الصف - الذى لم يزل يتحدث - من بعيد، كأنما يصدر من عالم آخر. يأتى رقيب مقهقها:

- كان رائعاً. كأنكما كنتما ستقتتلان. ألا تدرى يا سيدى ضابط الصف؟

ويحكى له. لا أحتمل الإصغاء.

كل كلمة تتردد فى قلبي، تجعله يتذبذب بصدى موجه. وفى ذات

الوقت، أستهجن هذا الضعف، هذه السحرة الفجائية، لا لشعور ما أو عاطفة بل لسلوك مرذول بتُّ في حمق أبجله، أضعه في مرتبة سامية ضد عقلى وإرادتى .

أنهض وأمضى . قدماى تحملاننى آلياً إلى خيمة روسيتا . وحين أنتبه احتاط للأمر وأذهب من طريق أقل مباشرة، وبشئ من جفاف الحلق أتلفت حولى لأرى ما إذا كان ديلجراس ، الذى كان خرج من هناك فى إثرى، عاود الدخول .

بعد ذلك بقليل، خلال التفتيش على السلاح، وحيال رؤية بيانثى منسحفاً تحت "الشدة" وقبعته التي تغطي نصف أذنيه لكبر حجها، أشعر بقلق غير مفسر. لا أكاد أنظر إلى بندقيته ثم أتقدم، ولا أقول له شيئاً. تضايقنى فكرة أن ما أشعر به نحو بيانثى هو احترام كبير؛ لكنه احترام مرتبط بالازدراء الذى يثيره انعدام شخصيته ومظهره الجسدى المنكسر بعد خمسة أعوام من وهن الروح.

منذ بدء التفتيش والهيّاج لا يتوقف فى المعسكر. سيطلقون نوبة استحضار فى الثانية فجراً، ولابد لكل شئ أن يكون على أهبة الاستعداد. أصوات أبواق هنا وهناك: تفنيس آخر. قيادة التشكيل الايمن حددت أهدافها. وفى خيام الرقباء ثمة حديث ونقاش. بعضهم يعرف جيداً الأرض التى ستكون مسرحاً للعمليات، ويتحدث عن صعوبات ومزايا. وقبل الليل وسط صخب زائف لحفل. حركة فى خص الهاتف. وما إن يسقط النوم فوق الأعين التى ألهبتها الشمس والجفاف تطلق الأبواق نوبة الاستحضار. لابد من الخروج. السترة على اللحم، بلا قميص، وحذاء الميدان الواسع ذو المسامير. والأربطة بـ"الشدة" كاملة: البندقية، الزمزية التى نسيت ملاءها. وحين أخرج، تكون طوابير طويلة اصطفت فى الظلام: أوامر، سعال، دفعات، أصوات احتجاج. بعد قليل، كل شئ انتظم. أكثر من ساعة من الوقوف فى الصف، غير محتملة، مهلكة، بالشدة على الكتف. والبطء وسط ذلك الحراك الغريب من الاصطفاف ينقل على الرقبة

ويؤملها . كالإبل، نقف على قدم واحدة ثم على الأخرى فى تمايل شبه منتظم . فى الظلام، يقف طابور الفرقة، وتصطف البطاريات متاهبة، والجرارات التى ستجر المدافع الكبيرة لمجموعات الاستطلاع وعربات الاقتحام . الوحش العظيم يللمم أعضائه، ويشد عضلاته فى جنح الظلام . وكشافات الجيب هى ألف عين ترمش فى عصبية .

من قبل، كنا آخرين: نبيذ، حانة، خوف ليلى من المغاربة ونهارى من النظام . لكننا، فى النهاية، جنود؛ رجال يفكرون ويتحدثون؛ كل واحد شعرة، ظفر، سن فى ذلك المخلوق الوحشى الذى بعد أن تمطى يطل الآن بخططه الفولاذى من سور السلك بهدير محركاته وصريه المصفح . فى الظلمة، كل هذا يترأى فى عظمتة الدرامية . يبلغ الأمر مبلغ الاعتقاد فى جمال الحرب . نسمة ملحمية تحرك حافة القبعة، وجندى أندلسي، حالم دائماً، معتداً لكن فى غير زهو، يقول :

— ما إن ننتشر سأصطاد المغاربة كما نصطاد "الزيز" فى قرىتى : بخبطة قبعة .

الآن، يتضح أنهم يقدمون لنا القهوة . يمر الطباخون وجندى المؤن يجر مطبخ الميدان . يعطوننا كذلك وجبة باردة . هنالك من يملا الزمزمة قهوة وهنالك من يشربها مبللاً الخبز فيها بصعوبة . الملازم المعاون يذهب بالدفاتر هنا وهناك . ضباط آخرون يتحدثون إليه فيبتعد ملوحاً بيده :

— لا تأتونى بأعداء !

يحصي الشاحنات، يسجل ملاحظات، يتحدث إلى جماعات من

الظلال المبهمة، ومن حين إلى آخر يسمع صياحه :
—ساحولك إلى مجلس تأديب!
له صوت واهن، ندى، يحاول أن يضيف عليه ما يوسعه من شدة .
الرقيب إيريارتى يلكزنى ويقول :
— فى كل لحظة يريد أن يخلف انطباعاً بأنه رجل .
يدهشنى سماع إيريارتى يتحدث هكذا لأنه أكثر المعتدلين فى الكتيبة .
وأخيراً، نتقدم لنسير فى الترتيب المحدد ويسمع صوت النقيب يردد أمر
البوق :
— للأمام، فى طابور سيرا...

إلى اليسار، السماء مخددة أفقياً باللون الوردى . سيبزغ الفجر . تحدثت
خدمات الحماية، المقدمة والتشكيلات . والمؤخرة ستتكون بعد الانتهاء من
الخروج من المعسكر . يعطى أمراً : "احذروا الحرائق" . لكن لا جدوى . طلع
الفجر والجنود يدخلون وبعضهم يلقي أعواد الثقاب المشتعلة على جانبي
الطريق . معظمها ينطفئ قبل أن يصل إلى الأرض ، لكن يكفي أن يظل عود
ثقاب واحد مشتعلاً حتى يشب حريق فى قطاع من عدة كيلومترات من
العشب البرى المنخفض . وهم يحظرون ذلك لأن بقية الطابور فى حالات
سابقة لم تتمكن من مواصلة السير بين النيران المشتعلة على جانبي الطريق .
هذه الرغبة فى إشعال الحرائق تتأجج عند المرور بحقل لم يحصد بعد ، بأى
شئ نافع حيث يكون الضرر بديهيًا ومؤكداً . فالقوة ، حيوية كل فرد حين
ينتظم فى الطابور، أول ما تجلبه هو الشعور بعدم المسؤولية تجاه الشر . وهو
شعور لا يولد فى شخصية الجندي بل يلزم النظام العسكرى ، القدرة على
الهيمنة، التماهي مع هدف التدمير . ويحب الجندي التأكد من ذلك .

مع الفرقة، يأتى عدد من كلاب المعسكر يتقافز وسط الطابور والذي، ما إن يرى شخصاً مسلماً من الأهالى ممن سمحت لهم المقدمة بالمرور لأنه يحمل اوراقاً سليمة، يأخذ فى النباح بشدة لكن دون أن يتجاوز الخطوط الجانبية.

تبدأ أول تجربة، تعب الكيلومترات الأولى، الذى يبدأ بعد مسيرة أربعة كيلومترات أو خمسة وينتهى بعد تخطى العشرة. وأنا رحت أتأخر حتى أصبحت فى مقدمة السرية التالية. بيانثي يسير وسط آخر جنود السرية مغلقاً فمه ورأسه إلى الخلف، متنائياً ومثابراً. تشير حنقه مسألة أن من أمامه يسير بخطوة غير منتظمة، لأنه حين يقصر الخطوة يصطدم وجهه بمخلاته. إلى جانبه يتحدث أحدهم إلى حامل النقالة الذى يرافقه:

—لم تكذ تمضى ثلاثة أيام حتى عينوك حامل نقالة. بهذه العصي على كتفك ولاشئ أكثر. أهلاً بالكيلومترات. لكن فيما بعد، عند الالتحام، ستضطر أن تحمل أحدهم، لا مفر. وإذا كنت أنا من نصيبك، فلديك سبعون كيلوجراماً.

—وهل تعتقد اننى سوف أحملك أكثر من خمسة عشر أو عشرين خطوة؟ من أجل ذلك توجد عربات الإسعاف!

—وإذا كان طريق السيارات بعيداً؟ فالشاحنات ليست عربات مصفحة. تحتاج إلى طرق ممهدة.

—إذا لم نجد الشاحنات فثمة دواب بمحفات.

—هذا أسوأ، لأنكم حينئذ مثل دواب النقل. فدائماً يستبدلون المرء بمثيله والدواب تحل محلهم.

ما زالت الفرقة تسير تحت ضباب الغبار الحيرى. يصمت الجندي المجاور، يفكر برضا فى احتمال أن يحمله الآخر على كتفيه. "لقد أصابونى بعيار مرة..."، يبدأ الحكى لكن أحداً لا يلتفت إليه.

بعد الخروج من المعسكر بساعة، يسمع هزيم المدفعية. بعد قليل، يمر
عالياً جداً سريان من الطائرات فى تشكيل، ثم ي خلفاننا وراءهما. بعد
الإنصات إلى قذيفة المدفعية، يقول أحدهم:
- تلك قذائف قطع البحرية.

فيما بعد يسمع القصف بطيئاً وعلى فترات متباعدة لكن الدوى يصلنا
متقطعاً، أشد وضوحاً واختلافاً. فى هواء الصبح الهادئ، الساخن الآن
والمتكاثف، يحدد خطر رهيب:
- الطيور ستحترق.

مازلنا تحت الغبار. قيادة الفرق سيراً على الأقدام إجراء طيب. فإن تسر
خمسة عشر كيلومتراً تتلاش غريزة البقاء أو، على الأقل، ذلك الحرص
الفطرى الذى قد يحمل الكثيرين على التردد قبل النهوض عن الأرض
لمواصلة التقدم فى مجموعات اشتباك ومع العشرين كيلومتراً التى تنتظرنا
سنصل هناك كالدمنى؛ وسنطيع الأوامر طاعة عمياء؛ كما أن التعب وحمى
الطريق تلك، والعطش، والقيظ لن تجعل أحداً ينتبه إلى أنه يموت إلى أن
يرى نفسه فى العالم الآخر. ومن يستقلون الشاحنات حتى مكان الانتشار،
و يصلون منتعشين وبطاقاتهم النفسية كاملة يشيرون الشفقة. قد تجعلنا
القيادة نسير على أقدامنا لتوفر النقل، لكن تلك الملاحظة سليمة.
يرتقى الطريق الآن سفوحاً جبلية، ثم ينخفض ويدور حول تلال.
الطبيعة تشتد وعورة. نسير فى طريق متقارب صوب البحر الذى لا يرى؛
ولكنه على يمين الطريق، متوارياً خلف خمسين كيلومتراً من القمم الجبلية.
حين يسمع الجنود اسم موقع يصيحون السمع. لا أحد يعلم تحديداً
إلى أين نتجه ولا المهمة التى كلفنا بها. بعد التفسير الخاص بـ "القول"
انتشرت تكهنات أخرى. مازلنا نسير آلياً. تصطدم البندقية بالطبق الزنك
الذى بداخل المخلاة مرة وأخرى. هنا وهناك، يبصقون غباراً رمادياً وفوق

الغبار يترك العرق آثاره . السير، السير فى الوحدة اللانهائية للميدان المتجههم، المحذب، تحت هزيم المدفعية البعيد، ساعة، ثم أخرى . تكون الساعة حوالى التاسعة حين نرى، دون أن نتوقف عن الصعود، دخان الانفجارات .

دخان أسود ضارب الى الرصاصى ينقشع ببطء فى الهواء الساكن . الضباط المعاونون يتنقلون بين الصفوف على ظهور الجياد، فى نهر الطريق، يعطون الأوامر . لا بد من متابعة الصعود، لكن مجموعات الاشتباك التى فى المقدمة والجناحين ازداد عددها وانشرت لتغطى مرتفعاً لا ينتهى . أم أنهم ليسوا رجالنا؟ وحدات رشاشات ترق ركضاً، تتقدم خارج الطريق وتغيب مؤقتاً عن الأنظار . نواصل السير ونعاود رؤيتها . نصف ساعة أخرى من السير الهادئ، غير المكثرت . الطابور طويل ومتشابك للغاية ولا جدوى من محاولة الإحاطة بما يجرى، لأن التحركات الفجائية والأوامر هنا وهناك مازالت تحدث فى مقدمة الطابور دون أن تنعكس علينا . مازلنا نسير متلماً فعلنا منذ أن تركنا المعسكر . لكن أحداً لم يعد يتحدث . وبيانثى، برأسه المائل الى الخلف الآن على نحو أشد، وضع البندقية على الكتف الأخرى ومازال نظره مثبتاً فى قفا من يتقدمه .

تحلق الطائرات فوقنا، ثم بعد أن تجاوز المرتفع الذى إلى اليمين وتواجه الوادى ترتفع رأسياً تقريباً . وتتقدم حوالى ثلاثة كيلومترات وتلقى بقذائفها أو ترشد قذائف القطع البحرية . يرى بعض الصواريخ فى الهواء ويمكن تقريباً متابعة مدارها المسرع ثم البطيء ثم المسرع من جديد . لا أحد

يتكلم. وكلما توقف من يسير أمامنا برهة توقفنا وخلصنا أنفسنا. لكنه وهم زائف. مرة أخرى السير، مرة أخرى صوب الوادي الذي نواجهه الآن مباشرة. كنا تجاوزنا مرتفعاً رها نحن نتوقف أخيراً أمام مرتفع أيسر، وتطل من فوقه الآن السرايا الأولى. تتتابع الأوامر. لكن الدوي بالغ الشدة حتى صار مستحيلاً سماع تلك الكلمات المتفرقة التي هي الشيا التي يمكن من خلالها اقتصاص السر.

لا أحد يتكلم، لم يعد أحد ينظر إلى الآخر. تتعلق الأنظار بالطائرات، بالانفجارات التي تملأ الهواء بأصداء متعاكسة ومتقابلة رهيبة. يغيب عن الأنظار النظاميون المنتشرون أمامنا في صفوف غير متساوية وراء بروز في الأرض. نتقدم الآن فجأة بالخطوة السريعة. يلوح الوادي مشوحاً بالانفجارات. ويسمع الآن صوت الرشاشات. نواصل العدو. انتشرت السرية التي أمامنا وتستمر في تقدمها بلا حذر. ونحن نسرع في خط راو، ومازلنا في الطابور، بنفس الخطوة السريعة، الآن ندرك وجهتنا. من وراء أكمة، يعود جنود البغال بعد أن تركوا هناك وحدة مدافع رشاشة. وأمر الانتشار يردده الضباط والرقباء بإيماءات مكررة. نحن الآن فوق الأكمة. يبدو مستحيلاً أن يشتتونا هكذا. لا أرى سوى جندي إلى يميني وآخر إلى يساري، ملتصقين بالأرض. يحذر بيانثي الجندي الذي إلى جانبه:

— لا تبحث عن الأشجار الصغيرة فهي فقط ستحميك من الشمس.

ابحث عن حجر حتى ولو في حجم قبضة اليد.

تمر فوقنا قذائف مدفعية مجموعة الاستطلاع التي تطلق النار من خلفنا، منحرفة قليلاً، ونفيد منها كمرجعية. يتمزق الوادي في انفجارات رهيبة وتعمره أعمدة الدخان وقذائف الأسطول تخرق الهواء. إنه "الدعم" لكنه لا يرى في أي مكان. ربما تكون هذه الكيلومترات العشرة حتى الهر محتشدة بالمدافع والقوات والرشاشات. والطائرات أيضاً تخلق على ارتفاع منخفض. لا

ريب أن "الدعم" موجود هناك. موقع T لا يرى. ونحن؟ نحن ماذا نفعل؟ بعد نصف ساعة من القصف في بعض المنحدرات التي تكشف هذا القطاع من الوادي، تتقدم مجموعات الالتحام من النظاميين. كيلومتراً إلى الأمام، يمتزج الجنود -متضائلين ومنكشفين- بأرض الوادي ولونها الأبيض الضارب إلى الحمرة. رشاشات لم نرها من قبل تفتح النار وتذك الفضاءات التي بين أماكن الانفجارات. وأخرى تتخذ مواقعها إلى جانبنا في سرعة. ونحن؟ الرشاشات تسكت أيضاً في انتظار الأوامر. بيانثي ينظر إلى المدفع الرشاش الذي بجانبه ويحذر الحكمدار:

- أسد لي معروفا ولا تضايقنا بفوارغ الطلقات!

-اللجنة! ابتعد قليلاً!

يبتعد بيانثي قليلاً مزمجرأً، يفكر بمنطق طريف: "يجب أن تتمركز الرشاشات في مكان لا يضايق أحداً". ويوضح في الحال:

- قبل مهاجمة العدو أو إلحاق الضرر به، يجب مراعاة عدم مضايقة الزملاء.

يدور بينهما نقاش قصير بالإيماءات، بدون كلمات، تحت دوى قذائف الطيران وبطاريات الصواريخ المتمركزة إلى الخلف. الآن ترى الطلقات وهي تنقر بين صفوف النظاميين. تكشف النيران، وبعد أن اكتشف الهدف، توجه رشاشاتنا شحناتها إلى سفح المنحدر، على بعد ألف متر لا أكثر. وعبثاً يحاول النظاميون التقدم. ومن نفس المنحدر يطلق المغاربة النار بدورهم بدقة مثابرة، ومجموعات الالتحام عندما تعاود التقدم تخلف وراءها بعض الجنود على أرض الميدان. نيران الأسطول والطائرات لا تتوقف وتكتم الأصداً تحت سلاسل من الدوى الخشن والرخو. والنظاميون المنبطحون مرة أخرى لا يتقدمون رغم الأوامر. بعضهم يتردد، لا يجرؤ، ثم يتهاوى إلى الأمام قليلاً.

موجة بشرية أخرى، شجاعة ورشيقة، تهب بخطى سريعة وتهرع ناحية النظاميين. إنهم "الترثيو"*. بيانثي ينتبه جيداً ويده على خده. بين هؤلاء والنظاميين تنافس؛ وقد يكون جنود هذه الفرقة هم الأكثر شجاعة. لكن مسألة الشجاعة هذه - يفكر بيانثي - لها مساوئها، فإذا التفت إليها الجندي الشجاع فلا محيد عن أن تثبط همته. من التفت إليها الآن هم النظاميون على ما يبدو. يفرون. وبعض الجنود المغاربة يتقهقروا. فيما ينتشر جنود الترثيو ويتقدمون بعيداً بينما يشق طابور إمداد صغير طريقه وسط شجيرة الانفجارات صوب الجبل. الدعم. إنه الدعم. يتقدم جنود الترثيو، يهاجمون مسلحين بالمدى. يتردد النظاميون فيقدم ضابط على ظهر جواد ويصرخ في وحدة الرشاشات:

- افتحوا النار على النظاميين!

تطلق الماكينات رصاصها على مجموعات الاشتباك. تأتي أعيرة عالية، الأولى هذا النهار، وبيانثي، غريزياً، يعد بندقيته. ينتشر صوت: "أعلى، سبعة". في أي اتجاه نطلق النار؟ أعلى، سبعة. هكذا. طلقات العدو تمر منخفضة. الضابط مرة أخرى، مترجلاً:

- ألا تجيد هذه الرشاشات التصويب؟

الحكمدارات والرقباء المسؤولون عن الرشاشات، والذين يخطئون التصويب عمداً، يطلقون نيراناً منخفضة وشحنات الرصاص تصيب مجموعات الالتحام. خمسة عشر أو عشرون ممن ينجون من الرصاص يركضون، يتقدمون، ينضمون إلى الترثيو.

* قوات خاصة بالجيش الإسباني.

لكن الخندق الأول تم إخلاؤه. المغاربة لم ينتظروا فرقة التريثو وينتقلون الآن بحذر إلى اليسار. يغيرون مواقعهم دون أن يفروا. تصوب نيرانهم نحوهم ويرى كثيرون منهم يتساقطون، لا يدرى أحد أقتلوا أم أنهم يلتمسون النجاة. أسفل الأكمة الممتدة تترامى هضبة تسدها من ناحية اليسار ثلاثة مدرجات جبلية. من هنا حتى البحر عشرة كيلومترات - القتال مستمر بلا توقف من ثلاثة أيام. هناك إلى أسفل، سحقوا أمس الكتيبة 35. لكن الدعم سيدخل اليوم. فإن لم يصل فيمكن لهذا أن يصبح أنوال أخرى. ينبغي للدعم أن يدخل T. هاجس غامض لكنه نابض في كل يد مرتجفة، في كل نظرة معتمة، يتنبأ بذلك. يجب أن يدخل الدعم بالماء والذخيرة الوفيرة والخبز واللحم والسكر حتى لتتكرر في T مأساة R.

يصوب بيانثي على أهداف أصبحت ترى. بقع بيضاء، رمادية، لحظية بين أكياس رمل الخنادق؛ وضباب وجيز يتواصل بين نيران البنادق والمدافع الرشاشة تسمع فجأة في طرقعتها المبحوحة والبعيدة والتي تبعث من جديد وسط شظايا قذائف الطائرات وقطع الأسطول. وفرقة التريثو اختفت في الشقوق والوهاد. إلى اليسار، يطلق المغاربة وابلهم المميت بعد أن التقطوا أنفاسهم، لكنه لا يصل إلينا إلا نادراً ومع ذلك هنالك جندي جريح. فتدك مدفعيتنا تلك المواقع الجديدة. أحضروا لنا المزيد من صناديق الذخيرة. تدوى عدة انفجارات في الخنادق التي هاجمها جنود الفرقة. أتقصفهم مدفعيتنا؟ إنها ألغام تركها وراءهم المغاربة. تخرج مجموعات من التريثو وتركض إلى الأمام وقد ألهبها الذعر نفسه. بعض منهم يحمل البندقية على كتفه وسكيناً رهيبة في يده، ويسقطون هنا وهناك. مجموعة اشتباك جديدة من النظاميين تجاوزهم. نيران المدفعية تراجعت إلى الخلف، ورتل الدعم لم تعد بقعته السوداء تلوح في أرجاء السهل.

حتى الآن كان العرض رائعاً. وبيانشى يعلم تماماً أن شيئاً لم يبدأ بعد، وأن تلك كانت افتتاحية عذبة ومتناغمة. على الجانب الأيسر، مازال العدو يدك التل الذى فى المواجهة. يعن الآن طابور آخر، صف طويل من البغال التى تحمل ألواحاً خشبية وصناديق وبكرات أسلاك شائكة وأكواماً من الأجولة. يتقدمها البغالون الذين يجرونها من لجمها ويسير كل منها حسب سرعة الذى يسبقه. يصدر -بغثة- أمر. يأتى إريارتى ويكرر: "هيا، انهضوا". تنهض مجموعات الالتحام وتهبط نحو السهل. طرفان من الرصاص يسقط فوق هذا المنحدر. يحمل إريارتى فى حزامه قنبلة يدوية "لافيت" كعادته كلما هاجمنا؛ ويكفى أن تُحل "الدوبارة" السوداء التى تحيط بها كى تنفجر وتشطره نصفين. أى شيء إلا الوقوع فى الأسر. تصفر الطلقات، تزار حولنا. يدور جندى ثلاث مرات فى الهواء متخشباً ويسقط كجوال. يقول بيانشى من بين أسنانه:

- فى القلب، فى مقتل.

حين ننتبه نكون هبطنا، ولدينا انطباع بوجود شيء أبيض، جاف، جبرى -التراب- فى العيون المحترقة.

طابور جنود سلاح المهندسين يصعد وراءنا، فى عجلة. سيقيمون برج مراقبة. تسدل المدفعية ستاراً من الشظايا وراء الأكمة. ونحن نرتقى الوهاد، نخرج وننزلق مغبرين ولاهثين. فى أحد الوهاد شق ضيق ومستطيل. يلقى لوكاس بنفسه داخله ومعه عدد من الجنود. يلج الشق ومعه جندى واحد بينما يظل الآخرون خارجه. تشق الوهدة طريقاً ضيقاً ومعتماً ينحرف فى منعطف قائم الزاوية ويتلاشى فى كهف رهيب ويتسع لخمسين أو ستين رجلاً. تحصينات ضد الطائرات. يمكن لعشر قنابل طيران أو اثنتا عشرة أن تسقط فى نفس الشق دون أن تصيب من بداخل الكهف بأقل ضرر أو تسد عليهم طريق الخروج. لم يزل جنود سلاح المهندسين يرتقون

الأكمة . داخل الكهف كان ثمة مغربيان جريحان وآخر ميت . كانت ثمة كذلك سترة من الجوخ الأزرق ، جزء من بذلة التشريفية ، على ياقنتها رقم 42 ، قديمة ورثة . حين نصل إلى أعلى تتلقانا شحنات متتابعة تخرق حائط الدخان وشظايا المدفعية بلا كلل . والجندى الذى كان يناقش الآخر الذى يحمل النقالة يسقط وقد أصيب فى قدمه . إريارتى يصرخ :

— أيمكنك السير؟

— ممكن ...

— اذهب إلى نقطة الجرحى .

— سيلتقطوننى فيما بعد .

— اذهب يارجل أو على الأقل ابحث عن ساتر .

يهز إريارتى كتفيه ، والجندى يمسك قدمه بكلتا يديه ويتخذ موقعه خلف بروز ، ثم يزحف ويهبط إلى أن يسقط فى حفرة مستديرة حفرتها قذائف الطيران . وينتظر وهو يفكر فى تصریح بثلاثة أشهر وفى ذلك الجندى الذى سيضطر إلى حمله على نقالة .

رجال سلاح المهندسين يتركون الحمولة تسقط على الأرض ، ونحن ، المتمركزين أعلى ، نتلقى أمراً بمواصلة التقدم . ومهمتنا؟ أليست حماية إقامة برج المراقبة؟ لكن إلى الراء ، ثمة مجموعات اشتباك أخرى . على الأكمة ، ليس هنالك سوى وحدات رشاشاتنا . ونحن علينا التقدم حتى حاجز الشظايا .

أسلاك هاتف هنا وهناك . ورجال سلاح المهندسين يلقون حمولتهم

ويعملون فى فوضى متوقعة ومنظمة، فى عجلة ولكن بلا توتر. يحملون البنادق على أكتافهم، وبالعتل والمطارق والمعاول يخططون لإقامة برج المراقبة، فيما يملأ آخرون أكياس الرمل بالفؤوس. وقوفاً، دون أن يحسوا أجسادهم، يذهبون ويجيئون، يقودون البغال بتلك الأصوات "الزراعية" التى تتشكل فى الحناجر بحكم العادة، فيما نحن، ملتصقين بالأرض، نصوب طلقاتنا، وسط القذائف، على ظلال عنيدة. بعض الانفجارات تلطم وجوهنا بسياط الهواء. وأزهرت فجأة على صدر الحكمدار الذى كان يقترب أربعة أوسمة حمراء. بيانثى يحذره وحين يجيبه الحكمدار يسقط دم من فمه. أربع طلقات من مدفع رشاش أصابته فى أربعة أماكن متناسقة. يهم بالتراجع لكنه يسقط على وجهه ويرقد فى مكانه. يضغط بيانثى صدره على الأرض ويتابع إطلاق النار. يأتى فصيل المدافع الرشاشة ويلبث مستوى الأرض مكشوفاً. الأفواه يحرقها نفاد الصبر. يتجاوز بغل يحمل ستة صناديق ذخيرة المنحنى الواقعى فيتلقى عدة أعيرة فيقفز فوقنا دون أن يطانا ويركض على غير هدى. يطل الضابط من وراء أكياس الرمل المعبأة الآن ويصرخ فى بيانثى:

— وذلك البغل!

يركض الحيوان صوب خنادق المغاربة وسط طوفان من الرصاص الذى "يكشط" الأعشاب الواطئة ويطن بين أشجار الزعتر. يلبث بيانثى بلا حراك فيصر الضابط:

— أنت أعمى؟ ألا ترى ذلك البغل؟

— ماذا؟

— اذهب وأحضره!

وبيانثى — آلياً — يهم بالنهوض؛ لكن سرباً يطن فى أذنه. يقلع عن عزمه، ودون أن ينصت للضابط يصوب نحو البغل ويرقده بعيار فى ساقه.

يزمجر الصوت المعروف :

— سأحولك الى مجلس تأديب !

يعمل رجال سلاح المهندسين بلا توقف، تحت النيران . الجرحى، الموتى، يستبدلون . سقط أحدهم من أعلى سائر كان ارتقاه من توه ليرفع فوقه عارضة خشبية . من سيمكث عند حلول الليل فى هذا البرج بعد الانسحاب؟ من سيمكث لن يسهه الوقت ليحكى مارآه . تخف حدة القصف والرشاشات تقيس الأرض فى ضمت وتنتظر . تعن مجموعتنا اشتباك لدى مرورهما بسفح المرتفع . من الخنادق، من الشقوق الكبيرة غير المنتظمة التى دمرتها الانفجارات التى أطاحت بالأرض فى الهواء كبنوافير ضخمة، تنطلق النيران جزافاً . والمدفعية؟ وفيما كان كل ذلك الصخب؟ مجموعات الاشتباك تبتشر فى قفزات طويلة : يسقط بعضهم والبعض الآخر يرفع سواعده ويلقي قنابل يدوية يزلزل دويها المكتوم والناعم قلب المرء . لكن المغاربة يتصدون لهم، فيلبث أكثر من نصف عددهم منبطحاً . واحد منهم، جالساً، يطلق النار فى سكينة إلى أن يسقطه آخر بركلة .

يعود القصف . ويسمع طنين القنابل التى تسقط على مسافة ثلاثمائة أو أربعمائة متر فتمزق أوصل الطبيعة فى وحشية . تصمت بنادقنا . يصل أمر . تشتد نيران المدافع . ومرة أخرى : الطائرات . وشحنات الرشاشات تخطط أجسادنا فى الأكمة . نصف الساعة، ساعة . وإلى الخلف، صوب البحر، إلى الأمام، ناحية الجبل، تثب الأرض كذلك وتنحطم الصخور . وحين تقترب الانفجارات تتبعها دمدومات معدنية مختلفة ومتخافتة : أعيرة صغيرة، شظايا . يتكرر الأمر . إلى جانب برج المراقبة الذى يجرى العمل فى بنائه، تعمل خطوط الهاتف الآن . يقدم الضابط على ظهر الحصان، محتمياً بمنجنى الأكمة، ويشير بذراعيه . سكنت المدفعية . أرض طحنت وانتشرت عشوائياً . فى مكان ما، يصعد دخان من بين الأنقاض . لا أحد هناك، محال

أن ينجو أى كائن حى .

هذه ساعتنا، ساعة المشاة . فى قطاعنا -جزء صغير من جبهة القتال-
يرد الصمت إلى الأرض شراستها المهددة . تمر دقيقة . الخوف يشل القلوب
المنبطحة على الأرض .

نتقدم بعد أن شهرنا السونكى . إلى الخلف ، إلى اليمين ، يستمر قصف
المدافع . بين شحنات النار يسمع صوت اصطدام كتل الفولاذ المقلقلة
للعربات المصفحة ، التى لا يعرف أحد مواقعها . الأديم الذى نطؤه ساخن ،
ليس لحرارة الشمس بل بفعل حديد القنابل الملتهب . لا يطلقون النار
علينا ، لكن البنادق والرشاشات مصوبة نحونا ولن تلبث أن تحصدنا . نتقدم
فى تشكيل بأقصى سرعة . هناك أمر بعدم التوقف فى الخنادق ، إذا كانت
مهجورة . كالآلات ، محمومين من الشمس ومن التعب ، متهيجين من جراء
الدوى والنوم المؤجل -بيانشى لم ينم منذ ثلاثة ليالٍ تقريباً- نتقدم فى
طابور طويل وغير منتظم . الخنادق على مرمى حجر ، تمتد إلى الخلف فى
زجراج طويل صاعد يسمح للمغاربة بالانسحاب دون أن يضطروا إلى
الخروج فى العراء ودون أن يتخلوا عن التصويب علينا بنيرانهم . لكن أحداً ،
الآن ، لا يطلق الرصاص .

هنالك جفاف جبرى فى العين . وبغثة يتناثر الهواء فى شحنات كأنه
من زجاج . تعود ربح الشمال منخفضة . تهبط طائرة وتصب عدة شحنات
من الرصاص فى الخنادق الخلفية . تسقط عدة قنابل يدوية داخل أول خندق
فرعى ، ويقدم عدد من الجنود ويرفع البندقية فوق رأسه . داخل الخندق نرى
جندياً يحاول إخراج سلك من الأرض . الغام ؟ بيانشى ينظر إلى الخلف بلا
اكتراث . والانسحاب ؟ سيكون الانسحاب صعباً . أسفل الأكمة التى قمنا
بإخلاؤها فى التويم قول الخسائر : إنهم النظاميون الذين سقطوا تحت نيران
مدافعنا الرشاشة نفسها .

إلى جانبه، يسير القائد أنسواجو على متن جواده، ثم ينطلق صوب
الأكمة التي تحتلها الآن كتيبة استطلاع. ونحن؟ أمازال علينا أن نخرج؟
حين يرى بيانثى نفسه وحيداً في الخندق يزحف إلى الخارج. سقط
كثيرون. عدة خنادق متفرعة تجتمع نحونا في خط زوا. هنا وهناك شقوق
في الأرض صنعتها الانفجارات. مجموعة من خمسة عشر أو من عشرين،
منتشرة في شكل جناح غير منتظم، تتردد، تجثو على ركبتيها، تعاود
النهوض والتقدم. الضابط B الصغير -ثمانية عشر عاماً؟- يتقدم الهجوم
ومسدسه في يده، يتبعه الآخرون. لا يلبث أن يسقط. محال التقدم
خطوة، لم تصندر أوامر جديدة ونستعد لاحتلال الخندق العمودي الذي
يؤدي إلى الخنادق المتقدمة. ومن هناك نلتفت إلى أن جثة الضابط الصغير
سحبت إلى هناك. جندي الإشارة الذي يرافقنا يبسط ملاءة الإشارة على
أحد جانبي الخندق حتى لا يقصفنا الطيران.

يداخلنا شعور بالأمان. لا أحد يتكلم. تحت العرق والغبار الذي يغطي
العيون المحترقة والاشدق وتحت هالة متوزمة حول العينين من أثر التراب، لا
يتعرف بعضنا بعضاً ونحن نلهث. إلى أعلى قليلاً ينعطف الخندق في خط
زجاجي. يحتل المغارة هذا الخندق الفرعي ولا ريب. على نحو غريزي،
يراقب جندي من الفرقة الأولى هذا الجانب، وبندقيته على الأرض وفي كل
يد قنبلة يدوية. هدمت الانفجارات الخندق لكنه عميق في بعض أجزائه.
تحت نيران المدفعية التي تعاود إطلاق قذائفها، يرى بيانثى اقتراب طائرتين.
توافينا القنابل من الخارج بأمواج حقيقية من التراب، الرطب أحياناً.
ونجميعهم يحنون رؤوسهم ويرفعون أكتافهم. جنود المدفعية هؤلاء لا
يعرفون ماذا يفعلون. على مسافة قريبة، ثمة فتحة كهف خامية من
الطائرات. ترجف جوائبها. في الداخل رجل مسن رشقت خنجرته بطلقة
لا يستطيع الكلام لكنه يأتى بإيماءات ودود ويضحك. فيما بعد، يخرج

خنجرأ عربياً ويقدمه لى . وراء وداعته الكاذبة يدارى رعباً وحشياً . إلى جانبه يرقد مغربى آخر، فى صمت كذلك . يشير العجوز بإيماءات إلى أن الآخر جريح، يدور حوله ويقبله على ظهره . الآخر جثة هامدة . يومئ العجوز فى مفاجئة جامدة ثم يغمض عينيه ويشيح بوجهه ليخبرنا بأن زميله مات . ثم تمر بعينه السوداوين والساكنتين سحابة بعيدة . إلى أعلى، فوق رؤوسنا، تتلاحق الانفجارات . وحينما تشتد يشير العجوز إلى السقف ويبتسم . إنه ينزف، كلما ابتسم انثال خيط جديد من الدم من البقعة الجافة فى حنجرته . لكن لم تسمع له شكوى . فجأة، يصيح جندى الفرقة الأولى السمع .

— العربات .

بالفعل، يسمع إلى أعلى صرير الفولاذ وسط نيران مدفع ورشاشات العربات المصفحة نفسها . نخرج من الخنادق، ترى على مسافة ثلاثين خطوة عربة مصفحة تتقدم وثباً وتهدر تحت نيرانها . لكن خمسة عشر مغربياً أو عشرين صعدوا فوق العربات، ويطلقون النار بوضع المسندس أو البندقية من بين فتحات العربة ويسيرون فوقها فى شغف كوحوش فوق جسد وحش جريح . نفتح النيران عليهم ونصيبهم . أمر بناظرى على مجموعة الالتحام الصغيرة قبل أن أحاول الخروج، يغيث أخذهم، العزيز حامل الراية، صبي خشن، يحترم النظام والأوامر، أظهر دوناً روحاً عسكرياً مثيراً للإعجاب . من العربة يرسلون إلينا دفعتين من أعيرة الرشاشات : لغنات، تهديدات . أهكذا نشاب؟ ألم يزوا أننا أنقذناهم؟ حامل الراية؟ إذا أطل حامل الراية سيرون أننا من 42 . أهبط الخندق وأدخل الكهف . أرى العزيز من ظهرته يعالج الشيخ العربى بطاقمه الطبى الخاص . بعد أن يصب اليود فى الجرحين يضمند حنجرته بالشاش فى عناية . ثم يربت على كتفه ويصرخ فيه كالمصروع :

— أنتم على حق!

. ينتبه إلى وجودى من نظرة العربى . يلتقط بندقيته ويقف فى وضع انتباه كأننا فى مناورات . يتقدمنى فى الخروج . فى الخارج يقول لى :

— شعرت نحوه بالأسى!

ثم يحاول تبرير أمر رهيب فيضيف :

— أى رجل على وشك الموت يستحق أن نقول له إنه على حق . اليس كذلك؟ وهو أظهر امتناناً لذلك . ألم تر كيف كان يبكى ياسيدى الرقيب؟

وأنا وددت لو عانقت العريف، لكن أعذاره نفسها حالت دون ذلك . أقول له بلا أقل جفاف :

— لم يكن يبكى امتناناً بل من أثر اليود الحارق على الحنجرة .

تتسلق العربة المصفحة المفلطحة ببرجها الدائرى، كأنها سرطان بحري كبير . ونحن ننتظر إلى أن تصعد وتبلغ الخنادق الأخيرة، لكي نخرج . تطرق الأعيرة على سطحها بصفير كصفير الصفيح .

يضرب مدفعها الخنادق الأخيرة . وسط موتانا قتلى مغاربة وجلايب وسيقان عارية . نحن الآن فى مأمن بعيداً عن مرمى النيران؛ ومع ذلك، أحياناً، ترتعد أوراق شجيرة وفى الداخل يزأر عيار يود عبثاً لو شق الأرض . يتأخر سرطان البحر فى تسلق الخنادق الأخيرة حوالى نصف الساعة . وانفجارات القنابل اليدوية الآن بعيدة .

نخرج ونرى، صوب أحد الأرجاء، مجموعة التحام كتيبة الاستطلاع تتقدم فى سرعة . نصعد . بعد زرقة الظهيرة الشديدة، يزرع دخان القنابل اليدوية أشجاراً سريعة الزوال، لونها ضارب إلى الرصاصى . تهبط العربة على الجانب الآخر من المنحدر . هناك، تحتل بقية الكتيبة خياماً بأئسة لقرية . بعضها يحترق . جنود ارتقوا سقوفها يفتحون النار . خلف ظهورنا يشتد

إطلاق المدفعية الثقيلة ويعمر الهواء برعد عميق، غير منتظم، دائم. رائحة دخان الخيام تذكر برائحة حطب المدفأة في الشتاء. وفي الحال: رائحة أخرى، كاوية، لاذعة؛ والصيدلى يظهر بلحيته ونظارته الطبية السميكة، يسد فمه بمنديل متسخ: — هايبريت، اللعنة، هايبريت. أطلقوا على مسافة قريبة غازات حارقة.

توقع. أنتقدم؟ أحد رجال الفرقة الأجنبية — يحمل البندقية من حاملها ومعصمه الأيسر في ضمادة — يتقهقر، ويسحب بحبل بقرة وعجلاً صغيراً: غنيمته. يتخذ موقعه لينسحب ولينقذ كنزه من الغازات. يقول وهو يغمز بعينه:

— جئت في الوقت المناسب. من يعتقد أنه سيجد شيئاً، الويل له. كل الحيوانات الآن ماتت وبطونها انتفخت.

هنالك أمر مبهم ينتقل وأنقله أنا إلى رجالى. برج الحراسة أقيم الآن وأضحت الأكمة مسلحة جيداً بالرشاشات. فى آخر جزاج بالخنادق يُسحب خط الهاتف. تسقط أربعة قنابل يدوية على مسافة مائتى خطوة إلى الأمام. شائعة: الدعم دخل لتوه فى موقع T. بعيداً عن قطاعنا يشتد إطلاق المدافع. وفى الأفق قامت كل الزوابع المدارية.

أصبح برج الحراسة الآن مؤمناً. الركض، الركض، ترشدنا آثار أقدامنا نفسها. من جديد فى الخنادق التى استولينا عليها. الدبابة هبطت وتقهقر صوب المكان الذى انتشرنا فيه هذا الصباح. يشعر بيانشى وهلة بالرعب حين

يتذكر أنوال . الفرار، الفرار . لكنه فرار منظم بلا ذلك اليأس المحموم . لا أحد يهاجم إلى الآن . من بوسعه أن يهاجمنا إذا كانت الكيلومترات العشر التالية غارقة في الغازات الحارقة والشظايا؟ نهبط . والجريح الذي حاول حامل الراية مداواته هو الآن خارج الكهف، ميتاً . نعدو بلا نظام . وأكمة برج الحراسة لا ينبغي تسلقها . تسلك مجموعة الالتحام على دفعات الطريق الأسهل ونلف حول الأكمة إلى أن نواجه الوادي . تبدأ المدافع الرشاشة في إطلاق النار من برج الحراسة والطلقات تمر فوق رؤوسنا . لقد وصلت إلى هناك . نيران الردع أبلغ دليل على ذلك . يسمع نداء بوق مجهول يحمل شفرة 42 . يزار بيانثي :

— لا تثقوا، ربما كان نداء لكتيبة أخرى . فأولئك البواقون الملعونون هم هكذا .

لكنهم جميعاً يستترشدون باتجاه صوت البوق . قف . الآن لا محيد عن إيقافهم . تحدينا الطلقات التي تنقر الأرض أمامنا . نتبطح أرضاً مرة أخرى . فوقنا تقوم المدافع الرشاشة بمهامها . يقبل المغاربة في موجات طويلة، ويطلقون نيراناً منخفضة وكثيفة . تبحث فوهات الرشاشات عن كتلهم وتسقط عدة قنابل يدوية وسطهم فتترفع أودية وأشلاء . صوب اليسار، إلى جانب مريض لم نكن رأيناه، شتت المدفعية الخفيفة جماعة من الفرسان المغاربة كانت آتية ركضاً . وقائدنا — لا نرى الضباط — يحافظ على معنويات السرية بشجاعة هادئة على نحو زائف، غير طبيعية من فرط هدوئها .

يهجر المغاربة الميدان، المزروع بالقتلى، يجرون صوب المريض تتعقبهم نيراننا . لا يزال الانسحاب قائماً . جاوزنا برج المراقبة . امكثوا هناك أيها الغلمان . لو شعرتم بالملل سنحضر لكم مع أول دعم جراموفون وقردة . ليس لأحد أن يصدق اللامبالاة التي ننظر بها إلى الجنود فوق التل وهم

يدفنون أحياء وسط أكياس الرمل تلك. إن عبثية كل هذا لتجعل الجنود متشككين وقساء.

الانسحاب وعمر. تشتعل الجبهة جميعها صخباً. على جبهتنا تسيطر نيران المدافع الرشاشة. ورشاشات النظاميين تتحرك بلا توقف وتقاوم بجسارة خارقة، أحياناً على مسافة خمسة عشرة قدماً من المغاربة. الركض، الركض. لكن الطلقات أسرع. من أين خرج كل هؤلاء المغاربة؟ نتوقف من جديد. تمر وسطنا مجموعة التحام أخرى فارة هلك معظم أفرادها. إنها من نفس فرقتنا. بعيداً، يسمع البوق مسبقاً الآن ببدء الاستحضار العام. لا بد أن صفوف الفرقة انتهت من الانتظام الآن. ونحن هنا ساعة، ما يربو على الساعة، فيما نتوقف مدافعنا الرشاشة والترثيو، كما اعتادت، عن أداء مهامها في اللحظات العصيبة. رجل الفرقة الأجنبية، صاحب البقرة، يكابد أهوالاً في الإمساك بها. ثم تطلق مدافعنا نيرانها وتنقهر الترثيو نهائياً. نحن الآن في قلب الوادي، وسط السهل الذي يرتفع فيما بعد صوب الموقع الذي بدأنا منه الانتشار، والآن تصوب المدفعية قذائفها بدقة، لا بد أن برج المراقبة أرشدها. وحين نهم بالانسحاب تحت المدفعية تفاجئنا نيران مكثفة من أحد الجوانب. نشكل جبهة على قدر استطاعتنا، زحفاً. وبيانشي يختبئ، يلبث إلى جانب جثتين من 42. إحداهما جثة جندي "بدء النوبة" الذي من مقاطعتي والذي كان يربي قطة في قنذاسة. هو الآن منعزل عن بقية السرية، لا يرى أحداً، لكن رفقة الجثتين أنسته أنه انفصل عن السرية. انتهت ذخيرته، والبنوق حارقة. يستبدلها ببندقيتي الجنديين الميتين ويطلق ذخيرتهما أيضاً. أحياناً، يعتقد أنه أصاب أحداً لكن أغلب طلقاته تضيع هباء، سحابات طائشة. يقتل بغلين كانا "يستسلمان للمغاربة" بحمولتهما. متعباً، يتهاوى فيما بعد في وهدة. تمر أكثر من ساعة. والجنديان القتيلان لهما ذلك السمت المهدئ لقتلى الحرب. من خلال

الغبار والدم يمكن تقريباً ملاحظة توردهما. وفكرة "رحلة القنص" تعاوده. دم طازج من أجساد لم يقض عليها المرض.

النيران المنخفضة كثيفة للغاية حتى إن بيانثي لا يتمكن من الإطلال برأسه وينتظر مرور الوقت بلامبالاة بهيمية، بلا روية. ثم تصفر القنابل اليدوية وتنفجر في صخب دفين أو واضح حسب ارتشاقها في التراب أو فرقتها في الهواء، وأحياناً تكون قريبة إلى حد أن المظروف الفارغ يمر قريباً وهو يئز. "جندي النوبة" حرك رأسه، شظية سميكة مرشوقة في جبهته. وبيانثي يحمي رأسه بذراعيه وينكمش في القاع. عشر دقائق أخرى من القذف المكثف ثم تتباعد القنابل اليدوية في اتجاه العدو. هنالك صمت مباغت تحت الصخب البعيد الآن. صمت مميت. يطل: لا أحد في السهل. لابد أن الطابور بلغ الآن المرتفع الذي بلغه صباح اليوم، ومن هناك -ثلاثة كيلومترات؟ أربعة؟- لم تزل بطاريتا مدفعية تطلقان قذائفهما التي تمر عالية، طويلة جداً. يعود إلى الوهدة ويلتقط بندقيتين ويرفعهما إلى كتفه ويخرج. ثمة بعض قتلى مجتمعين، كأنما الموت فاجأهم وهم يتناجون. أصوات بشرية تزحف في السهل، ولكن: أهم جرحى أم ضباغ؟ مزيد من القتلى. جواد مبقور، وإلى جانبه مباشرة، صريعاً على الأرض وخده وسط بركة من الدم، الرائد أنسواجو. بيانثي ينحني وينهضه، جسده نحيف وصغير، لا يزن كثيراً. هل مات بالفعل؟ بغتة تداخله رهبة عظيمة. يرى أنسواجو مختلفاً، نفحه الموت نبلاً. ذلك الرائد الوقح، الدائم الشجار مع الجميع، لا يمت بآية صلة إلى هذا الرجل. وملامح الوجه النبيلة تشي

بأنسواجو الحقيقى، الذى أخفته التقاليد العسكرية وضرورات الانضباط. يحمله على ظهره، يحكم حمله جيداً ويواصل الجرى. فى منتصف الطريق يتوقف، يأتى عيار نارى من بعيد ويمر من أمامه. إلى أعلى، يرى بطاريات المدفعية الصامته الآن ومجموعات من الفرسان تذهب وتجيئ وتتوقف لتراقب السهل. مازالت هنالك مدافع ترعد ناحية البحر. وقول من الجرحى، الأخير، يتسلق منحدرًا صوب عربات الإسعاف. يعاود بيانثى التوقف، تنزف ركبتاه من ناحية الخارج. أأصابوه؟ يتابع الركض. بغتة، يكتشف أن الجروح يصيبه بها مهمازا أنسواجو مع حركة الساقين البندولية. يبطئ فى سيره، لكن اصطدام المهمازين لا مفر منه. وتسبب له ضربة مهمازا ألماً شديداً حتى إنه يكاد يخر على الأرض. يلعن ويلقي الجثة على الأرض ويستمر فى الجرى. يفكر بعد أن يعدل عن فكرته: "طبيعى، هكذا كان دائماً معى".

حين يرتقى المرتفع يسلم نفسه للرقيب لوكاس. يبدأ حلول الظلام. والطابور، المصطف الآن، يعود بخطوً مسرع. مدافع، فصائل، تشكيل حرب. قول طويل من الجرحى الذين يأخذون أماكنهم فى العربات ما إن نصل طريق السيارات، وقتلى مكومون أعلى، فوق "شبكة" العربة. يحل المساء والجيش يسرع الخطا. أوامر جديدة. جياد تمر فى الوسط وتجبرنا على إفساح الطريق لها، على متنها المساعدون والقادة. فجأة نترك طريق السيارات. يجن الليل. نتجه صوب ربوة رحيبة، واضحة المعالم. لا وقت هنالك لبلوغ أى معسكر. سنعسكر هناك. نسير بالخطوة السريعة. أصوات جرحى تستغيث من أعماق ظلمة الوهاد، تصرخ، تهدد، تئن، تستعطف أن نتوقف لإسعافها. لكن الأوامر قاطعة.

بعد إقامة المعسكر -ونصف الطابور يقوم بالحراسة-، يذهب بيانثى إلى الرقيب لوكاس، الذى يقف برفقة القائد. يسلم بندقيتين، راضياً. يدون

الرقيب رقميهما: 72340 و 8211 فيما بعد يبحث عن قائمة الأسلحة ويتصفحها ثم يسأل:

— وبندقيتك؟ أين بندقيتك؟

إنها هناك مع الجشتين. فقد بندقيته، ليس أقل من بندقيته. وإن هو أحضر بندقيتين أو مائتين لا يهم ليس لذلك أية علاقة بالواقعة الإجرامية المتمثلة في فقدته لسلحه هو. يسأل القائد:

— أهما على الأقل من بنادق السرية؟

يجيبه الرقيب بالنفى. والقائد، بإيماءة حاسمة، يقول لبيانثى دون أن ينظر إليه:

— حسن، اذهب. سنرى فيما بعد.

وحين يذهب يناديه:

— أنت الذى حملت الرائد؟

— أجل ياسيدى.

— وكيف لم تحضره إلى هنا؟

بيد أنه لا ينتظر حتى يجيبه، فيضيف، كئيباً، بحسّ محذر لطيف، مشيراً إليه بأن يذهب:

— يبدو لى أنك فى مازق.

فى المعسكر نتحدث ونحن نأكل أو نشرب الماء القليل الذى أحضرته عربات الماء. يرددون فى كل مكان: "أدخلنا القول". من بين المفقودين هنالك ذلك الصبى الذى كان يناقش حامل النقالة والذى كان بوسعه الانسحاب على قدميه لولا أنه فضل أن يحمله صديقه على النقالة. يقول بيانثى فى جمع من الجنود وهو يحكى لهم ما حدث لهم:

— اللعنة... لو أطالوا مدة خدمتى سأقتل نفسى برصاصة.

يأتى عريف العيادة ويضمده له ركبته ويحقنه حقنة سوداء فى بطنه.

عنبر المشاه نظيف، مريح تقريباً. ثمة عدد قليل جداً من الجنود. "تلامذة" فرقة البواقين يتلقون تدريبهم في ساحة كابيريريش. يحمل هواء سبتمبر الشمس نغماتهم البعيدة. اعتادوا أن يبعثوا الحياة في العنبر، فهم من يسكنونه زمناً أطول. منذ وقت الظهيرة والثكنة خاوية تقريباً: ذهب إلى المدينة من يعملون في المكاتب والقادة والضباط القليلون غالباً. موقع الحراسة بعيد. صمت شرقي ورطب وحرار ومتألق ينشر جناحه على الثكنة. والفناء يرتب ظلالاً مثلثة طويلة من العنابر بسلامها الأسمنتية، عباءات رهبان مديبة ترابية اللون وداكنة، الأفواه السوداء الهائلة مفتوحة دائماً.

أصعد إلى عنبر المشاة مرة أخرى، لأن السكون المميت في الخارج يثيرني. أسرة غير مرتبة بعضها فوق بعض، مغطاة ببطاطين، مصطفة في صرامة. جندي يكتب واقفاً، وآخر يخيط سترته. يرقد جنديان في نهاية العنبر وعلى وجه كل منهما منشفة، وهناك إلى اليسار، جالساً على ألواح السرير العالية، الجندي المذهول المعتاد. عاد مع أسرى آخرين منذ ثمانية أيام أو عشرة وأعطوه طاقماً كاملاً من الملابس: سترة من الجوخ وسراويل جديدة وطاقية ميدان بلون الجلد الطبيعي. تعزز الطاقية المصقولة الملونة البياض المميت، المتورم والمنتفخ، لوجه خال من التعبير. والسترة مفرطة في حجمها وبها طويات متيبسة فوق صدره الغائر كأنه دمية. والسراويل بلا طماق أشبه بأنبوب أخضر مرتفع فوق الكاحلين المتورمين وحذاء الميدان

المفتوح لغياب رباطه والذي يظهر أيضا مشط القدم الملتهب . وهو جالس هكذا، وفي حجره طبق من الصفيح وفي الطبق نصف رغيف من الخبز . ينظر إلى نقطة غير محددة في الهواء، وكثيراً، كل دقيقتين أو ثلاث، ما يسعل دون أن يفتح فمه، من بين أسنانه . في البداية كان الآخرون يتحدثون إليه، ولكن، نظراً إلى أنه كان يجيبهم فقط بنعم أو لا دون أن ينتهي خيط الكلمة إلى الاتصال بالنظرة أو الإيماءة، راحوا يتناوون عنه . وهكذا يلبث ساعات وساعات . يقولون إنه ينتظر جواز السفر ليذهب إلى إسبانيا في إجازة .

لحظة واحدة فقط تنعشه : توزيع الوجبة . ما إن يسمع صوت البوق يركض ليكون أول الصف، وإذا كان ثمة زحام لا يزاحم أو يحتج، يقف في المكان الذي يترك له ويملا طبقه الجديد وطبقاً آخر قديماً وبقايا معلبة ثم يأكل فقط ملعقتين بسمت غير مكترث . "ثمانية عشر شهراً أسيراً - يقول أحدهم - وحسبما قال الرقيب مازال يفكر في الشفاء في قريته" .

من آخر العنبر يظهر كائن مسلول لكنه متوقد . تتبعه ستة كلاب قبيحة من سلالة غير معروفة، ترفض أن تفارقه لحظة . أطلق عياراً نارياً على كف يده اليمنى ومنتظر نتيجة التحقيق، العقوبة أو الإعفاء من الخدمة، حسبما تكتشف الحيلة . علاج اليد كان نسبياً لأن "أصابعي بقيت مطوية ولا أستطيع بسطها" . نتحدث . حينئذ تجلس الكلاب الستة في شبه دائرة وتنتظر وهي تنظر إلى وجهه . يقول في رضى زئخ :
- انظر إليها حضرتك، فيما عدا الكلام هي كالأشخاص .

محتال، تارة خفيف الظل وتارة مثير للغثيان . يقول للضباط إنه يصلى الصلاة المقدسة أيام السبت فى دوكر مع ابنة عمه الراهبة وبهذه الذريعة يتركونه يخرج . لكنه فى الحقيقة يذهب بحثاً عن رواتب كتائب الاستطلاع ويستولى على أموالهم بورق لعب نقشته عليه زهور . يقول بإيماءة عذبة يعرفها من يعرف حيله :

— الله حكم عدل، فكما أنه وهب آخرين القوة وضخامة الجسد وهبنى مهارة اليد القليلة هذه لكى ابحت عن رزقى .

إلى جانبنا، يستدبرنا، ينحني جندى فوق سريره ويخيط، بمعزل عن الجميع . دون أن يلتفت، يطلب من الجندى المحتال خيطاً باللون الكاكي . أنا أعرف الصوت : "ماهذا يا بيانثى؟" .

أصبح ضامراً، شديد الشحوب، بسبب ذلك النوع من الشتات الذى يمحو الملامح، قسمات الوجه . يلبس سترة كانت يوماً لضابط لكنها فقدت لونها ألف مرة تحت الشمس وبفعل الغسيل المتكرر بالصابون والماء الحارق لقتل البق . ومع ذلك، تبدو كأنها صنعت من أجله، لكن أتاقتها العذبة لا تناسبه وتنفع بيانثى هيئة مخنث هزلية . هو يعتقد نفسه أنيقاً . يضحك دون أن يتكلم، دون أن يباغت . أكرر سؤالى :

— ماذا تفعل هنا؟

— كما ترى . انتهت خدمتى العسكرية —يزداد شحوبه، يدها ترتعدان . — متى ؟

— نرحل هذا المساء، حوالى ثلاثين جندياً . منذ بدأ الحديث أراه وجلاً؛ لكنها حيرة داخلية، ليس حياء . لو أننى ربت على ظهره وقلت له بضع كلمات لأشجعه وأسرى عنه ربما أجهد بالبكاء . ماذا جرى لهذا الفتى؟ يتكلم باقتضاب شديد ولا يسهب . فضلاً عن أنه كان يثق بى دائماً .

- لم أكن أعرف إلى أين أذهب فى الحقيقة. قال لى الرقيب إن على أن أعطيهم عنوانى كى يسجلوه فى جواز السفر. إلى أين؟ كيف لى أن أعرف؟ كيف يبدو ذلك الأمر؟ إلى أين بوسعى أن أذهب؟ قلت له أن يكتب عنوان قرىتى، وهامهم أعطونى الأوراق وسبع بزيئات. إلى القرية إذن!

-أأنت سعيد؟

لم يعد ينتظره أى شئ مما تركه هناك، فكم تبدل كل شئ! تنتظره سلسلة من الأشياء المنفصلة عن حياته وهو ذاهب إليها بإحساس مبهم.
- أنا سعيد كما لو أننى أنهيت خدمتى العسكرية.

- ولكن، ألم تنهها بالفعل؟

- لم ينه خدمته العسكرية أى من جاء إلى هنا، ولا أنا. فمن يات يبق هنا، ثم يشحنون إلى إسبانيا دمية، شخصاً ممتصاً، بلا عصارة.
الجندي صاحب الكلاب يركل ألواح الأرضية بقدمه، تنبح الحيوانات الستة، ويقول ولا أحد يعرف أفى جد أم فى هزل:

- اللعنة، أنا أيضاً كنت أفكر فى ذلك!

-ألديك خيط كاكي؟ -يصر بيانثى على سؤاله..

ثم يحكى أنهم عاقبوه بتمديد خدمته العسكرية على مسألة البندقيتين ولأنه نفى الجثة عن كاهله. إذ إنهم أصرروا على أن الرائد كان حياً.

- إذا كان حياً لم لم ينتشلوه هم؟

يدخل الخيط فى الإبرة. يسعل الأسير السابق فى ركنه، بلا حراك، بحشجة ربوية. يلتقط بيانثى من فوق السرير قطعة قماش خضراء ويعاود الخياطة.

مضى عام منذ أن اختصني بنجاواه. معنوياً وجسدياً بيانثى أصبح

"روتينا"، على الرغم من أنه مازال يحفظ توازنه، مازال يقف على قدميه.
— ماذا تخطط؟

عثر في مقلب القمامة على ميدالية نحاسية، وكان يبحث عن زر.
وسام بلا أية قيمة، يعطى لكل من يطلبه. رغم أنها سجلت وديست
بالأقدام، كانت شديدة النظافة، وبعد بعض اللعب والحك أصبحت على ما
يرام. والآن يشبك في العروة قطعة قماش خضراء.

— إذا رحلت خالي الوفاض يبدو كأنك كنت قليل الشأن.
يسود صمت فيما يخطط هو بمهارة خرقاء. المساء عذب. يأتي من
أسفل، من المدينة، صوت صافرة لا يهدأ. يرفع بيانثي رأسه ويصغى، فيما
يزداد شحوبه:

— إنه قطار دراوشة.
— كلا، إنها قطارات سان خوان دي لاس ميناس تحمل الحديد إلى
الميناء.
يتحدث دون أن يسمع كلماته. الميدالية أصبحت جاهزة. يضعها في
صدره.

— كلا، يارجل. على الجانب الآخر.
ثم يخرج إلى الفناء. قبل ذلك، أعانقه وأعطيه عنواني "المدني" لعلني
"يوماً ما أستطيع أن أمد له يد المساعدة". أدخل حجرة ضباط الصف.
تحدوني رغبة في القراءة: لكن قدمي تحملانني إلى النافذة المطلة على
الفناء. يهبط بيانثي، يلتفت ليراني متيقناً من أنني أقف وراء النافذة. عدد
من الجنود يصطفون في بهجة وسط الفناء صائحين. عريف أول ينظمهم.
للكنة صمت أشد كثافة، وحميمية ما بهيجة رغم كل شيء. والفراغات
الرحيبة التي تخلفها فيما بينها العنابر تكتسي زرقة في السماء البعيدة وفي
البحر. يراهم أحد جنود الحراسة مصطفين ويناجي نفسه في صبر نافذ:

— آه، يا الله، فليرحلوا مرة واحدة!
ينضم إلى الصف. يخرج رقيب مسرعاً وهو يحكم أزرار سترته وقبل
أن يصل يصدر الأمر:

— انتباه! في أربعة قطارات إلى اليمين... للأمام! طابور رحلة!
صراخ، هتاف، عبارات وداع صاخبة. يسقط جندي، وآخر
معه، ضاحكاً:

— ليس هذا من شرب الماء!
شرباً خمرأ؟ يذهب إليهما الرقيب. أحد الجنديين لا يزال راقداً على
الأرض؛ ينهض فيما بعد. يسمع من جديد صافرة قطارات المناجم والضابط
المنوب يطل في ضجر.

أربعة أيام وثلاث ليال في السفر . الطبيعة باردة ومحددة وخالية من التعبير، وفي الليل : إسبانيا سوداء ومجردة وغير مسؤولة في عتمة شرفة القطار .

دخل بيانثي من مالقة البيضاء والزرقاء . كل متاعه، علبتا تبغ، صودر في الجمر . قبل أن يستقل الخط الرئيسي، كانت القطارات قديمة وبائسة والعربات تغلى تحت شمس حارقة من العفونة . وكانت رُكب المسافرين يصطدم بعضها ببعض، فقد كانوا متلاصقين إلى حد كبير وكانت مسألة أن يديم بعضهم النظر إلى بعض عن مثل ذلك القرب في غاية الغباء .

سأله شخص هل ذلك الوسام بمعاش استثنائي . وبيانثي كذب، قال : نعم، فراح رجل من إقليم قطلونيا يشرح أن مثل تلك "الخردة" تكلف ممولى الضرائب غالياً . في خط القطار الرئيسي العربات مكتظة . اعتياد النظام وحده خفف قليلا من وطأتها .

أخيراً، وحيداً في عربة أحد خطوط القطار الفرعية كان يحمله إلى المحطة الأخيرة، وهو ينظر إلى السهل الجاف والداكن، استعاد وعيه بنفسه . لا أحد ينتظرني، هذه ليست الأرض التي كنت أتذكرها، التي خلفتها ورائي . كل شئ غريب . ومع ذلك أتعجل الوصول ولا تثيرني فكرة أنني اقتربت . تحدوه رغبة في بلوغ طريق السيارات في الحال، أن يسير عشرين كيلومترا من الطريق الريفى الوعر والعقيم ليبحث، خلف منعطف، عن قرية، أوربييس، التي لا يعرف حتى الآن ماذا هو فاعل فيها أو كيف سيستأنف حياته . . .

يستوى الأمر. لقد ارتحل إلى كافة أرجاء إسبانيا. رأى سهولاً وجبالاً، كما في أفريقيا، ومزارعين متغطرسين ومتجهمين كالمغاربة. لا فرق هنالك، هنا كهناك، ولكن لم يكن الرجال هنا يمثل هذا الخضوع؟ أيكفى مضيق جبل طارق، "قناة" ماء، كي يتبدلوا على هذا النحو؟ تخميناته مبهمة. صراع تاريخي: القوطي ضد الأفريقي. أرستقراطية الشمال تتآمر مع اليهود في مزيج من الكاثوليكية ضد الأخ الأفريقي، توأم الإسباني البدائي والأخ الأكبر للإسباني الحديث الحقيقي. حالة إسبانيا هي نفس حالة المغرب. فالأرستقراطية "تستغل" المغاربة سعياً وراء الألقاب النبيلة، وفي إسبانيا تستغل الإسبان وتبحث عن سندات الدين طبقاً للبربر الحقيقيين في الشمال. بسبب جهله يضل عقله في متاهات. ويرى في النهاية أن كل شيء في هذه العودة إلى إسبانيا له شكل جديد تماماً وكثير.

حين رحل إلى المغرب كان كل شيء جد مختلف. كانت لديه حمية الشباب، ضمير متفائل. كان مبعث فرحه العجائز اللائي كن يبكين في محطة القطار وهن يودعن أبناءهن أو أحفادهن. القطار العسكري بلا نظام ومبهج. سرق أكواباً وزجاجات في المحطات كي يرمى بها فيما بعد حراس المزلقات. دخان المداخن في الريف كان يشي بالصحة والحياة المنزلية المريحة والأمنة. كانت هنالك قوة متجددة في طرقعات القطار، في الجسور الفولاذية التي يخلفها وراءه وسط الهمهمات، في الأغنية وفي قرية النبيذ. كان ذاهباً إلى الحرب بكلمات لها وقع ملحمة "السيد" وعلى رصيف المحطة رهط من العجائز المتجهمين يقولون أن يظهر سخريته:

— إلى المغربي، يا فتى، إلى المغربي!

سرق من إحدى الحانات كرسياً ولاقى نجاحاً كبيراً في عربة القطار. سرق آخر مبلولة ولبسها في رأسه كأنها خوذة هزلية. كل شيء كان بهجة، طمانينة، ثقة بالنفس وبالغد، أما اليوم...

يتوقف القطار. محطة صغيرة. دجاج على الرصيف، أصص الخبز في الشرفة. يودع مزارع زوجته ويصعد في رشاقة مغامر. من عربة متهالكة إلى جانب الطريق يقترب عامل يومية يجرر طرف سوط.

— عد في الحال وفي تمام الصحة ، فهذا هو المهم.

يلاحظ في عين المرأة شرود شهواني. ها هو الذكر راحلاً. وبيانثي يتأملها. يقلع القطار. تصرخ المرأة بعبارات وداع على نحو صرعى تقريباً، يجلس المزارع ويقول برضا:

— النساء...!

يتوقع بيانثي أن تستسلم الزوجة لعامل اليومية صاحب السوط بذات اللحظ الشهواني. يبدو له المزارع رجلاً سليم الطوية فهو لا يرى في النساء سوى الرذيلة والشر، ويرى في الرجال جبناً وغباء مؤذيين. ومع ذلك هم وهن في نفس الوقت — وهذا هو الرهيب — يحيون ويتحركون في مستوى أعلى وثابت وتصاعدي وآمن.

يبسط المزارع ورقة ويخرج عجة في رغيف خبز ويشطره نصفين ويقدم نصفاً له في هدوء. مذهولاً، يتردد بيانثي. تستريح عينا المزارع الحازمتين على عيني بيانثي في دعة:

— كل حضرتك في سلام، وفيما بعد سأعطيك جرعة من القرية.

يقبل بيانثي بلا امتنان، بتأن حذر. يسأله الآخر:

— كم مكثت في المغرب؟

— انتهيت لتوى من الخدمة العسكرية!

- ثلاث سنوات؟
يجيبه بنعم. لا يجرؤ على الاعتراف بعقوبات تمديد الخدمة، لأنها دليل
على سوء السلوك.
- لدى ولدان.
- ولدان. إذا كان لديك ولدان فحاول ألا يذهبا إلى الحرب.
- ماذا بوسع المرء أن يفعل حيال ذلك. - يجيبه بسمت متشكك.
- اقتلها!
يفاجأ المزارع بشدة ويستدرك بيانثى وقد احمر خجلاً:
- أو أرسلهما إلى أمريكا.
لم يزل الريف يطل على جانبي القطار داخل إطار شرفاته. أسطوانتا
جرامفون عظيمتا الحجم، إحداهما عليها أغنية شعبية من إقليم أراجون
وعلى الأخرى خوار طويل وبطيء. يطل المزارع برقبته نحو الخارج:
- انظر حضرتك إلى قناة "لاس بارديناس".
- وهل وصلت أعمال الحفر حتى هنا؟
- وإذا وصلت إلى الأمام ستري أكثر بكثير!
لقد انفقوا عدة مئات من ملايين البزيتات منذ شهر مارس، ينفقون
على كافة الأعمال مليوناً يومياً.
يعب بيانثى من قرية النبيذ. نبيذ متدفق وخشن وقوى، يبدو أنه يبلغ
العروق وهو يفور. طنين بعيد وحاد. رغبة في الكلام، تشاغل في اللسان
وحيرة حول موضع استقرار النظر. تنزلق ذبابة على الزجاج وهي تضرب
بأجنحتها. يسحقها بيانثى بيده، ينفجر في الضحك ويمسح يده في
سرواله. ينظر المزارع في اتجاه آخر ويعض نواجذه. القرية مازالت على
حالتها، مصقولة ومتخمة. لكن بيانثى ثمل.

يهبط. وبعد أن أصبح على رصيف المحطة، يتوقف لحظة. يعكس زجاج أحد الأبواب سترته المجسمة، سترة ضابط غسلت وخيطة وانكملت فوق سرواله القذر. عاملة المحطة تنظر إليه وهلة في غرابة، تدعو أخرى وتنفجران في الضحك. يجفل بيانثى، ود لو قال لهما عبارة لطيفة ولكنه يطلق كلمة بذئبة. غريزة الانتقام تقهر الرغبة في التهذيب. ينتابهما ضيق ويسمع بيانثى سبابهما بعد أن بلغ الطريق مستديراً محطة القطار.

الريف، الطبيعة، ليسا كما تصورهما في المغرب. لا فارق كبير بين ذلك الريف وهذا. عشب، زعتر، أرض بنية اللون، بيضاء، ضاربة إلى الحمرة أحياناً. غربان كالتى هناك. كان يأمل أن تخاطب هذه الأرض قلبه. فى دهشته المحيرة هنالك بؤرة جاذبية. يعلم إلى أين يذهب لأول مرة بعد زمن طويل. له وجهة، اتجاه. هو ذاهب إلى قريته، إلى المرباض التى شهدت طفولته، المنزل العتيق، الحقول التى زرعها والده، نفس الجبانة الصغيرة: حوش ليس أكبر من الأحواش الأخرى، ببابه الخشبي المشقق وفوقه الصليب الصغير. والطريق لا يعنى شيئاً، ينبغى أن يقطعه دون أن يتعرفه، دون رغبة أيضاً فى فهم عذوبته أو خشونته. السير، السير فى اتجاه القرية. هناك سيكفيه أن يصغى إلى العصافير فوق أسطح القرميد وأن يرى هواء مميزاً يرسم كل شارع ويؤطره.

من جديد يبسط نظرتة على ما حوله. هناك إلى أعلى، توجد القلعة. لها مظهر موحش وبارد. وسط أطلالها فى زمن آخر، كان بيانثى يكمن للطيور الجارحة. إلى أسفل قليلاً، فى مستودع قمامة بيكار - القرية المجاورة لقريته - اعتاد أن ينتظرها مختبئاً ومعه الطعم من اللحم وجرس وطوق من

الجلد . وحين يقترب أى نسر بما فيه الكفاية كان ينقض عليه . فالنسر
تحتاج إلى حوالى عشرة أمتار لكى تستطيع التحليق، فى أثناء ذلك كان
يمسك بها ويصارعها وحين يتمكن من تعليق الجرس فى عنق النسر
يطلقه . فيما بعد، فى ميدان القرية، حين يرى الناس نساً يسبح فى الزرقة
ويسمعون صوت الجرس، كان بيانثى يستقبل المجد فى حماس الصبية
الآخرين وفى استحسان الرجال المبتهجين .

هذه الذكرى تقع الآن خارجه، كأنها تخص شخصاً جد مختلف عنه .
يغز الخطأ . يفكر: "شئ لا يصدق . يعتقد المرء أنه سيجن حين تحين اللحظة،
ثم يتم كل شئ على نحو أخرق والأشياء الهامة تصبح بلا معنى" . يغز
الخطأ على نحو أشد . على غير وعى منه ينتظم خطاه إيقاع عسكرى وفى
مسامعه يتردد صدى نفيير .

يجلس منزعجاً، على حافة الطريق، وينظر بحنق فى كلا الاتجاهين .
الجبيل، الوادى، السماء، الشجر، الطير، كلّ منصرف إلى ما يخصه فى برود
محنق . أمر طبيعى فى الحقيقة . هو أيضاً كان سينصرف إلى ما يخصه، لولا
أنه الآن لم يعد يدرك ما هذا الذى يخصه ولا أية أولوية خاصة للأشياء
عنده . ذلك الرجل الذى يقترب منه بهذا السميت الواثق وغير المكتثر هو
بلا ريب رجل بائس . يجوع وسط الجوع ويواجه البرد والحرق فى العراء؛
زوجته تحتقره؛ أسياده يعاملونه كحيوان بائس؛ ويوماً ما سيشقون جسده
ويرشقونه فى واحد من أعمدة التلغراف، كما كانوا يفعلون فى المغرب . هو
هدين والغربان ستجد فى أحشائه غذاء أوفر مما وجدته فى أجساد أولئك
التعساء الذين سقطوا عند مدخل برج المراقبة فى درواشة . ومع ذلك،
يسعى، يكافح، يعمل :

— فى رعاية الله ! أمعك سيجارة؟ — يقولها فى نبرة مستجد لا ريب
فيها .

يقيسه الغريب بعينه ويواصل طريقه، تاركاً وراءه كلماته :
- لا أدخن .

... بل إن لديه نحواً من الخلاء الاجتماعية، نحواً من الرضا كرجل جاد . في الحقيقة، هو يعتبر نفسه "شخصاً مهماً" . "شخص مهم" ، يردد ضاحكاً . ينهض ويواصل طريقه . كيلومتراً فآخر، آلياً، ثم يتوقف فجأة :
- "من أنا؟ أين أنا؟ لأن أى شئ من هذا ليس أرضي . أنا أجنبي؟"
تقترب سيارة مسرعة وتتوقف إلى جانبه . شخص ما يناديه فيؤدى التحية العسكرية . يسأله السائق هل قطع شوطاً كبيراً فى طريقه إلى أثوارا؟
وبياثى يجيبه :

- أجل، ياسيدى ! عند المنعطف ستظهر بيكار : بعدها خذ طريقاً قبل أن تصل إلى أوربييس، قرىتى ثم واصل طريقك حتى أثوارا، ثالث قرية .
- أنت ذاهب إلى هناك؟

- أجل يا سيدى، إلى أوربييس .
يخبره أحد الركاب أن بوسعه الصعود وإرشاد السائق إلى الطريق .
يسأله السائق :

- أنت فى إجازة؟
- كلا ياسيدى . أنا عائد من المغرب .
- إذن، لابد أنك محمل بالقمل .
لكن بياثى يريد أن يوضح :
- لكننى يا رجل... !
لكن السائق لا يسمعه . يقول لمن بالداخل :
- أنا أعرف الطريق ياسيدى؛ لا داعى لذلك . - ثم ينطلق .

مع حلول الظلام، يصل إلى مفترق طريقين فرعيين، بعد أن ترك طريق السيارات. مائة خطوة أخرى وتظهر مشارف الوادي، برج الأجراس. هناك كومة الحجارة التي يقولون إن قاطع طريق مدفون تحتها. مازالوا يحافظون على العادة الرومانية، وكل من يمز يرميه بحجر. يركض بيانثي وبقفزتين يقطع آخر مسافة ويطل أخيراً على الوادي بصبر نافذ. أسفل، هنالك بحيرة ساكنة، قدرة، تتلألأ تحت الضوء الأخير. والقرية؟ يعاود النظر حوله. الانطباع بالغ في شدته حتى إنه يمسى لامبالاة. قريته هناك، تحت تلك المياه الساكنة. وحين يتناهى إلى سمعه من أعلى صرير الشاحنات يتأكد من الفضيحة. نزعوا ملكية القرية لتتلاشى تحت أحد خزانات مشروع الري. أوريبيس اختفت.

منزله، الأديم الذي وطأه آباؤه، كل شيء الآن طمس، طين، أعشاب. سرقوا قريته. وتلك الذكريات الحية التي كانت تهيم في كل ركن، في بحر الميدان، في الدير، والتي كانت نقطة انطلاق حياته كلها، اختفت الآن وإلى الأبد.

هاجس يجعله يهبط حتى الماء، ثم يتوقف بغتة إلى جانب سيل من "المونة" يهبط لا أحد يعلم من أين، فيصرخ صوت من أعلى:

— إيه، أيها المعتوه!

تطل شاحنات. يصعد بيانثي مترعاً بفضول يائس. أعلى، يكبح جماحه فضول العمال الوقح. يسأله أحدهم وهو يعضن عقب سيجارة:

— إلى أين كنت ذاهباً؟

— إلى هناك، إلى قريتي!

— إلى قريتك؟

— نعم، إلى أوربييس .

— أتجيد السباحة ؟

يضج الآخرون بالضحك :

— فالمياه تعلوها بحوالى خمسة عشر مترا على الأقل، أنسيت هناك

شيئا؟

يعاودون الضحك . والآن يضحك بيانثى أيضا؛ لكن ضحكته تشير

أسى الذى يتحكم فى قافلة العربات الذى يفسر له :

— يغطي خزان أوربييس كل المنخفض ويمتد إلى مايربو على عشرة

كيلومترات إلى اليسار، هناك، يوجد السد الرئيسى . وبما أنهم سدوا بعض

الوهاد وشقوا منخفضات أخذت المياه تتجمع هناك، لكن هذا ليس كل

شئ . أهل القرية ذهبوا للعمل فى برشلونة . بعضهم مكث للعمل فى

المشروع، أليس كذلك؟

— بلى، لكنهم فى تورموس . عائلتان، على حد اعتقادى، تعملان فى

لابيولادا . إذا كنت تود الذهاب إلى هناك، إلى أوربييس، بوسعك صعود

أية عربة .

— إلى أوربييس؟ — يصر بيانثى حائراً .

— دفاتر البلدية وكل ما يخص القرية انتقل إلى القرية العمالية فى هذه

المنطقة، التى يمكن اعتبارها أوربييس نفسها، بل ربما كانت أفضل من

أوربييس، لأن القرية الجديدة بها مقهى به فرقة غنائية ويمكنك تناول شراب

فاتح للشهية وكل شئ .

عنابر كبيرة من الخشب والآجر يتكدس فيها العمال مثل الجنود في
الثكنات. بين الحين والحين، عنابر بسلاالم ناتئة من الفولاذ. كل شيء
عارض، بارد، بلا شخصية.

— أهذه أوربييس؟ — يسأل بيانثي بضحكة ذاهلة.

تقترب جماعة من العمال الشباب. وبيانثي — الأشد إثارة للأسى في
ملبسه، السترة القصيرة كسترة امرأة تقريباً — يتوقف. يغنون هنا وهناك،
والشباب الصغير تحدوه رغبة في الشجار. يصرخ أحدهم:

— يحيا الجيش!

فيما يصيح آخر في صوت رخيم:

— الجيش لا! الميليشيا، السيدة ميليشيا!

بيانثي ينتفض:

— من ابن ال... الذي...؟

يتقدم أحدهم:

— أنا، ماذا تريد؟

يشد الانتباه إليه، وينتظر الجميع رد فعل بيانثي، وحين يرون تردده
يصنفونه فشلاً حاسماً. ود بيانثي الاحتجاج لكن صوته لا يخرج من
حنجرته، وهو نفسه أول من يلاحظ بؤسه الجسدي ونقصه. إلى جانب
هؤلاء الشباب المفتولي العضلات، هو عجوز مريض وغير نافع. يفكر: "ما
الهدف؟" كل شيء بعيد وغريب عنه حتى إنه لمن الغباء أن يتشاجر مع
أحد. "بأي هدف؟". مازال متردداً، حائراً. يقول أحدهم في ثققل:

— لا تبك يارجل! هيا نتناول كاساً!

يضحك الآخرون. وبيانثي يسلم نفسه ويذهب معهم إلى الحانة.
أحدهم ينكس قبعته بضربة كف، وآخر ينزع وسامه: وبيانثي يعتقد أنه
سقط، يشرع في البحث عنه. يشعل ثقاباً ويحرق أنامله ويتحسس في

الظلام الأرض بيديه . تحدث جلبة عظيمة : لكزات ، ضحكات ، سباب .
و حين ينتبه بيانثى يكون فى المقهى . العنبر يمتلى عن آخره بالعمال . فى
أحد الأركان يرتفع مسرح خشبى حتى مستوى المناضد . فى خلفية المسرح
مفرش سرير منقوش عليه أغصان باللونين الأصفر والأخضر . بين حين وحين
تظهر من ورائه امرأة - بقميصها الأحمر وأنفها المتسلخ من "الهريس" -
فتتلوى على نحو أخرق يصاحبها عجز يخط على البيانو . يحمل الزبائن
فى ملابسهم جيلاً وطيناً فى أيديهم ووجوههم .

يمر بيانثى دون أن ينظر إلى أحد . يشعر بالدوار من شدة فضوله بما
يجرى فى المقهى ، فيتعرض لسخرية لاذعة . له ؟ وحين ألقى نفسه وحيداً
جالساً إلى منضدة بعيدة أحس بالارتياح . إلى جانب المسرح الخشبى لبث
الشباب الصغير بأعين شبة . لا يكاد يستطيع التفكير فى الأحداث الأخيرة
. بين مزق من الموسيقى وعواء المغنية يمسك بخيط حيرته : "قريته ، أوربيس ،
ماتت تحت الخزان ، قبور آبائه مقبورة بدورها تحت المياه القذرة : كل شئ
انمحي ، تلاشى إلى الأبد " . من قبل ، حتى فى أحلك لحظات الحملة ، كان
لديه أساس معنوى راسخ : طفولته ، قريته ، حقول الأسرة ، الشوارع ، أطفال
الأمس وقد أصبحوا رجالاً . والآن يعتقد أنه يسير فوق الضباب ، فى الهواء .
تبدأ حياته فى اللانهاى ، بلا أساس ، ولا مكان لتقديمه كى ينطلق .

معه سبعون سنتيماً . والعمل ؟ أسيكون من اليسير الحصول على عمل
هنا ؟ على المنضدة الأخرى يجيبه مصادفة ما يؤكد مزارع :
- لا يريدون أى عمال ، ثمة فائض عمالة فى كل مكان ، وهم يقبلون
فقط من لديه بغل أو عربة على الأقل .

يعلق بيانثى نظرة كلب فى اللمبات الثلاث المضيئة والملفوفة فى شاش
أزرق . يشعر بأنه معلق فى الهواء ، كالمشقوق ، والجبل هو السر الذى
يحتفظ به فى أعماق مقلتيه ، سر يرفعه فوق الآخرين ؛ غير أنه يرفعه - آه -

من رقبتة . الحياة، الحب، النجاح؟ هذا السر اجثت جذور كافة محفزاته،
وأطل به على الاستسلام القدرى الأعظم الذى يحكم الحياة فى الكواكب
الخاوية، الكواكب الميتة.

تظهر الآن المغنية وهى تنشد أغنية "صليب الاستحقاق"، كوبليه
وطنى شهير يتحدث عن الجندى الضير تحتضنه ذراعا خطيبته. تحمل
المغنية فوق نهدها الأيسر ميدالية بيانثى مشبوكة فى قميصها. وحين تقلد
الخطوة العسكرية باهتزازات مبالغ فيها تهتز الميدالية فى توقيع. يقول
مذهب الأغنية:

قلوب النساء
وأبواق الشهرة
حين تنظر مرور الجنود
تردد دائما: "تحيا إسبانيا"

تردد ثلاث مرات بتنغيمات من الفلامنكو، وهى تهز رديها، عبارة:
"تحيا إسبانيا".

المشروع القومى للترجمة

- | | | |
|--|-------------------------------|---|
| ١- اللغة العليا (طبعة ثانية) | جون كوين | ت : أحمد درويش |
| ٢- الوثنية والإسلام | ك. مدهو بانيكار | ت : أحمد فؤاد بابع |
| ٣- التراث المسروق | جورج جيمس | ت : شوقي جلال |
| ٤- كيف تتم كتابة السيناريو | انجا كاريستكوفا | ت : أحمد الحضري |
| ٥- ثريا في غيبوبة | إسماعيل فصيح | ت : محمد علاء الدين منصور |
| ٦- اتجاهات البحث اللساني | ميلكا إفيثش | ت : سعد مصلوح / وفاء كامل فايد |
| ٧- العلوم الإنسانية والفلسفة | لوسيان غولدمان | ت : يوسف الأنطكي |
| ٨- مشعلو الحرائق | ماكس فريش | ت : مصطفى ماهر |
| ٩- التغيرات البيئية | أندرو س. جودي | ت : محمود محمد عاشور |
| ١٠- خطاب الحكاية | جيرار جينيت | ت : محمد معصم وعبد الجليل الأندى وعمر حلى |
| ١١- مختارات | فيسرافا شيمبوريسكا | ت : هناء عبد الفتاح |
| ١٢- طريق الحرير | ديفيد براونيستون وايرين فرانك | ت : أحمد محمود |
| ١٣- ديانة الساميين | روبرتسن سميث | ت : عبد الوهاب طوب |
| ١٤- التحليل النفسي والأدب | جان بيلمان نويل | ت : حسن المودن |
| ١٥- الحركات الفنية | إنوارد اويس سميث | ت : أشرف رفيق عطيفي |
| ١٦- إثنية السوداء | مارتن برنال | ت : يشارف أحمد عثمان |
| ١٧- مختارات | فيليب لاركين | ت : محمد مصطفى بدوي |
| ١٨- الشعر النسائي في أمريكا اللاتينية | مختارات | ت : طلعت شاهين |
| ١٩- الأعمال الشعرية الكاملة | جورج سنيريس | ت : نعيم عطية |
| ٢٠- قصة العلم | ج. ج. كراوثر | ت : يمني طريف الخولي / بدوي عبد الفتاح |
| ٢١- خوخة وألف خوخة | سعد بهرنجي | ت : ماجدة العناني |
| ٢٢- مذكرات رجالة من المصريين | جون أنتيس | ت : سيد أحمد على الناصري |
| ٢٣- تجلى الجميل | هانز جيورج جادامر | ت : سعيد توفيق |
| ٢٤- ظلال المستقبل | باتريك بارنر | ت : بكر عباس |
| ٢٥- مثوى | مولانا جلال الدين الرومي | ت : إبراهيم السوقي شتا |
| ٢٦- دين مصر العام | محمد حسين هيكل | ت : أحمد محمد حسين هيكل |
| ٢٧- التنوع البشري الخلق | مقالات | ت : نخبه |
| ٢٨- رسالة في التسامح | جون لوك | ت : منى أبو سنه |
| ٢٩- الموت والوجود | جيمس ب. كارس | ت : بدر الدين |
| ٣٠- الوثنية والإسلام (٢ط) | ك. مدهو بانيكار | ت : أحمد فؤاد بابع |
| ٣١- مصادر دراسة التاريخ الإسلامى | جان سوفاجيه - كلود كاين | ت : عبد الستار الطرجي / عبد الوهاب طوب |
| ٣٢- الانقراض | ديفيد روس | ت : مصطفى إبراهيم فهني |
| ٣٣- التاريخ الاقتصادي لإفريقيا الغربية | أ. ج. هوبكنز | ت : أحمد فؤاد بابع |
| ٣٤- الرواية العربية | روجر آلن | ت : حصة إبراهيم المنيف |
| ٣٥- الأسطورة والحدائق | بول . ب . بيكسون | ت : خليل كلفت |

- ٣٦- نظريات السرد الحديثة
٣٧- واحة سيرة وموسيقاها
٣٨- نقد الحداثة
٣٩- الإغريق والحسد
٤٠- قصائد حب
٤١- ما بعد المركزية الأوربية
٤٢- عالم ماك
٤٣- الذهب المزوج
٤٤- بعد عدة أصياف
٤٥- التراث المفقود
٤٦- عشرون قصيدة حب
٤٧- تاريخ النقد الأدبي الحديث (١)
٤٨- حضارة مصر الفرعونية
٤٩- الإسلام في البلقان
٥٠- ألف ليلة وليلة أو القول الأسير
٥١- مسار الرواية الإسبانية الأمريكية
٥٢- العلاج النفسي التكميلي
٥٣- الدراما والتعليم
٥٤- المفهوم الإغريقي للمسرح
٥٥- ما وراء العلم
٥٦- الأعمال الشعرية الكاملة (١)
٥٧- الأعمال الشعرية الكاملة (٢)
٥٨- مسرحيتان
٥٩- المحبرة
٦٠- التصميم والشكل
٦١- موسوعة علم الإنسان
٦٢- لغة النص
٦٣- تاريخ النقد الأدبي الحديث (٢)
٦٤- برتراند راسل (سيرة حياة)
٦٥- في مدح الكسل ومقالات أخرى
٦٦- خمس مسرحيات أندلسية
٦٧- مختارات
٦٨- نتاشا العجوز وقصص أخرى
٦٩- العلم الإسلامي في أول القرن العشرين
٧٠- ثقافة حضارة أمريكا اللاتينية
٧١- السيدة لا تصلح إلا الرمي
- والاس مارتن
بريجيت شيفر
آلن تورين
بيتر والكوت
آن سكستون
بيتر جران
بنجامين باربر
أوكافيو بات
الدوس مكسلي
روبرت ج. دنيا - جون ف. أ. فاين
بابلو تيرونا
رينيه ويليك
فرانسوا دوما
ه. ت. نوريس
جمال الدين بن الشيخ
داريو بيانديرا وخ. م. بينياليستي
بيتر. ن. نوفاليس وستيفن. ج.
روجنيفيتز وروجر بيل
ا. ف. ألتجتون
ج. مايكل والتون
جون بولكجهوم
فديريكو غرسية لوركا
فديريكو غرسية لوركا
فديريكو غرسية لوركا
كارلوس مونيث
جوهانز ايتين
شارلوت سيمور - سميث
رولان بارت
رينيه ويليك
الان رود
برتراند راسل
أنطونيو جالا
فرناندو بيمورا
فالنتين راسبوتين
عبد الرشيد إبراهيم
أوخينيو تشانج رودريجت
داريو فر
- ت : حياة جاسم محمد
ت : جمال عبد الرحيم
ت : أنور مغيث
ت : منيرة كروان
ت : محمد عبد إبراهيم
ت : عطف احمد / إبراهيم قحى / محمود ملج
ت : أحمد محمود
ت : المهدي أخريف
ت : مارلين تانرس
ت : أحمد محمود
ت : محمود السيد علي
ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
ت : ماهر جورجياتي
ت : عبد الوهاب طوب
ت : محمد برادة وشافى الملود ويوسف الأطكى
ت : محمد أبو العطا
ت : لطفي فطيم وعادل دمرdash
ت : مرسى سعد الدين
ت : محسن مصيلحي
ت : علي يوسف علي
ت : محمود علي مكي
ت : محمود السيد ، ماهر البطوطي
ت : محمد أبو العطا
ت : السيد السيد سهيم
ت : صبرى محمد عبد النسي
مراجعة وإشراف : محمد الجوهري
ت : محمد خير البقاص ،
ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
ت : رمسيس عوض .
ت : رمسيس عوض .
ت : عبد الطيف عبد الحليم
ت : المهدي أخريف
ت : أشرف الصباغ
ت : أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمي
ت : عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
ت : حسين محمود

- ٧٢- السياسات العجوز
٧٣- نقد استجابة القارئ
٧٤- صلاح الدين والمالكية في مصر
٧٥- فن التراجم والصير الذاتية
٧٦- جاك لاكان ولغز التحليل النفسي
٧٧- تاريخ النقد الأدبي الحديث ج ٢
٧٨- العولمة: النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية
٧٩- شعورية التأليف
٨٠- بوشكين، بحث «تأفورة النمو»
٨١- الجماعات التخيلية
٨٢- مسرح ميغيل
٨٣- مختارات
٨٤- موسوعة الأدب والنقد
٨٥- منصور الحلاج (مسرحية)
٨٦- طول الليل
٨٧- نون والقلم
٨٨- الابتلاء بالغرب
٨٩- الطريق الثالث
٩٠- وهم السيف
٩١- المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق
٩٢- أساليب ومضامين المسرح
٩٣- الإسبانيون أمريكي المعاصر
٩٤- محنتات العولمة
٩٥- الحب الأول والصعبة
٩٦- مختارات من المسرح الإسباني
٩٧- ثلاث زبقات ووردة
٩٨- همية فرنسا مع
٩٩- الهم الإنساني والابتزاز الصهيوني
١٠٠- تاريخ السينما العالمية
١٠١- مساطة العولمة
١٠٢- النص الروائي (تقنيات ومناهج)
١٠٣- السياسة والتسامح
١٠٤- قبر ابن مريس يليه آباء
١٠٥- أوبرا مافولوني
١٠٦- مدخل إلى النص الجامع
١٠٧- صبرة اللغز في الشعر الأمريكي المعاصر
- ت. س. إلبرت
جين. ب. تومكينز
ل. ا. سيمبسون
أندريه موروا
مجموعة من الكتاب
رينيه ويليك
رونالد روبرتسون
يوريس لوسينسكي
ألكسندر بوشكين
ينسكت أندرسن
ميغيل دي أونامونو
فوتريد بن
مجموعة من الكتاب
صلاح زكي القماي
جمال مير صابلي
جلال آل أحمد
جلال آل أحمد
انتوني جينز
ميغل دي ثريانس
باربر الاسوستكا
كارلوس ميغل
مايك فيذرستون وسكوت لاش
صمويل بيكيت
أنطونيو بوير بايخو
قصص مختارة
فرناند بروديل
نماذج ومقالات
بيفيد روينسون
بول ميرست وجراهام تومبسون
بيرنار فاليت
عبد الكريم الخطيب
عبد الوهاب المؤيد
برتوات بريشت
جيرار جينيث
ماريا خيسوس روبييرامتي
تخبة
- ت. إفراد مجلي
ت. حسن ناظم وعلي حاكم
ت. حسن بيومي
ت. أحمد برونش
ت. عبد المصطفى عبد الكريم
ت. مجاهد عبد المتعم مجاهد
ت. أحمد محمودة ونورا أمين
ت. سعيد القانمي وناصر حلاوي
ت. فكارم الغمري
ت. محمد طارق الشرفاري
ت. محمود السيد علي
ت. خالد المعالي
ت. عبد الحميد شحجة
ت. عبد الرزاق بركات
ت. أحمد فتحي يوسف شتا
ت. ناجدة العناني
ت. إبراهيم النصولي شتا
ت. أحمد زايد ومحمد محيي الدين
ت. محمد إبراهيم مبروك
ت. محمد هناء عبد الفتاح
ت. نادية جمال الدين
ت. عبد الوهاب عريب
ت. فوزية العشماوي
ت. سوي محمد محمد عبد الحليم
ت. إدوار الخراط
ت. بشير السباهي
ت. أشرف الصباغ
ت. إبراهيم فتيل
ت. إبراهيم فتحي
ت. رشيد بنحو
ت. عز الدين الكفاني الإبريسي
ت. محمد بنيس
ت. عبد القادر مكارى
ت. عبد العزيز شبيب
ت. د. أشرف علي دعور
ت. محمد عبد الله الجعدي

- ١٠٨- ثلاث دراسات من الشعر الكلاسي
١٠٩- حروب المياه
١١٠- النساء في العالم الثامن
١١١- المرأة والجريمة
١١٢- الاحتجاج الهادئ
١١٣- راية التمرد
١١٤- مسرحيات حسان كرنجى وسكان المستنق
١١٥- خوفة تخص المرأة وحده
١١٦- امرأة مختلفة (درية شفيق)
١١٧- للمرأة والجنوسة في الإسلام
١١٨- النهضة النسائية في مصر
١١٩- النساء والأسرة وقوانين الطلاق
١٢٠- الحركة النسائية والتطور في الشرق الأوسط
١٢١- الدليل المبكر في كتابة المرأة العربية
١٢٢- نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان
١٢٣- الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية
١٢٤- اللجر الكاتب
١٢٥- التحليل الموسيقي
١٢٦- فعل القراءة
١٢٧- إلهاب
١٢٨- الأدب المقارن
١٢٩- الرواية الأسبانية المعاصرة
١٣٠- الشرق يصعد ثانية
١٣١- مصر القديمة (التاريخ الاجتماعي)
١٣٢- ثقافة العولمة
١٣٣- الخوف من المرايا
١٣٤- تشريح حضارة
١٣٥- المختار من نقد ت. س. إليوت
١٣٦- فلاحو الباشا
١٣٧- مذكرات ضابط في الحملة الفرنسية
١٣٨- عالم التلفزيون بين الجمال والعنف
١٣٩- النظرية الشعرية عند إليوت وأندونيس
١٤٠- حيث تلقى الأنهار
١٤١- اثنتا عشرة مسرحية يونانية
١٤٢- الإسكتلندية : تاريخ وديال
١٤٣- قضايا التكفير في البحث الاجتماعي
١٤٤- صاحبة اللوكاندة
- مجموعة من النقاد
جون بولوك وعادل درويش
حسنة بيجوم
فرانسيس هيلدسون
أرلين علوى ماكليود
سلوى پلاتت
رول شروينكا
لورچينيا وولف
سينثيا تلمسون
إيلي أحمد
بث بارون
أميرة الأزهرى سنيل
إيلي أبو لند
فاطمة موسى
جوزيف فوجت
نيل الكسندر وفنادولينا
جون جراى
سينريك ثورپ نيلى
لؤلؤ الحاج إيسر
صفاء فتحى
سوزان باسليت
ماريا دواويس أسيس جاورى
أنثريه جراسر فرانك
مجموعة من المؤلفين
مايك فيلرستون
طارق على
بارى ج. كيمب
ت. س. إليوت
كينيث كرنو
جوزيف ماري موارى
إيلينا تارونى
عاطف لفسول
هربرت ميسن
مجموعة من المؤلفين
أ. م. فورستر
ديريك لايدار
كارل جولدولفى
- ت : محمود على بكى
ت : هاشم أحمد محمد
ت : منى قطان
ت : ريهام حسين إبراهيم
ت : إكرام يوسف
ت : أحمد حسان
ت : نسيم مجلى
ت : سميرة ومضان
ت : نهاده أحمد سالم
ت : منى إبراهيم : ومالة كمال
ت : ليس النقاش
ت : بإشراف/ رؤوف عباس
ت : نخبة من المترجمين
ت : محمد العنبرى : وإيزابيل كمال
ت : منيرة كروان
ت : أنور محمد إبراهيم
ت : أحمد فؤاد بليغ
ت : سمحه الخولى
ت : عبد الوهاب طوط
ت : بشير السباعي
ت : أميرة حسن نويرة
ت : محمد أبو العطا وأخرون
ت : شوقي جلال
ت : لويس بلطر
ت : عبد الوهاب طوط
ت : طلعت الشايب
ت : أحمد محمود
ت : ماهر شفيق فريد
ت : سحر توفيق
ت : كاميليا صبحي
ت : وجيه سمعان عبد المسيح
ت : أسامة إسبر
ت : أمل الجبوري
ت : نعيم عطية
ت : حسن بيومي
ت : عدلى السخري
ت : سلامة محمد سليمان

١٤٥- موت أرتيميو كروث	كارلوس فويلتس	ت : أحمد حسان
١٤٦- الرقعة الحمراء	ميجيل دي ليس	ت : علي عبدالرزاق العنبي
١٤٧- خطبة الإذاعة الطويلة	تاتكريد دورست	ت : عبداللطيف مكلوي
١٤٨- القصة القصيرة (النظرية والتقنية)	إنريكي أندرسون إمبرت	ت : علي إبراهيم علي مطولي
١٤٩- النظرية الشعرية منذ إيلوت وأندريس	عاطف فضول	ت : أسامة إسبر
١٥٠- التجربة الإعرافية	روبرت ج. ليتمان	ت : ميرة كروان
١٥١- هوية فرنسا مع ٢ ، ج ١	فرنان برودل	ت : بشير السباعي
١٥٢- عدالة الهند وتضمن أخرى	مخبة من الكتاب	ت : محمد محمد الخطابي
١٥٣- غرام القراءة	فيولين فانتويك	ت : فاطمة عبدالله محمود
١٥٤- مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	ت : خليل كلفت
١٥٥- الشعر الأمريكي المعاصر	نخبة من الشعراء	ت : أحمد مرسى
١٥٦- المدارس الجمالية الكبرى	هي اتبال والآن وأدويت فيرمو	ت : سي القمصاني
١٥٧- خسرو وشيرين	النظامي الكرجي	ت : عبدالعزيز بكوش
١٥٨- هوية فرنسا مع ٢ ، ج ٢	فرنان برودل	ت : بشير السباعي
١٥٩- الإيديولوجية	ديفيد هوكس	ت : إبراهيم فتحي
١٦٠- آلة الطبيعة	بول إيريش	ت : حسين بيوس
١٦١- من المسرح الإسباني	البيخاندرو كاسوتا وأنطونيو جالا	ت : زيدان عبدالعليم زيدان
١٦٢- تاريخ الكنيسة	يرحنا الأسيري	ت : صلاح عبدالعزيز محبوب
١٦٣- موسوعة علم الاجتماع	جورجن مارشال	ت : مجموعة من المترجمين
١٦٤- شامبوليون (حياة من نور)	جان لوكوتير	ت : نبيل سعد
١٦٥- حكايات الطلب	أ. ن. إلفانا سيدا	ت : سهير المصانفة
١٦٦- العلاقات بين المسلمين واليهود في إسرائيل	يشعياهو ليفمان	ت : محمد محمود أبو خدير
١٦٧- في عالم طافور	رايندرانات طافور	ت : شكري محمد عياد
١٦٨- دراسات في الأدب والثقافة	مجموعة من المؤلفين	ت : شكري محمد عياد
١٦٩- إبداعات أدبية	مجموعة من المبدعين	ت : شكري محمد عياد
١٧٠- الطريق	ميفيل دابيسين	ت : بسام ياسين رشيد
١٧١- وضع حد	فرانك بيجو	ت : هادي حسين
١٧٢- حجر الشمس	مختارات	ت : محمد محمد الخطابي
١٧٣- معنى الجمال	واتر ج. ستيس	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤- صناعة الثقافة السوداء	أيليس كاشمور	ت : أحمد محمود
١٧٥- التليفزيون في الحياة اليومية	لورينزو فيلفس	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦- نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	لوم تبتيرج	ت : حلال البنا
١٧٧- أنطون تشيفيرف	هلري تروايا	ت : حماد إبراهيم الخفيف
١٧٨- مختارات من الشعر اليوناني الحديث	نخبة من الشعراء	ت : محمد حمدي إبراهيم
١٧٩- حكايات أيسوب	أيسوب	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠- قصة جاويد	إسماعيل فصيح	ت : سليم عبد الأمير حمدان
١٨١- النقد الأنبي الأمريكي	فنسنت ب. ليتش	ت : محمد يحيى
١٨٢- العنف والبرية	و.ب. بيتس	ت : ياسين طه جياظ
١٨٣- جان كركور على شاشة السينما	روليو جيلسون	ت : فتحي العشري

١٨٤- القاهرة... حالة لا تمام	هانز إيتنهورف	ت: نسوانى سعيد
١٨٥- أسفار العهد القديم	توماس ثومسن	ت: عبد الوهاب عوي
١٨٦- معجم مصطلحات ميكل	ميخائيل أنور	ت: إمام عبد الفتاح إمام
١٨٧- الأرضة	بندج طوى	ت: علاء منصور
١٨٨- موت الانب	الفن كرنان	ت: بتر السيب
١٨٩- العمى والبصيرة	بول دى مان	ت: سعيد القاننى
١٩٠- محاضرات كوتفوشينس	كونفوشينس	ت: محسن سيد فرجاني
١٩١- الكلام رأسمال	الحاج أبو بكر إمام	ت: مصطفى حجازى السيد
١٩٢- سياحت نامه إبراهيم بيك ج١	زين العابدين الراعى	ت: محمود سلامة علاوى
١٩٣- عامل المنجم	بيتر أيزاهامز	ت: محمد عبد الواحد محمد
١٩٤- مختارات من النقد الأنجلو-أمريكى	مجموعة من النقاد	ت: ماهر شفيق فريد
١٩٥- شتاء ٨٤	إسماعيل فصيح	ت: محمد علاء الدين منصور
١٩٦- الهلة الأخيرة	هالتين راسبوتين	ت: أشرف الصباغ
١٩٧- الفاروق	شمس الطعام شيلي التمانى	ت: جلال السيد الحفناوى
١٩٨- الاتصال الجماهيرى	الدوين إمزى وأخرون	ت: إبراهيم سلامة إبراهيم
١٩٩- تاريخ يهود مصر فى الفترة العثمانية	يعقوب لاندواى	ت: جمال أحمد الرئاسى وأحمد عبد الطيف حماد
٢٠٠- شعابا التنية	جيرمى سيبروك	ت: فخري لبيب
٢٠١- الجانب الدينى الفلسفة	جوزايا رويس	ت: أحمد الانصار
٢٠٢- تاريخ النقد الأدبى الحديث ج١	رينيه وريك	ت: مجاهد عبد المنعم مجاهد
٢٠٣- الشعر والحضارية	الطاف حسين حالى	ت: جلال السيد الحفناوى
٢٠٤- تاريخ نقد العهد القديم	م. سولفيتشيك، ز. روشوف	ت: أحمد محمود هويدى
٢٠٥- الجينات والضمير واللغات	لويجى لوقا كافالى- ستورزا	ت: أحمد مستجير
٢٠٦- اليهودية تمسح علما جديدا	جيمس جليك	ت: على يوسف على
٢٠٧- ليل إفرى	رامون خوتاستدير	ت: محمد أبو العلا عبد الرؤوف
٢٠٨- شخصية التري فى المسرح الإسرائيلى	دان أوربان	ت: محمد أحمد منال
٢٠٩- السر والسر	مجموعة من المؤلفين	ت: أشرف الصباغ
٢١٠- مثليات حكيم سنائى	سنائى اللزنى	ت: يوسف عبد الفتاح فرج
٢١١- فرينتان دى سوسير	جوناثان كلر	ت: محمود حمدى عبد الفنى
٢١٢- قصص الأمير مزيان	مزيان بن رستم بن شروين	ت: يوسف عبد الفتاح فرج
٢١٣- مصر منذ قدم الفايون حتى رحيل عبدالناصر	ريمون هاتور	ت: سيد أحمد على الناصرى
٢١٤- قواعد جديدة للخط فى نظم الاجتماع	أنتونى جينز	ت: محمد محمود محى الدين
٢١٥- سياحت نامه إبراهيم بيك ج٢	زين العابدين الراعى	ت: محمود سلامة علاوى
٢١٦- جوانب أخرى من حياتهم	مجموعة من المؤلفين	ت: أشرف الصباغ
٢١٧- مجلة السياسة العالمية	جون بايلس و ستيف سميت	ت: رجب سمعان عبد المسيح
٢١٨- رايولا	خوليو كورتازان	ت: على إبراهيم على منولى
٢١٩- بقايا اليرم	كازو ايشيجيرو	ت: طلعت الشايب
٢٢٠- اليهودية فى الكويت	بارى باركر	ت: على يوسف على
٢٢١- شعيرة كنانى	جرجورى جوزدانس	ت: رفعت سلام

قم الإيداع : ٢٠٠٠/١٦١٤٥

التزقيم الدولى / 0 = 271 - 305 - 977 / LS.B.N.

ت والنشر ق . م

المجلس
العلمي
للسلام



ليل أفريقي

